عائد إلى قبري

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفنى

أحمد جابر

تصميم الغلاف

يسرا عبد العزيز

دار النخبـة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى - الحي الأول- مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢-٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الثانية

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2015/20617

ISBN: 978 - 977 - 5154 - 53 - 8

زكية علال

عائد إلى قبري

رواية

٢٠١٧

إهداء

.....

.....

.....

مدخل غير عابر

عندما لا مست الطائرة أرضية المطار....

أنحنى قلبي ليسجد لبهاء الوطن..... فسأله بفزع:

ما بال صاحبك يسعى نحو بياضي برجل واحدة... أين ترك بعض جسده ؟

رد بخيبة:

تركه يسبح في فتنة بلاد الرافدين....

قال و هو يبتسم بمرارة:

ألم تكن فتنة بلده أولى ببعض جسده ؟!!!

مدخل عابر

هل يمكن لعين واحدة أن تحيط بملامح الذين أحبهم، وتسجد ليُتْمهم الذي نما وكبُر في غيابي، ليغدو أقرب منهم إليّ ؟

هل يمكن لعين واحدة أن تذرف ما يكفي من الدمع لأتطهّر من خيانة وعقوق اقترفتهما عن طوع مني يشبه الكره أو عن كره يشبه الطوع؟

هل يمكن لذراع واحدة أن تحيط بخاصرة امرأة رسمت تاريخي وقادتني إلى حرب قذرة، عدت منها ببقايا رجل يتآكل يوما بعد آخر، وينظر إلى العالم من ثقب في بيته؟

هل يمكن لقدم واحدة ويتيمة أن تُحْدِث صوتا ينبئ بقدومي، وتعلن عن مجيء رجل يملأ المكان بطغيان رجولته؟

وأخيرا

هل يمكن لنصف رجل أن يعانق وطنا ويحضن أمّا، ويسير إلى جانب عروسه في موكب بهي كما تمنّى واشتهى ذات حلم لم يطلع فجره؟

(١)

عندما تقف على قبر من تحبّ، تفقد المنطق وتجتاحك رغبة مجنونة في أن تدحرج كل الأحجار المتفاوتة التي نبتت على قبره، وتزيح التراب الذي بدأ يفقد علوه عن الأرض لتكشف عن وجه حبيبك ـ فقط ـ لتقول له أني افتقدتك، وأني يتيم جدا في غيابك وأنّ العالم على اتساعه أصبح فارغا.. عندما تنظر إلى وجه الحبيب ستعرف أنّ سنين الوجع كانت أطول بكثير من فرح كان عابرا، وأن عمر الإنسان لا يقاس بما عاشه من سنين ولا بما حققه من نجاح كما تقول الحكمة ـ بل يُقاس بما فقد من أحبته، وبحجم الخسارة التي لحقت به..

عندما تقف على قبر من تحبّ، تتعثّر الحكمة وتسيطر عليك رغبة قوية في أن تحضنه وتبكي على كتفه ولو كان ميتا، لأن صدمة الفراق الأول حبست دموعك، وتريد أن تمنحه حقه في دمعك ولو بعد عمر.. لكن، هل ستجد حبيبك على هيئته الأولى، بحضنه الذي كان دافئا، وابتسامته التي أهداك إياها قبل رحيله؟ أم ستجد ملامح أخرى وهيكلا فارغا يستعد لأن ينقضّ عليك فتهرب مفزوعا، وتترك القبر مفتوحا.

هل سيحس بحبك وبلهفتك عليه؟ أم ستجد رفاتا بلا ملامح، وكتفا باردا ويابسا، فتشعر بحسرة وندم يفقدانك توازنك..

هل يمكن لحيّ أن يبكي على كتف ميّت؟

هل يبقى للميّت كتف دافئ ومريح نلقي فوقه بكل أوجاعنا؟

الآن..

أقف على قبر أبي..

أتذكر قصة ذلك الصوفي الذي هاجر إلى بلدة، وحين دخلها بادر بزيارة مقابرها، فقرأ على أحد شواهدها: هذا قبر فلان، كان عالما فاضلا، مات وعمره عامان، ثم وقف قرب آخر، فرأى عليه: هذا قبر فلان القائد العظيم الذي لم يعرف جيشه الهزيمة منذ أن تولى القيادة، مات وعمره ثلاثة أيام. فتعجّب من هذا كله وتوجه إلى حكيم البلدة وسأله عن هذا اللغز الذي لم يفهمه، فقال له الحكيم: إننا لا نعدّ من حياتنا إلا ما نعيشه من الأيام السعيدة. فقال الصوفي: ما أعجب هذا المقياس، إني أودّ أن أموت ببلدكم وأرجو أن تكتبوا على قبري: هذا قبر صوفي رحالة كان يجوب الأقطار، ويزور الأمصار، ومات قبل أن يُولد.....

تذكرت هذه القصة الطّريفة وأنا أنظر إلى الشاهد الذي نُصب على قبر أبي، وأقرأ المسافة بين تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، كانت أربعين عاما، هل كان سعيدا كل هذه السنين حتى أرّخوا لها جميعا؟ وبماذا نقيس سعادة المرء؟ هل بقدرته على الحب، أم على الغفران، أم بتبسّمه في وجه من داس على رأسه وذبحه؟

إذن، فأبي عاش أكثر من عمره لأنه فعل كل ذلك.

الآن

أقف على قبر أبي

لا أدري إن كنت قد قرأت دعاء الدخول إلى المقبرة أم لا، لكني أدرك تماما أن لا أحد يتبع الآخر مثلما يتبع الحي الميت ويلحق به، فعندما نُنزل الحبيب إلى قبره ونهيل عليه التراب ننظر إلى المساحة التي تجاوره ونوصي أن نُدفن إلى جانبه، ويحدث كثيرا أن تتحقق الوصية..

لا أدري إن كنت طرحت السلام على مدينة تغرق في هدوئها وصمتها، لكني أعي جيدا أنني كنت أسير بين القبور وأتحيّر موضع قدمي اليتيمة حتى أتجنّب المشي فوق الرفات، وأنّ هذه القبور على اختلافها تحاكي منازل الأحياء، فمن شكل القبر تعرف كيف كانت وجاهة صاحبه في الدنيا، فهذا قبر أحاطوه بالرخام الفاخر ونبتت فوقه ورود حمراء تغريك بأن تنظر إليها ويأخذك الفضول أن تقرأ ما كُتب على الشاهد، وذاك قبر حاصروا ترابه بالأسمنت المتماسك فكان على شكل حوض يطلّ منه إناء من طين كعلامة تميزه عن غيره وتيسّر الوصول إليه والتعرف عليه، وقبر آخر تركوه على هيئته الأولى وبدأ يفقد علوه عن الأرض، حتى الشاهد الذي يرتفع فوقه بدا باهتا ولا تُقرأ كلماته إلا بصعوبة كبيرة، وقبور أخرى بلا شواهد وكأنها لا تعني أحدا من الأحياء..

الآن

أقف على قبر أبي

تعجبت لأن حجمه أصبح لا يختلف عن بقية القبور. آخر مرة زرته قبل عشر سنوات تخيلته صغيرا بحجم قبر صبي حديث الولادة، كان حينها لا يحضن غير رأس وجدناه في كيس أسود بين القمامة. ربما صدمتي الأولى أوحت لي بذلك، لكني الآن أراه لا يكاد يختلف عن حجم بقية القبور.. هل عثروا على بقية الجسد، ورجع لأبي حقه في شبر أرض؟ وهل أعادوا استخراج الرأس وخاطوه ببقية الجسد أم دفنوه إلى جواره وسيعرف كل منهما الآخر، ويلتحمان دونما حاجة لخيط وإبرة..

لا زلت أتذكر حكمة أبي وهو يحدثني عن عجبه من لهفة الناس على الدنيا «لن نأخذ من الدنيا إلا شبرا واحدا، لكن هذا الشبر قد يضيق على الخبيث، ويتسع على الطيب» فهل هو القبر اتسع على أبي بعد كل هذه السنين لطيبته؟ أم أن المصالحة الوطنية صالحت رأس أبي على بقية الجسد؟

الآن

أقف على قبر أبي

المنطق يتعثّر كما تعثّر في بغداد وجعلني أعود إلى أهلي ببقايا رجل وبعصا أهش بها على انكساري الذي يتفرّق حينا ثم يعود ليلتفّ حولي كقطيع غنم تتبع راعيها حتى وهو يهش عليها بعصاه، بل وتسبقه لأنها تعرف طريقها.

غابت الحكمة.. ووجدت نفسي أجثو على قبر أبي بركبة يتيمة وأبدأ برمي الحجارة المتفاوتة التي نبتت على القبر.. تدحرج الحجر الأول، الحجر الثاني، الحجر.. يداي ترتعشان، والعرق يتصبب من جبيني وينزل ماء باردا على وجهي.. الرجفة سرت في كل جسدي وأنا أكتشف أن المكان الذي تدحرجت عنه الأحجار يكفي لأن أحفر فيه فتحة وأرى وجه أبي وأقبّله، بل يجب أن أوسّع الفتحة لأني أريد أن أرى الجسد كله وأتأكد أن المصالحة كانت حقيقة ولم تكن شعارا يُضاف إلى بقية شعارات ملأنا بها فراغ فواضانا..

التفتّ إلى يميني ثم إلى يساري. نظرت خلفي، لم أر أحدا، ولن يراني أحد.. المكان آمن وسط صمت الموتى الذين لا يتأوهون حتى ولو عبث الأحياء بأعضائهم.. بدأت أنبش القبر بأصابعي..

آه، يا أبي.

لقد وجدتَ من أهلك من يبكي على رأس عثرنا عليها في كيس للقمامة، ولم أجد من أهلي من يبكي على ساقي التي تركتها في غرفة العمليات ببغداد، ولا أدري ما فعلوا بها.. لم أسأل الطبيب الذي بدا متعاطفا جدا معي ـ ماذا يفعلون بالأعضاء التي يبترونها؟ هل يرمونها مع النفايات الطبية لتكون طعاما شهيا للكلاب الضالة، أم يدفنونها كما يُدفن الجسد كاملا؟ هل تُغسّل وتُكفّن وتُكرم كبقية الجسد؟ أم أنّ العضو الذي ينفصل عن الجسد ولو قَصْرا ـ يصبح منبوذا ولا يستحق أن يُكرم.....

أصابعي تغوص في التراب..

لا شيء غير التراب الذي بدأ يصبح ناعما.

فجأة، تملكتني قشعريرة سرت في جسدي كله وشلّت حركة يديّ.. يا ألله.. ما هذه الحماقة التي سأرتكبها؟ بل ما هذا الجرم الذي أقدم عليه؟ أأحفر قبر أبي؟ إني بذلك لن أختلف عن العجوز «علجية» التي شاع في القرية أنها تسعى إلى المقبرة ليلا، وتحفر القبور لتعدّ الكسكس بأيدي الموتى، وتبيعه لزبائنها ليشفوا غليلهم من عدوّ نغّص عليهم حياتهم، أو ليفرّقوا بين حبيبين أزعجهم ما كان بينهما من حب.. ولن أختلف عن المجهولين الذين نبشوا القبور في بعض ولايات الوطن وكشفوا عن عظام الموتي، وكأنهم أرادوا أن ينتقموا من الأحياء بالعبث بحرمة الموتى..

الفزع جعلني أشعر برغبة ملحة في أن أطلق العنان لساقي وأهرب من جريمة كنت مقدما عليها، لكن خانني فراغ ساقي وكان لا بد أن أنهض متكئا على عصاي دون أن أنفض يدي من تراب قبر أبي أو أعيد الأحجار التي دحرجتها.

لست أدري لماذا افتتحت زيارتي للقرية بالمقبرة، ربما لأنها أول من يستقبلك عندما تدخل القرية.. كل المدن التي زرتها لم أجد فيهم مدينة تستقبلك بمقبرة إلا قريتي النائمة بين أحضان الجبل، وكأنها تحيلك إلى سكون الموت الذي ينتظرك عندما تدخلها..

عندما غادرت المقبرة كان قرص الشمس يتضاءل في أفق أحلامي، حتى بات نقطة هينة لا أتبين منها شيئا يضيء لي المكان، وأحتل الليل مساحة كبيرة تمدّدت في شراييني، وكأنّ الظلام يتحدى الضياء الذي كنت أراهن عليه..

نجوم سمائي تهاوت على قدم مبتورة خلفتها ورائي ترقد في أرض بيني وبينها مسافة وجع.. أرض عاشرتُ فيها النار والخوف، وأحلاماً رأيتها مشروعة.. لكنني رجعتُ منها مهزوما، بعد أن تركتُ على تربتها الملوّنة برائحة الخيانة بعض جسدي ودمي ليشهدا على بشاعة اعتناق الإنسان لمذهب القتل كغاية.. فالكون- منذ الولادة الأولى- أخذ شكل رجل قاتل وآخر مقتول، ثم توسّعت الخطيئة إلى شعب غالب وآخر مغلوب.. أمة ظالمة وأخرى مظلومة...

منذ الولادة الأولى لم تنفع الحكمة، ولا دعوة المظلوم للظالم لأن يجلس معه للتفاوض، وعدم اللجوء إلى القتل لأنه ينهي كل علاقة إنسانية تربط الإنسان بأخيه الإنسان.. وقَتَل قابيل هابيل.. كان الأول يريد أن ينتصر لرغبته، والثاني أراد أن ينتصر للحكمة.. وانتصرت الرغبة على الحكمة..

الرغبة لا تأخذ سوى دقائق لتزحف على كل بياض آت وتقلب موازين الأشياء، أما الحكمة فتحتاج إلى سنين وربما قرون لتفرض منطقها، وتعيد العالم إلى مساره الصحيح.. قبل أن تنطق الحكمة تكون الرغبة

قد حصدت ملايين الأرواح وكمّمت آلاف الأفواه.. عيبُ الحكمة أنها بطيئة، بينما الحماقة تضرب في كل الاتجاهات وفي وقت واحد.

كم هو موجع أن تسيطر فلسفة القتل على منطق البشر، وتزحف إلى جسدك لتنتزع منك بعضه وتتركك تسير إلى أهلك ببقايا جسد.. الأخف وجعا- ألا تعود، لأن نظرة الشفقة في عيون الآخرين ستجعلك تحنّ لما ضاع منك، وتنقم على ما بقيّ منه...

لأول مرة وأنا أشرف على القرية أكتشف اختفاء رأس أبي الذي كنت أراه معلّقا على شجرة الصفصاف التي تقدّمك إلى قرية تغرق في أوحالها، وتنسي الناس كرامتهم في وطن جعل منه الأوصياء علينا قطعة قماش حريرية لكنهم فصّلوها على مقاس الذين ورثوا بهاء الاستقلال وأورثونا همّه الكبير الذي قالوا بأنه طبيعي ومنطقي بعد فترة استعمار، وبأن على الناس أن يصبروا لأن إعادة إعمار أرض خرّبها الاستدمار تحتاج إلى سنين جمر وسنين صبر يشبه صبر أيوب..

اختفى رأس أبي الذي كنت أراه ـ على صغر حجمه ـ يتمدّد ظله على الجسر المهترئ الذي لا يقاوم أمطار الشتاء فتغمره المياه لتفصل السكان عن الحياة مدة قد تطول لأكثر من أسبوع.. ظِلُّ الرأس المفصول منذ صيف منتصف التسعينات لم يترك شبرا أعبر من خلاله لأرى وجه أمي، حتى المرات القليلة التي كنت فيها مضطرا للعودة إلى القرية، كنت أسلك طريقا آخر ملتويا وطويلا وشائكا..

توارى رأس أبي لأن رجلي المبتورة زاحمته على مساحة حزن، فالصدمة لا تدفعها إلا صدمة أكبر منها، والانكسار لا يحني ظهره إلا انكسار آخر يقصم الظهر ولا يرضى بانحنائه..

توارى رأس أبي لأني لأول مرة أقف عند قبره طويلا وأتأكد من أنه رحل عن هذا العالم وأنّ التراب واراه كما كل البشر..

عندما وطأت قدمي اليتيمة تراب القرية، كان النهار قد ولّى محجبا ابتسامته المضيئة وراء الجبل الذي ظل- زمنا- يشرع لها صدره الواسع ليحجب عنها الحياة بحجة حمايتها.. اخترتُ هذا التوقيت، لأني على يقين أن الناس هنا تقلّ حركاتهم بعد مغيب الشمس تاركين أمر السهر لهذا المارد الذي لا ينام.. وحده الجبل الذي يحضن القرية ويبسط رهبته على ضعفها المكشوف.. السكان في القرية يبسطون موائد العشاء بعد آذان المغرب وعودة الرجال من المسجد. فالرجوع إلى البيت وتناول وجبة العشاء مرتبطان بآذان صلاة المغرب حتى ولو تراجع إلى الخامسة مساء.. لا حياة في القرية بعد غروب الشمس.

لم أكن أرغب أن يراني أحد وأنا أسحب خيبتي ومنتهى انكساري برجل واحدة، بعد أن ظلّوا يرونني الاستثناء الوحيد الذي يتمدّد بريق أحلامه بين البيوت القديمة التي تنتشر على شكل محطات، وقد أحتل اسمي مساحات واسعة في الجرائد اليومية والأسبوعية...

لازلت أذكر أول يوم نشرت فيه قصيدة شعرية في الملحق الثقافي لجريدة الجمهورية والذي يشرف عليه الأستاذ بلقاسم بن عبد الله..

حينها تعمدتُ أن أسرّب الخبر لعمي «الطاهر القهواجي» لأن الأخبار عنده تأخذ شكل الضباب وحجمه، وتصل إلى كل الأزقة والأحياء، وتطرق الأبواب وتنقر على النوافذ.. كنتُ طالباً في السنة الأولى ثانوي، وأحلامي لا زالت بكرا تتأرجح على حبل قدر مجهول، بل ابتسامة تطلّ بها عروس على عنوان مغاير لكل تفاصيلها السابقة...

وهج القصيدة الأولى يغزوني اللحظة.. ينشر بعض الدفء في فضاءاتي الباردة.. كانت شهقة عبّرتُ بها عن حبي الأول لزميلتي التي كان الصمت يوشحها بجماله الأخّاذ.. صمتها كان يغازل تفوّقها فيبدعان لوحة هلامية تصفع المحيطين بها بدهشة.. البعض يرى صمتها غرورا، والبعض يجده ضعفا، بينما قال عنه البعض الآخر إنه تعالي الأذكياء...

وحدي، كنت مختلفا..

وحدي، تسلّلت إلى صمتها المغري حافيا.. عاريا من كل التقاليد والقيم التي أتجمّل بها نهارا، وأصنع لها ليلا حكايا تشبه حكايا ألف ليلة وليلة التي قرأتها في سن مبكرة..

صمتها تغلغل في داخلي كالشمس التي تنقر على النوافذ المغلقة وتغزو البيوت الباردة متسرّبة من ثقوب وفتحات سرية لتعيد ترتيب فصول الصقيع التي تنتشر في كل الزوايا.. عندما سلّمتها القصيدة الأولى مدسوسة في كراسها الذي استعرته منها عن نية مسبقة، وجدتها في اليوم الموالي تهديني ابتسامة عريضة جعلتني ـ ولأول مرة ـ أحس شيئا

دافئا يتسلل إلى جسدي كله، وشجعني هذا الدفء الذي استعذبته على أن أكتب لها قصائد أخرى أفرغ فيها كل ما أكنّه لها من حب.. حرصت على أن يبقى حبي لها سرا كتمته حتى عن أقرب أصدقائي لأكثر من عام، لأني اعتبرت علاقتي بها مشروع حلم أكاد أقبض عليه، ولا يحق لأحد أن يطلع على إرهاصات حلمي..

لم تكن فيروز تردّ على قصائدي الغزلية وكلمات الحب التي أنثرها على جوانب الرسائل بغير ابتسامة تتّسع يوما بعد آخر، ونظرة اعتبرتها ردّا بالقبول وهي تتغلغل إلى أعماقي..

لم أشعر برغبة في أن أتحدث إليها، فكل الحب الذي في قلبي أترجمه إلى قصائد شعرية. بل لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأن أقف أمامها وأعبّر لها عن حبي، حتى وهي تتعمّد أحيانا أن تتأخر داخل حجرة الدرس منشغلة بجمع كتبها وكراريسها من أجل أن تمنحني فرصة الانفراد بها، كنت ألتفت إليها ثم أخرج مسرعا كمن يهرب من قدر لا يريد أن يلتقي به..

بين القرية التي أسكنها والبلدية التي تتواجد بها الثانوية مسافة ساعة مشيا على الأقدام، كنا نسلك الطريق الزراعي، وأحبس خطواتي حتى تلتحق بنا هي وزميلاتها، ثم أسير خلفهن أنا وحسن ومصطفى ومراد. كنت أبرّر هذا التصرف بأنه شهامة منا، ويجب أن نحمي بنات القرية من غدر الطريق، والقصد أنّ واحدة من بين هؤلاء الطالبات وحدها من أسرتني وجعلتني أشعر بالمسؤولية تجاهها وتجاه كل من ترافقها..

كنت أسير خلفها لتعرف أن لها رجلا يحميها، وكانت هي تقود قلبي إلى مكان مجهول لا أعرف من أين سأدخله، ولا من أين سأخرج منه إن غدرت بي...

لكن فاجأني غيابها عن الدرس الأول ذات صباح ربيعي. اعتقدت الأمر مجرد تأخر فقط وقد تطلّ علينا من حين لآخر.. ظلّ نظري معلقا بالباب وقلبي ينتظر دخولها ليحيّيها بقصيدة أعبّر بها عن شوقي لها، وأعاتبها عن هذه الفوضى التي أحدثتها في مشاعري وحواسي وجعلتني أنشغل- ولأول مرة- عن الدرس وأسبح في فراغ مقعدها، وأتيه في ابتسامتها التي ظلت تطغى على المكان.. لكنها لم تأت.

امتدّ غيابها إلى آخر النهار، ثم إلى أيام متتالية.. وسمعت ذات مساء- وأنا أمرّ من أمام دارها لعلي آتي بخبر يقين عن سبب انقطاعها عن الدراسة- زغاريد متعالية، ورأيت نسوة يتوافدن على الدار. وعرفت أنها وليمة عرسها وأنها ستتزوج من ابن عمّ أبيها الذي جاء ليقضي معهم عطلة الربيع، فوقع في حبها وسحره جمالها الآسر وهو الذي تركها طفلة صغيرة منذ آخر زيارة له قبل خمس سنوات.. ابن عمّ أبيها تجاوز العقد الرابع وظلّ يرفض الزواج والارتباط بامرأة تؤسس معه لحياة قد يجد فيها ملامح الوطن الذي تحركه رياح الحنين إليه أحيانا، فيعود محمّلا بكثير من الملابس والعطور ينثرها على رأس عائلة ابن عمه التي يجد فيها حضنا دافئا يضمه إليه فيشعر أنه ليس وحيدا في هذا العالم، وأنّ له عائلة يتكئ عليها حين ضعفه. كان يرجع إلى فرنسا

محمّلا بالكسكس والطمينة وخبز الدار، هذه الأكلات الشعبية التي تذكّره بملامح أمه التي كانت ماهرة في طهي الكسكس ويُضرب بها المثل في القرية كلها. لكنه هذه المرة رجع بعروس جميلة ممدة في حقيبة سفره. فقد تمّ عقد القران بسرعة غريبة، وسافرت معه إلى فرنسا لترمي بتفوقها في البئر المحاذي لبيتها..

الغريب أن خبر زواجها لم يصدمني.. لم يجعل مني عاشقا مجنونا ليحيلني إلى شاعر مجنون كما يفعل الحب بالشعراء، حيث يسلبهم عقولهم ويتركهم أجسادا هشة تهيم في البراري، وتقف على الأطلال لتسألها عن حبيبة بهية كانت تملأ المكان.. خبر زواجها لم يكسّر شيئا بداخلي وكأنّ الأمر يعني رجلا آخر غيري، أو يتعلق بفتاة عبرت خيالي ذات إغفاءة قصيرة، ثم رحلت دون أن تترك أثر طيفها ولا حتى ملامح ابتسامتها.. بل اكتشفت أنّ استقبالها لقصائدي كان يرضي غرورها وإحساسها بالتميز ولهذا سقطت من عرش كنت قد أقمته لها.

بقيّ قلبي شامخا كأنْ لم تعبث به رياح امرأة ولم تحرّك ستائره، فظلّ على هدوئه وصفائه، وبقيت غرفه مغلقة في انتظار امرأة تأتي ذات ربيع آخر، وتعينني على أحلامي التي لم تسافر مع امرأة ترى الحياة في حقيبة سفر تتمدد فيها بفستان أبيض تلبسه.

صورة فيروز.. الطالبة التي أبهرتني بصمتها وتفوّقها، وصور أخرى ظلّت تلاحقني وأنا أسعى برجل واحدة نحو صدر أمي...

أمي...

وحدها.. التي تمنحني عمرا إضافيا يقتات منه وعاء الأحلام المثقوب..

وحدها.. التي تهبني من احتياط هوائها ما يكفي لشهقة العمر المتبقّي، فيسهل عليَّ أن أتنفس بيسر بعد اختناق سكنني وقتا طويلاً...

أمي...

وحدها، تمنحني من مشاعر ما يكفي لقلبي المنكسر كي تتجدّد به الحياة، ويعود إلى سابق عنفوانه..

وحدها، تمسك بحلمي المتعثّر، وتعينه بخطوات حتى يستقيم ويواصل سيره ولو باتجاه قبر مفتوح منذ زمن طويل..

وصلت إلى باب المنزل.. تغيّر فيه كل شيء، وبدا شاحبا بلون رمادي تطلّ من ورائه حُمرة فاترة تدلّ على قرب زوال الطلاء.. باب، وجدته يتكئ على شيخوخة مبكرة لطفولة لم تعمّر براءتها...

لا زلت أرى مريم تحمل دلوا به الماء والصابون وهي تغسله بعناية كبيرة، فأبي يصرّ دائماً على أنّ الباب الخارجي لأي بيت هو مرآة لمن يتحرّكون داخله. كان يثور- رغم هدوئه المقيم- إذا رأى وسخا يعلوه، ويصرخ بكثير من النرفزة التي تغيّر من رقته:

- مريم.. مريم..

فتجري عليه وجسدها يرتعش خوفا، وضفيرتها الذهبية ترتفع ثم ترتدّ إلى ظهرها في حركة سريعة، مضطربة، وعندما تقف أمامه يبادرها:

- ألم تلاحظي هذه الأوساخ على الباب وأنت تدخلين وتخرجين كل يوم؟ هيا، أسرعي ونظفيه.

فتسرع إلى إحضار دلو به الماء والصابون وإسفنجة، وتغسل الباب الخشبي بعناية كبيرة، فيعود إليه وجهه الذي غيّبه الغبار.

وعندما تنتهي من غسل الباب، ويعود إلى سابق تألقه، يقف أمامها مبتسما وراضيا عن مجهودها، ثم يمسكها من يدها الصغيرة الباردة المبتلة ويدخل بها إلى دكانه الصغير الذي يجاور البيت، ويملأ جيوبها بكثير من أنواع الحلوى، ثم يقول لها وهو يمسح على شعرها الذهبي الذي ينتهي عند ظهرها في ضفيرة يتيمة «النظافة من الإيمان» ثم يقول حكمته التي يردّدها دائما والتي تدلّ على الاستعداد الدائم لأيّ طارئ قد يباغتنا ونحن لسنا على نظافة فيجعلنا سخرية للآخرين: «اغسل وجهك ونقّيه، ما تدري اشكون تلاقي بيه».

هذا الموقف كان أول ما عرّفني بتميّز أبي وسرّ احترام القرية له، فعندما تمرّ أمام بيتنا وتقف على نظافة بابه الخارجي وتجدّد طلائه، تدرك أنّ المسؤول عنه رجل استثنائي..

الآن..

أقف مفجوعا أمام باب لم يعد استثنائيا، بل أصبح رقما عاديا في ترتيب بيوت القرية.

أخرجت المفتاح من جيب عمر هارب، كنت أحتفظ به لأنه يذكّرني بكلمات أمي التي كانت تقذفني بها كل ليلة: «يوسف يا ولدي، خذ معك المفتاح، أنا لا أقدر على السهر، يغلبني النوم بعد صلاة العشاء».

السهر كان جواز سفر إلى حلم كنت ُأقبض عليه.. بل كان عينا أرى بها خيوطا متوهجة لصباح مشرق.. بعد صلاة العشاء، وعندما تخلد القرية إلى سباتها المبكّر، أحتل- رفقة زملائي- ركنا في الساحة المجاورة للمقهي الذي يقف على ربوة الخيبة في قرية تتناسل يومياتها لتصنع وجها يتكرّر كل يوم... كنا نبدأ السهرة بمراجعة بعض دروس الفلسفة والأدب، لكن سرعان ما نرسم على الأوراق ملامح مستقبل غائب الملامح.. مراد يحلم أن يصبح أستاذا.. إعجابه بأستاذ اللغة العربية ولـّد عنده رغبة في أن يكون صورة عنه.. مصطفى يحلم أن يصبح ضابطا في الشرطة، لأنها أقصر الطرق للحصول على الوظيفة، ولأن هذه البدلة الزرقاء ذات الأزرار المذهّبة تمنحه هيبة بين الناس، وتجعل له ولعائلته نفوذا وسطوة في القرية وهو الشاب الآتي من بيت هش ينخره الفقر وتقصيه قلة الحيلة، فأبوه توفي وترك حمل سبعة أطفال لأمه التي لم تجد مخرجا لاستمرار حياة أبنائها وتوفير تكاليف الدراسة سوى مساعدة النساء في غسل الملابس وإعداد بعض العجائن

مقابل ما يجدن به عليها من لباس وطعام ومال، ورغم أن كل النساء كن يحترمنها ولا يتضايقن من وجودها بين أزواجهن وأولادهن لنبل أخلاقها وقدرتها على فرض احترام الآخرين لها أينما حلّت، إلا أنّ عملها في البيوت كان يؤلم مصطفى ويرى فيه انتقاصا من كبريائه، ولهذا كان يرى في الشرطة رد اعتبار لكرامة معطوبة..

أما حسن فكان يبتسم ببراءة طفل يحبو نحو صورة مثيرة، و يقول:

- أحلم أن أصبح رئيسا للبلدية...

ثم يستطرد حين يرى على وجوهنا سخرية من حلمه:

- ألا تذكرون حالة المير قبل أن يصبح على عرش البلدية.. جاء فقيرا ومعدما، وعدنا بأنه سيغيّر كثيرا من وجه القرية وسيعمل ما في وسعه لجلب مشاريع تنموية تدفع الغبن عنها، وأنه سيعبّد لنا الطريق ويضع حدا لمعاناتنا مع الوحل الذي يعلق بأقدامنا وأجسامنا كلما نزل المطر ويمنعنا من الالتحاق بمدارسنا إلا بمشقة كبيرة. وسينهي مأساتنا مع الماء الذي يأخذ من أوقات أطفالنا أكثر مما تأخذه العناية بدروسهم، حيث لا أثر للحنفيات في بيوتنا، إنما هي عين واحدة تتوسط البيوت وتعجّ بصراخ الأطفال الذين يتدافعون من أجل ملء دلائهم والعودة بسرعة إلى بيوتهم، أوفرهم حظا كان يستعين بحمار ليخفف عنه الحمل.. لكن المير رفع الغبن عن نفسه، وتغيّر هو في مسكنه وملبسه، أما وجه القرية فقد ظلّ شاحبا كما كان.. كان يكثر من زياراته للقرية ويطيل

الجلوس في هذه المقهى وهو يعد الملتفين حوله وينثر على رؤوسهم الحلم تلو الآخر.. لا زلت أذكر آخر خطبة له وهو ينظر في وجوه الحاضرين الذين يمتدّون إلى الساحة المكمّلة للمقهى ويقول بصوت حاد حينا ولين حينا آخر، مستجديا أصواتهم التي سترفعه فوق رقابهم: أيها المواطنون الأعزاء، أعدكم إن فزت في هذه الانتخابات أن يكون الطريق أول مشروع أكافئكم به، بعدها سأعمل جاهدا على أن يكون الماء في بيوتكم، وسأسعى جاهدا لبناء متوسطة وثانوية كي أخفّف من عناء أبنائي الطلبة في التنقل كل يوم إلى البلدية لمزاولة دراستهم في البرد والحر وقبل هذا، ستكون حافلة حاضرة كل صباح تنقل أبناءكم إلى مدارسهم، وتعيدهم مساء لينزل كل تلميذ أمام بيته معززا مكرّما، ولا يفكر إلا في دراسته.. إنهم أبناؤنا.. أكبادنا تمشي على الأرض، وهم أيضا مستقبل الجزائر...

ويتعالى التصفيق والتصفير تعبيرا عن الرضا والتأييد المطلق، لكنه يشير إليهم ليعودوا إلى صمتهم، ويواصل خطبته وهو ينظر في عيون الشيوخ التي تعلّقت بشفتيه المكتنزتين وعينيه الجاحظتين: أما بالنسبة لإخواني الفلاحين، فأعدهم أن أسهّل لهم الحصول على قروض بنكية ليشتروا عتادا جديدا.. سأجعل من هذه القرية النائية جنة خضراء.

ويصمت حسن قليلا، ثم يقول وهو يتنهّد متحسرا على سذاجة لم يستطع أن يغفرها لنفسه:

ـ كم كان مراوغا، وكم كنا نعاجا ونحن ننزل من هذه القرية الجبلية إلى مقر البلدية ونسير وراءه في حملته الانتخابية ـ على صغر سننا ـ ونصفق

لأحلامنا التي كنا نراها في ملامحه. كنا نصل الليل بالنهار ونحن نروّج لمشاريعه ووعوده بين الناس، ونمشي خلفه في المداشر والمسالك الوعرة وكأننا نقتفي ظل المهدي المنتظر.

ثم يلتفت إليّ حسن ويقول بكثير من الخبث:

- أيهما أفضل للقرية وللبلدية كلها: «مير» بشهادة جامعية، أو «مير» ليس بينه وبين الأمية إلا مسافة ساعة؟!!

وكنا نضحك جميعا من حلمه الغريب، لأن رئاسة البلدية لا تحتاج إلى شهادة جامعية بقدر ما تحتاج إلى دهاء وقدرة على العبث بطيبة الآخرين الجاهزين لتأجيل أحلامهم الصغيرة من حملة انتخابية إلى أخرى..

الوحيد الذي لم تكن لأحلامه ملامح، هو أنا.. الأهم عندي أن أحصل على البكالوريا بمعدل يؤهلني لأن أدخل الجامعة بشموخ، وتكون أمامي فرص كثيرة للاختيار.

السهر كان يمتد بنا إلى وقت متأخر من الليل. كان هذا يغضب أبي ويزعج أمي، فيقول لها وكأنه يلقي عليها وزر ما سيحدث في مستقبل الأيام:

- لن يفسد أخلاق هذا الولد إلا أنت والسهر خارج الدار.

وكانت تردّ عليه بابتسامة هادئة ونظرة حنون ترفعها إلى عيني وكأنها تقول له بثقة كبيرة: «ولدي يشبهني، ولن يكون في طباعه ما يشين»

وكانت هذه النظرة تتغلغل في أعماقي وتحصّنني من كل الزلاّت التي يقع فيها شباب القرية.

هذه الليلة.. لم أحب أن أزعجها رغم أن خيوط النهار الواهية مازالت تغازل ملامح الظلام في استحياء وعفة، فمفتاح الدار لا زلت أحتفظ به في جيبي كل هذه السنين كما فعل المسلمون الذين خرجوا من الأندلس، وكما يفعل أهل الشتات الذين يبقى حلم العودة يراودهم. فالمفتاح يُبقي على أحلامنا بأننا ما زلنا نملك بيتا دافئا، وبإمكاننا أن نعود إليه متى أحسسنا بالبرد والخوف أو بالجوع، وندخله بمفتاح أصلي لنجد قلوب الذين نحبهم تستقبلنا، وتنزع عنا رداء الخوف والجوع وتدثرنا بابتسامة دافئة تسكرنا وتجعلنا نذهب في نوم مريح.

وأنا أقف منكسرا أمام باب منزل هجرته عن طوع مني يشبه الكره أو عن كره يشبه الطوع، أشعر أن العواصف اقتلعت مني كل جذور الأمان ورمت بي شجرة عارية، يتيمة ومهملة لأنها لم تعد قادرة على طرح شيء مما يسعد الآخرين ويسرّهم. صرت حطبا يابسا تتسابق إليه الأيدي لتسعّر بها نارها، بل مجرد كائن مهمل سينزوي في زاوية مظلمة من زوايا بيته، ينظر إلى العالم المتحرك من ثقب صغير جدا اسمه الأمل ليصبح لا منتميا إلى عرق أو جنس أو فصيلة يمكن أن ترتقي به إلى البشر، وتجعله حلم امرأة ترى فيه فارسا يحضن ضعفها.. هل توجد امرأة تشتهي رجلا أمسى حطبا يابسا؟

دخلت بخطوات مسروقة كمن يتلصّص على أحلام غيره، فوجدت أمي تجلس في محراب صمتها.. رفعت رأسها لترى هذا الذي يقتحم عليها هدوءها وسكونها القاتل، جالت بعينيها في شبح ولدٍ تاه منها ذات يوم لم تعد تذكر تاريخه... وبمجرد أن وقع نظرها على وجهي- المتلهف لصدرها الدافئ- فتحت فاها كمن يريد أن يشهق بكلام حار، لكن الحروف انتحرت عند منعرج شفتيها، وأخرست الدهشة لسانها لتقتل كل الكلمات التي يمكن أن تعبّر بها أمّ عن شوقها لولد ظلّ يجاور الموت والنار، ويختبئ وراء فناء معلب...

مبتور حلمك، أيها العائد من حرب قذرة...

موؤود نهارك أيها الآتي من أزمنة الموت الملّعب، والحب الذي بات يمشي بيننا على استحياء...

مسكون صدرك بكل الانكسارات التي أوجدتك داخل خرائط مفتوحة على تضاريس لا تشبهك..

آه.. يا أمي...

يا هذا الوجع الذي في دمي...

يا سنبلة نبتت في شراييني، وتسحبني اليوم نحوك مهزوما.. مبتورا...

آه.. يا أمي...

حرمتك من وقفة وداع تشيّعين فيها ابنك بكامل جسده، وها أنا أهفو إلى عينيك بما تبقـــّى مني...

وأنت تهدهدينني رضيعا وتلفّينني بقطع من القماش الأبيض الناصع من أعلى الكتفين إلى أخمص القدمين خوفا عليّ من البرد، وحماية لي من سواد قد يستغفلك ويسرقني من بياض حرصتِ على إحاطتي به.. حينها لم يكن يخطر ببالك أني سأعود إليك بانكسار يلازم حياتي..

الآن...

فجيعتي تسبقني إليها...

أسرعت إلى حضنها ملقيا بعصا الخيبة التي كانت ترافقني.. وهويتُ على لهفتها بفراغ رجلي المبتورة وأحلامي الموءودة، لتضمّ بقية جسدي الذي ضاع بعضه...

وبكيت...

انهار صبري وتجلّدي، وبكيت..

لم أبك من قبل

رغم توالي الخيبات والانكسارات، ورغم الذي ضاع مني وأحالني لباقٍ لا يصلح لأن يكون بشرا يمشي على الأرض، بل يسعى إلى قبره بفراغ رجل مبتورة وعصا ينبش بها قبره الذي تركه مفتوحا، وعاد ليجده يكاد ينغلق على فراغ وسط قبور عامرة..

لم أبك

وموت أبي يطعن فرحتي بالنجاح، ويحبسني معلقا بين الأرض والسماء. دموع حارقة نزلت على حصاد القلب وحوّلته رمادا، ومع ذلك تجلّدت وأنا أجد شيوخ القرية يتقدّمون لي بالعزاء ويشدّون على يدي قائلين: «عظّم الله أجرك.. اللي خلف ما ماتش والحاج إسماعيل خلّف راجل».. لست أدري هل كانوا يعزّونني في رأس وجدناه مفصولا في كيس أسود، أم يعزّونني في بقية جسد ظلّ معلقا على تاريخ أسود تأكل الطير من لحمه دون نبوءة سابقة كتلك التي تنبّأ بها النبي يوسف للسجين الذي جاوره في سجنه.. الغدر لا يحتاج إلى نبوءة، بل يحتاج فقط إلى حاجز مزيف يعبث بجسدك وأحلامك دون سابق جرم إلا لأنك عبرت في التوقيت الخطأ..

وجلست لأيام أمام دكان أبي أستقبل عزاء القرية كلها دون أن تنزل دمعة واحدة على خدي رغم الغصة التي كنت أحسها في حلقي.. الناس رأوا أنّ عدم بكائي تجلّد ورجولة في سن مبكرة، ورأيته انهيارا لا يسمع صداه وأنينه إلا أنا.

لم أبك

وأنا أخلّف ورائي دكان أبي، وأسلّم مفاتيحه لخالي سليم الذي استأجره مني ووعدني بأنه سيسلم الإيجار لأمي كل شهر لتستعين به على حياتها ولا تمدّ يدها لأحد.. قال لي وهو يشدّ على يدي عندما ذهبت لأودعه:

«أمك، هي أختي القريبة من قلبي وستكون في عيني وقلبي.. كن راجل، وعدْ لها بالشهادة التي كان يحلم بها الحاج اسماعيل رحمه الله، ولا تنس أنك أصبحت رجل الدار وسند أمك وأختك».

لم أبك

وأنا ألقي نظرة تشبه ملامح الوداع على وطن لا أدري إن كنت سأعود إليه ماشيا، أو مسجى داخل صندوق في الدرج الأسفل من الطائرة إلى جانب البضائع والألبسة المستعملة التي يحملها تجار الشنطة الذين كانوا مواد دسمة لمقالاتي الصحفية...

لم أبك

وأنا أحسّ أنّ كل السبل تقطعت بي، ولا طريق لي أعود منه إلى وطني الذي تركته يسبح في دم انكساره.. وطن غادرته وأنا أتلمّس تاجا كانت ستتوجني به السلطة الرابعة لأغدو في شهرة خديجة بن قنة، ومدني عامر، ولخضر بريش وغيرهم من الصحفيين الجزائريين الذين أبهروا العالم العربي لقدرتهم العجيبة على الانتشار بسرعة قياسية.. كنت أحب أن أكون فارسا بقلمي فقط دون صوت ولا صورة..

لم أبك

وأنا أودّع امرأة عجنت أحلامي، وصنعت تاريخي بوقوفها إلى جانبي حين تعثري وانكساري.. امرأة، أحسست في لحظة ما أنها تكبر في

قلبي، وعندما لم تعد تتّسع لها مساحة القلب خرجت إلى كل فضاءاتي وحاصرتني بحب كبير جعلها بحجم الوطن الذي لا نستطيع أن نغادره، أو أن نهجر تربته.. لم أبك ليدها التي كانت ترتجف بين يدي، وقلبها الذي أحسسته يقفز من صدرها طائرا مذبوحا ليستقر على صدري.. ولا بكيت لعينيها اللتين تعلقتا بوجهي حين كنت ألوّح لها بيدي مودعا وأنا أقف عند آخر درج في سلم الطائرة كأنني بطل خارج للتو من حكاية أسطورية، يحق له فيها أن يهجر حبيبته وهو على ثقة أنها ستظل تغزل له رداء إلى حين عودته سالما غانما ولو بعد ألف عام..

لم أبك

والطبيب يخبرني أنه بتر ساقي من أعلى الفخذ، لأغدو نصف رجل.. بل شبحا لهيكل لا ينفع أن يكون رجلا، ولم يعد في مقدوره أن يترك وريثا يرث عنه هذا الهمّ الذي حمله من هنا إلى بغداد.. الطبيب أوحى لي في كلامه أن مستقبلي أيضا بات مبتورا عندما سألني: «هل أنت متزوج؟!!» وعندما أومأت له برأسي أنْ لا، ردّ بحزن تسلل بوحشية إلى عروقي ليسري مع دمي ويشكل خارطة لحياتي الجديدة: «عليك أن تتريّث في هذه المسألة.. لا أنصحك حاليا بالزواج، ولا في المستقبل القريب، تحتاج إلى وقت طويل كي تستعيد عافيتك، فقد فقدت الكثير من قوتك».. كنت أحس أنه يلقي عليّ الحكم مخففا، فالقاضي عندما يريد أن يرأف بالمتهم يحكم عليه بالسجن المؤبد بدل الإعدام، وهو لا يعلم أن الموت مرة واحدة أفضل من الموت يوميا داخل جدران سوداء..

لم أبك

وأنا أحسّ أني لم أعد أختلف عن غلمان بني أمية وبني العباس الذين كانوا ينتزعون فحولتهم ويزرعونهم في قصورهم بين فتياتهم ونسائهم وهم مطمئنون على شرفهم، عندما يريدون أن يحيوا لياليهم الملاح رفقة شعرائهم وندمائهم وفتيات يرقصن لتاج فوق رأس غاب عقله.. فَتَرف الملوك والأمراء يصل أحيانا إلى العبث بفحولة الرجال..

ومع ذلك لم أبك، فقد حبست شهقة الموت حتى أصل إلى صدر أمي، لأنها الوحيدة التي تتعرّى أمامها كل ملامحي و.....

وألقيت برأسي على صدرها لينفتح على قلبها الدافئ شريط تسرّب من ذاكرة مثقوبة...

(٢)

وأنا تلميذ، كنتُ أطيل الجلوس إلى مكتبتي الخاصة في البيت، فحبي للمطالعة جعلني شغوفا باقتناء الكتب المدرسية والفلسفية والتاريخية والأدبية وخاصة الروايات التاريخية لجرجي زيدان والتي جعلتني أعتقد أن المرأة قد تمسك بمصائر الشعوب وتقود التاريخ حيث شاءت رغبتها، وأن الحب قد يقيم دولا ويهوي بأخرى. وكان أبي- على رغم جهله بالقراءة والكتابة- لا يردّني خائبا إذا طلبت ُ منه ثمن شراء كتاب ما.. لم يخذلني حتى وأنا أطلب منه أن يشتري لي كتاب الحيوان للجاحظ، حينها ابتسم وهو يمدّ يده إلى جيب سترته الرمادية، وقال لي ساخرا:

- الحيوان أيضا له كتاب؟

ومنحني ثمنه لأسرع إلى مكتبة متواضعة ويتيمة تقف شامخة في الشارع الموالي لبيتنا، وأعود محملا بمجلدات تمايل معها جسدي النحيف..

عندما رآني والدي أقبلُ توسعت ابتسامته حتى كادت تتحول إلى قهقهة لم أعهدها في شخصيته المتزنة وقال:

- كل هذه الكتب للحيوان؟!

ثم أضاف وهو يساعدني على حملها:

ـ الحيوان يا بني، يحملنا ولا نحمله..

لم أرد عليه، لأني لم أكن أعرف ما تحويه هذه المجلدات التي أغراني بريقها وشدني عنوانها.. كنت متلهفا لأن أطّلع على ما تحمله من معلومات عن مختلف الحيوانات، بعدما التهمت كل أجزاء ألف ليلة وليلة، وكنت مبهورا بطريقة الحكي وأسلوب السرد الذي اعتمده كاتب مجهول الهوية، أو مجموعة كتّاب لا نعرف لهم أسماء.. شهرزاد هي الراوي الذي يحرّك الأبطال والشخصيات بطريقة ذكية ومغرية تُحرك في داخلك بعض الغرائز المستترة، وهذا ما جعلني أدسّ الكتاب في فراشي كلما فاجأتني أمي بدخولها إلى غرفتي حياء من أن تقف على حقيقة القصص التي أقرأها ليلا، رغم أنها كانت أمية، ورغم أني أعرف أنها حتى لو أمسكت بالكتاب بين يديها فستقلبه كما تقلب جريدة أو أي كتاب آخر دون أن تعرف ما يتضمنه من حكايا تعرّي ما نحب أن نستره من غرائزنا ورغباتنا. وهذا أيضا ما جعلني أرتبك، وجعل الدم يصعد إلى وجهي عندما استيقظت أمي ذات ليلة حارة وعرّجت على غرفتي عندما رأت الباب مواربا والنور ينبعث منها. كنت حينها أقرأ الجزء الثاني من ألف وليلة وليلة، وأعيش مع شهريار ليلته السابعة والثمانين بعد المائة، حين استيقظت الملكة بدور ووجدت إلى جانبها قمر الزمان الذي حملته الجنية ميمونة ووضعته إلى جانبها، وهو الذي رفض الزواج وقبل بالسجن في برج مهجور حين عارض أباه الملك في أمر زواجه، واختصر أسباب إعراضه عن الزواج في أبيات شعرية أنشدها أمام أبيه ووزيره:

إن النساء وإن أدعين العفة رِمَمٌ تقلبها النسور الحوّم

في الليل عندك سرها وحديثها وغدا لغيرك ساقها والمعصم

كالخان تسكنه وتصبح راحلا فيحلّ بعدك فيه من لا تعلم

الملكة التي أعرضت عن كل الملوك والأمراء، راحت تتلهى بجسد فتي أنيق، مليح يرقد إلى جانبها ولا تدري هويته ولا من أين جاء، ولا تدري ـ أيضا ـ أنه كان مُعرضا عن كل النساء.. أبحرتُ في هذه القصة الغريبة التي كانت رهانا بين العفريت دهنش الذي كان يعشق الملكة بدور، وبين الجنية ميمونة التي كانت تعشق الملك قمر الزمان. وأراد كل منهما ان يثبت للآخر أن معشوقه أشد حسنا.. لعبة بين الجان، مسرحها جسد الإنسان وقلبه الذي لا يدري متى يخفق ولهاً، ومتى يخفّ نبضه لأن الذي أمامه لا يخرج عن الصورة المألوفة التي يرى عليها كل الناس.. الجن يحرك الإنسان متى شاء ويجعله ينام ويسكن متى شاء، فقد يسدل عليه غمامة تجعله يذهب في نوم عميق ولا يدري بعدها ما يُفعل به، وقد يستحيل إلى برغوث يندس في ثيابه ويلدغه في ساقه، أو في موضع ناعم من رقبته فيجعله يستيقظ من نومه.. شعرتُ بخدر غريب يتسلل إليَ ويسيطر على جسدي ويجعل الحرارة تصعد إلى وجهي وأنا أقرأ فتنة الملكة بدور بقمر الزمان وملامستها لمواضع كثيرة من جسده ورغبتها التي هيّجها جماله الآسر بعد إعراضها عن الملوك والأمرا.. لأول مرة أعرف أن المرأة لها رغبة وشهوة كما الرجل، وربما

أشد و.... وتفاجأت بأمي وهي تطلّ برأسها وتقول بصوت قريب إلى الهمس مخافة أن يستيقظ أبي:

ـ ما زلت مستيقظا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

ارتبكت، ولم أجرؤ على أن أرفع عيني إليها، وكأنها أمسكتني متلبسا بفعل مخل بالحياء.. قلت لها وأنا أسحب الغطاء على وجهي:

ـ كنت سأنام، لكني عجزت ان أقف لأطفئ الضوء.

قالت وهي تمد يدها للجدار لتطفئ الضوء، وتجعلني والغرفة نسبح في ظلام دامس لا أتبين منه غير خجلي والحرارة التي سكنت كل جسدي:

ـ تصبح على خير يا ولدي.

وسحبت نفسها بخفة لتتركني أنام على خجل، وعلى حسرة أيضا لأن رغبة شديدة كانت تحركني لأعرف مصير عشيقين يحركهما اثنان من الجن. لكن الرجاء كان في الليلة المقبلة عندما يخلد الجميع للنوم، فشهريار لم تكن له ليلة واحدة لينسى طعم الخيانة بل كانت له ليال أحسّ فيها أنه أسير للحكي، وشهرزاد وحدها من كانت تسحب لهفته لتتمّة الحكاية من ليلة إلى أخرى، وتجرّه إلى فراشها عندما يدركه الصباح ليكتشف بعد سنوات أنه أصبح أبا لأطفال وُلدوا من رحم الحكاية.

كم كنت شغوفا بالمطالعة، وهذا الشغف جعلني- في فترة وجيزة- أقيم مكتبة صغيرة في غرفتي مكنتني من الترفّع، ومعاشرة كثير من العظماء...

كم كنت ساخطاً على المتنبي- رغم حبي لشعره وحفظي لكثير من قصائده- لأنه خان صدقه، واستباح دم شعره، وأراقه في مدح الملوك والأمراء وحتى العبيد في سبيل منصب سياسي.. فالسياسة ظلّت- ولازالت- هوة يمكن أن يقع فيها أعقل الناس وأكثرهم حكمة، بل هي الشبكة التي يصطاد بها الحكام من يريدون إلى جوارهم.. كم هو داهية هذا الحاكم، يريد أن يجعل من الشاعر بياضه الممتد بينه وبين الشعب.. تزلّف المتنبي للملوك ظل النقطة السوداء في بياض شعره، والعثرة التي جعلته يترجّل من حين لآخر وينزل عن صهوة مجده.. العقاد وحده من أحسست معه بالألفة لأنه عاش مبادئه وأفكاره، وخاض عديدا من المعارك السياسية في سبيل أن ينتصر لوجود أكثر صفاء.. وكم كنت أشعر بكثير من الرهبة، وأنا أجالس مالك بن نبي، هذا المفكر الظاهرة الذي ورّط أمة وهو يكشف ابتعادها عن أسباب قوتها..

كتب كثيرة.. بل شخصيات عاشرتها وعاشرتني خاصة طوال ثلاث سنوات من التعليم الثانوي، وتمايلت بهجة بنجاحي المتوقع. كنتُ أرى على ملامحها فرحتي التي سقطت من وجهي وقلبي حزناً على أبي الذي مات قبل الإعلان عن النتائج بأسبوع واحد.. لم يصدّق أحد من القرية

أن الحاج إسماعيل مات، بل قُتل بطريقة بشعة ليترك فراغا في القرية قبل البيت. فهو سند الفقراء والمحتاجين، وجيبه كان مفتوحا لكل من له حاجة عجز عن تحقيقها، فقد كان يجلس أمام دكانه ويستقبل زبائنه بكثير من الرأفة التي جعلته يفتح دفترا للبيع بالدفع المؤجل إلى حين تيسّر الأوضاع، لكنه رحل وترك الدفتر يشهد على سخائه وبجانبه لغز قتله، وقافلة من الأرامل والفقراء كان سندهم وعونا لهم على ضعفهم وفقرهم وقلة حيلتهم..

عندما كان يهمّ بركوب سيارته من نوع «مازدا» حاولت أن أمنعه من السفر لأن رائحة الموت بدأت تتمدّد في أغلب طرقات الوطن، والحواجز المزيفة أوقعت بالكثير من التجار الذين سُلبت أموالهم وزُهقت أرواحهم وذهبوا ضحية مؤامرة أكبر من وعي البسطاء الذين يفرشون أحلامهم ليدوس عليهم من ينصّبون أنفسهم أوصياء عليهم، وعلى رغيفهم الحافي الذي يسعون إليه لسدّ رمقهم. قال لي وهو ينظر إليّ بعينين مليئتين بالتحدي:

ـ الرب واحد والعمر واحد.

ـ ولكن السفر لم يعد آمنا.

قلت له ذلك بصوت مضطرب وكأني أريد أن أُحدث في صدره فتحة يتسرّب من خلالها الخوف الذي بدأ يسيطر عليّ، لكنه ردّ وهو يمسح على مقدمة رأسه التي انحسر عنها الشعر وهو دون الأربعين:

ـ الدكان أصبح شبه خال من البضاعة والسكان يعوّلون على ما فيه من مواد غذائية، وأنا لا أحب أن أقول لمن جاء يشتري «مكانش».

ثم أضاف وقد مدّ يده إلى رأسي ومسح براحته على شعري بحنان ظهر فجأة في كلامه وعلى ملامحه:

ـ لا تنس أن نتائج البكالوريا ستظهر بعد أيام قليلة، وأنا متأكد من نجاحك، وأريد أن أقيم لك وليمة يشبع فيها كل فقراء القرية. والوليمة تحتاج إلى أن أحضّر لها لتكون في مقام ابن الحاج اسماعيل.

لم أرد، لأني لم أتعوّد مراجعته فيما يريده، ولأني أؤمن أن أبي رأس الحكمة في القرية، والحكمة لا تضلّ طريقها ولا يجرؤ أحد على قطعها.

قال لي وهو يضع قدمه اليمنى في السيارة وكأنه قرأ ما في نفسي:

ـ أعرف أن الغدر صاحب الليل وقرينه، ولهذا سأعود قبل أن يحلّ الظلام، لا تقلق يا ولدي، المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات، ساعة ونصف ذهابا، ومثلها رجوعا..

أدار محرك السيارة.. أحسست أنه حرّك معه هواجسي، وتمنيت لو يكون بالسيارة عطب يمنعها من السير، لكني رأيته يطلّ من نافذة السيارة ويقول وكأنه نسي أمرا مهما:

ـ لا تنس أن تخبر مصطفى بأن تأتي أمه غدا لتساعد أمك في إعداد «الشخشوخة» استعدادا للوليمة الكبرى.

لم يوصني بأمي ولا بأختي.. عادة الذي يحسّ بدنو أجله يتحدث بكلام يشبه الوصية، فيقول الناس بعد موته المفاجئ: «يا ألله، وكأنه كان يعلم بموته، فقال كذا، وأوصى بكذا، سبحان الله، كأنه يعرف أنه سيموت في هذا اليوم» كان يمكن للكلام الذي قاله عند مغادرته أن يكون عاديا لو أنّ الغائب عاد سليما، لكن لو حدث له مكروه فسيصبح كل كلام قاله قبل أن يرحل إعلانا صريحا بدنو أجله ووصية يكتبها في عيون الذين يحبهم.. أبي لم يكتب وصيته في عينيّ، ولم يقل إلا كلاما يوحي أنه سيعود في آخر النهار.

وانطلقت السيارة مخلّفة غبارا أحسسته يحجب عني خطرا سيأتي بلون الدم.

وصل المدينة، قصد بائع الجملة الذي يتعامل معه منذ أعوام. حمّل السيارة كل المواد الغذائية التي رأى أنّ السكان سيحتاجونها من عجائن وطماطم وصابون وتوابل مختلفة وحلوى للأطفال و... ولم يعد.. انتظرنا إلى آخر النهار، ثم آخر الليل معتقدين أنه أخّر رجوعه وفضّل المبيت في فندق حتى يتفادى خطر الطريق والحواجز المزيفة، وسيعود في ساعة مبكرة.. ولم يعد..

عندما تأخّر رجوعه في اليوم الموالي، ذهبنا نسأل عنه بائع الجملة في المدينة، فقال لنا: «لقد حمّل البضاعة في حدود الحادية عشرة صباحا، لكنه عاد إليّ بعد ساعة يطلب أن أدلّه على ميكانيكي جيد لأن السيارة تعطلت وحاول معها الكثير لكن دون جدوى. وعندما سألته عن

مكان السيارة أخبرني أنه لم يبتعد كثيرا وأنها في آخر الشارع، فدللته على الميكانيكي القريب من هنا والمشهود له بالخبرة الكبيرة في إصلاح السيارات»..

هرعنا إلى الميكانيكي، فأخبرنا أنه أصلح له السيارة بعد ثلاث ساعات لأن العطب كان في المحرك، وغادر بعد إصلاحها.

الانكسار كان أول ما وقعنا فيه، واليأس من رجوعه كان المحطة الأخيرة التي وصلنا إليها، لأن أخبار الاختطاف تملأ الصحف، ولأن طول الغدر أصبح يفوق الشريط الساحلي الجزائري الذي نفاخر به الأمم.

وعدنا بخفّي حنين، بل حسرة حنين باتت نكتة مثيرة للسخرية أمام حسرتنا.. مشكلة حنين مع أعرابي توارى وراء شجرة واحتال عليه ليأخذ الخفين ويتركه حافيا نكاية به، ومشكلتنا مع وطن اختبأ وراء تاريخ بؤسنا وأخذ رأس الحكمة من القرية ليتركنا نتخبّط في ظلمة لا نعرف لها منتهى.

عدت إلى البيت يتقدمني خالي سليم حتى أتحاشى الفجيعة في عيني أمي، لكنها ما إن رأتنا حتى أبعدت خالي ومالت نحوي وهي تصرخ:

ـ يوسف، أين أبوك؟

ثم أضافت وهي تنظر خلفي:

ـ الأكيد أنه ذهب إلى الدكان لينزل البضاعة ثم يلحق بكما.

لم أرد، ولم أقو على النظر في وجهها الجاهز للانهيار.

وبحدس المرأة أحسّت أنّ هذا الباب الذي حرص على بهائه سيكون مفرغا من طلته.

التفتت إلى خالي سليم وعيناها تستعدان لنحيب قريب:

ـ لا أريد إلاّ الحقيقة، أشم رائحة الموت في خطواتكما.. قتلوه..

رد خالي بصوت مرتعش:

ـ اختطفوه..

ـ يعني، لن يعود.

أجاب بصوت منكسر فيه بعض الرجاء:

ـ لقد تقدمنا ببلاغ للشرطة، ووعودنا بتكثيف الجهود لأجل أن يعود سالما.

أسندت جسدها إلى الكرمة التي تتوسط ساحة الدار، والتي تلقي بظلالها على فاجعة قريبة، ثم شهقت وهي تغطي وجهها بكلتا يديها كأنها ترفض أن تصدّق أنه لن يجلس مرة أخرى تحت هذه الكرمة ولن يفترش فرشته المفضلة المصنوعة من جلد الماعز، ولن يشرب قهوة

العصر التي يحرص أن تكون برفقتها مخالفا بذلك عادة الرجال في القرية والذين يفضّلون شربها في المقهى.. كان موعد قهوة العصر من أحب الأوقات إلى أبي، كنا نجلس ثلاثتنا والمائدة رابعنا تحت شجرة العنب التي تلقي بظلالها على المكان كله تاركة فتحات صغيرة تنفذ منها الشمس على استحياء، نجلس في انتظار أن تخرج أمي بصينية نحاسية تسبقها رائحة الفطائر التي أعدّتها، وتضعها على المائدة الجاهزة للحب.. فطائر أمي نشتهيها أكثر من أن نأكلها، فهي تعدّها من الدقيق والخميرة وتنتظر ساعة أو أكثر لكي تختمر، ثم تشكّلها دوائر صغيرة متساوية، تبسطها الواحدة تلو الأخرى على المائدة وتضعها داخل مقلاة بها زيت ساخن فتنتفخ وتأخذ لونا ذهبيا آسرا، ويعبق المكان برائحة الزيت وهي تلامس عجينة الفطائر.

أذكر أني عندما كنت صغيرا أشترط عليها أن تشكّل لي سمكة من عجينة الفطائر، ومريم تلحّ عليها أن تشكّل لها إسورة، ونجلس ملتفين حولها حتى تنزل عند رغبتينا، ويسرع كل منا بفطيرته إلى الشارع ليتباهى بصنعة أمه أمام أترابه، فنجد أبي تحت الكرمة يمنعنا من الخروج حتى لا نثير شهية الأطفال..

المكان الذي كان يعبق برائحة القهوة والفطائر ها هو اليوم يسقط في رائحة الدم والفجيعة، ويجعل أمي تهوي على الأرض جالسة وقد مدت رجليها إلى الأمام، وضربت رأسها بيديها فانحسر، ولأول مرة ينكشف شعر أمي. كانت دائما تغطي شعرها بمنديل ناعم يختلط

فيه الأحمر والأسود، ويغلب عليه الأحمر، وأحيانا يختلط الأحمر بالبيض، ويغلب عليه الأبيض، تقول أنه «شامي حر» لأن أبي جلب لها مجموعة من مناديل الرأس مختلفة الألوان من البقاع المقدسة أثناء أدائه لمناسك الحج.. لم أكن أرى من شعر أمي إلا قليله الذي يخرج من المنديل عند جانبي الأذنين، لكن خبر اختطاف أبي جعلها تخرج عن هيبتها وتشهق بصوت عال لا تريده أن يصبح نحيبا لأن الغائب قد يعود..

كانت مريم تجلس في الغرفة التي تطل نافذتها على فناء الدار.. سمعت شهقة أمي فخرجت مهرولة، حافية وهي تفشل في إخفاء بكائها الذي تحوّل إلى نحيب ملأ المكان..

وقفت أمامي وكأنني أصبحت عالما بكل الأسرار التي تحيط باختفاء أبي. قالت بصوت مبحوح وكأنها ظلت تنتحب دهرا:

ـ يوسف.. أين أبي؟ لا تقل لي مات، لن أصدق اني سأصبح يتيمة، لن أعيش من دونه ساعة واحدة، سأقتل نفسي لو حدث له مكروه.

وألقت برأسها على صدري الذي ما زال صغيرا على حمل هذا الهم الكبير..

لم أستطع أن أجيبها بشيء وكأن الكلام كله بات هشيما تذروه الرياح..

«الوطن كله أصبح يتيما» جملة قلتها في نفسي وأنا أعجز أن ألملم فجيعة أمي وحرقة أختى التي أحسست أنها أصبحت يتيمة كأشد ما يكون اليتم، وأنني أصبحت مسؤولا عنها كأقسى ما تكون السؤولية.

مرّ على غياب أبي يومان، وبدأ الامل في رجوعه يتضاءل، بل ينعدم وأصبحت أحس أني عاريا من الرجاء كأشد ما يكون العري في زمن تكشّف العالم عن عوراتنا وعيوبنا.. أحس أني أصبحت مفرغا من أي كلام مطمئن أهدهد به على فجيعة أمي وحرقة أختي اللتين تصفعانني بسؤال واحد كلما دخلت البيت:

ـ هل من جديد؟

وكنت أتمدّد على فرشتي صامتا منكسرا لا رغبة لي في الكلام وأنا أرى أمي جاهزة للنحيب، وأختي جاهزة للانتحار على شرفات فجيعة لم تكن في الحسبان..

لم تكن أمي على جمال ساحر ليحبها أبي كل هذا الحب، بل كانت تملك من الوداعة والهدوء والرقة ما يجعلها تسحب أي رجل من يمين قلبه وتقوده إلى عالمها ليكون لها وحدها ولا يفكر في امرأة سواها، فأمي لم تنجب من الذرية إلا أنا ومريم، وقد نصحه الكثير بإعادة الزواج لأن كثرة الأولاد تمنح الرجل قوة تحصّنه ضد تقلبات الزمن، وتجعل له رهبة بين الناس.. فالولد الواحد سيكون ريشة في مهب الريح بعد رحيل أبيه. لكن أبي أغلق على حياته وعالمه بحبه لأمي، وببنت وولد

يرى فيهما زينة الحياة الدنيا. وقد منحه الله من سعة الرزق ما يجعله دائم الحمد والشكر، ويجعل الرضا باديا على محياه الجميل..

أبي كان أشقر وبعينين زرقاوين، لشدة صفائهما تحس أنك تبحر في زرقة بحر على هدوئه.. مريم ورثت عن أبي صفاءه وزرقة عينيه، وأنا ورثت عن أمي سمرتها الآسرة وعينيها السوداوين اللتين تجعلانك تحس ـ وأنت تنظر إليهما ـ أنك دخلت منطقة أكثر أمانا وأنك لن تضلّ ولن تشقى.....

اليوم الثالث من غياب أبي..

الساعة الحادية عشرة صباحا..

أمي تغلق عليها في غرفتها، لا تريد أن تكلم ولا أن ترى أحدا. لم تقو على فعل شيء منذ اختفى أبي، ولم تستطع الوقوف في المطبخ لتحضّر لنا طعاما، بل لا أحد منا كان يشعر بالجوع ولا بالرغبة في الأكل، كنا نكتفي بشرب الماء فقط علّه يطفئ النار التي تأجّجت في قلوبنا..

مريم تجلس في غرفتها لا تكاد تصدق أنه مرّ يومان، وهاهو اليوم الثالث يطلّ برأس حزين دون أن تسمع خبرا يطمئنها ويجعل الحياة تعود إلى سابق تبسّمها. أما أنا فأجلس تحت الكرمة التي كان يحبها أبي.

لم أعد أطيق الجلوس في غرفتي لأني أتوقع أن تحدث مفاجأة ما فأكون جاهزا للفرح، كأنْ يدفع أبي هذا الباب ويدخل معتذرا عن كل القلق

الذي سببه لنا ويقول مبتسما «معذرة، جماعة طيبة دعتني لمأدبة عشاء إكراما لطيبتي وحكمتي».. هل يمكن أن تحبس جماعة شخصا وتسبّب كل هذا القلق لعائلته ـ فقط ـ لتدعوه إلى عشاء وتتقاسم معه جلسة شاي اعترافا بطيبته وحكمته؟ نكتة سخيفة ما أفكر فيه. لكن الغياب المفاجئ للحبيب يجعلنا ننسج حكايا بعيدة عن المنطق وقريبة من السذاجة..

كنت جالسا تحت الكرمة جاهزا للفجيعة وأنا أتخيّل رجال الشرطة يدفعون الباب ويتقدمون نحوي بكلمة عزاء باردة «عظّم الله أجرك في أبيك» ويسلّمون لي جثته داخل صندوق محكم لا يمكن فتحه..

كانت الوساوس تقلبني ذات اليمين وذات الشمال عندما سمعت طرقا عنيفا على الباب، وارتبكت بين الفرح والانهيار، هل هو أبي عاد وصدقت النكتة السخيفة؟ أم هم رجال الشرطة يحملون على أكتافهم نعشه؟

وأسرعت إلى الباب أفتحه فإذا هو خالي سليم بوجه شاحب يحمل بين يديه سترة رمادية. وقبل أن يقول شيئا أخذتها منه وقلت:

ـ هذه سترة أبي التي كان يلبسها حين مغادرته..

ورحت أقلبها بين يدي وأفتش جيوبها وأتلمّسها موضعا موضعا كأني أبحث عن جواب لكل الأسئلة التي كانت تتزاحم على طرف لساني.

ـ أين أبي؟ هذه سترته الرمادية التي كان يحبها.

ردّ خالي بصوت مضطرب:

ـ الراعي مسعود وجدها في الطريق الزراعي عندما خرج بماشيته هذا الصباح فعرف أنها للحاج اسماعيل، وجاء مسرعا إليّ.

انتبهت لوجود الراعي مسعود خلف خالي، فقلت له بحدّة:

ـ هيا بنا إلى المكان الذي وجدت فيه السترة.

وانطلقت مع خالي والراعي دون أن ألتفت إلى أمي التي كانت تصرخ ورائي:

ـ إلى أين تذهبون؟ ماذا حدث؟

ولم يحدث شيء.

المكان لم تكن به أغراض أخرى ولا علامة تدلّ على الذي حدث.

قلت لخالي وأنا أحس أن شعاعا من الأمل بدأ ينير ظلمة قلبي:

ـ لا أثر للدم في هذا المكان، ولا على سترته.. أبي ما زال حيا.. أحس أنه ما زال حيا في مكان ما وسيعود قريبا لأنه لا أعداء له..

وعدت إلى البيت بسترته وبأمل زرعته في قلب أمي، وجعلت مريم تقطع حبل يأسها وتوصله ببعض الرجاء..

اليوم الرابع من غياب أبي..

أفقت على عواء يشبه عواء الذئاب وهي تتصارع على أطراف بشرية وجدتها مرمية في طريقها.. العواء كان يملأ المكان، وكان صداه يتردد في كل أرجاء الدار، ويكسّر صمتها..

لم يكن كابوسا، فلم أكن نائما.. قد تكون رؤيا كتلك التي يراها الصالحون من الناس، لكن حتى الرؤيا تحتاج إلى إغفاءة ولو قصيرة، ليقول بعدها الرجل الصالح «لقد رأيت في المنام».

نهضت مسرعا من فراشي، لم أكن بحاجة لأن أدفع الغطاء عن جسدي فقد نمت عاريا من أي لحاف يستر جسدي. منذ أن أختفى أبي وأنا أنام بكامل ملابسي ودون غطاء، ربما استعدادا لأي طارئ، وربما لأني أحس أن غياب أبي جعلني عاريا ولا يمكن لأي غطاء أن يستر عورة وجعي الذي أصبح فاضحا ومكشوفا..

تفقّدت كل زوايا الدار التي سمعت منها صدى العواء الذي أفزعني، فلم أجد أثرا لذئب واحد ولا لبقايا أطراف بشرية، لكن وصل إلى أنفي ما يشبه رائحة نتنة كتلك التي تخلفها القمامة عندما تظل معرضة لأشعة الشمس مدة طويلة.

خرجت من البيت رغم أنّ الوقت لا زال مبكرا، والناس نائمون على خوف وفجيعة تتربّص بهم. وما إن أغلقت الباب ورائي ومشيت خطوة واحدة حتى رأيت كيسا أسود أمام دكان أبي المغلق منذ غيابه..

ارتجّت الأرض تحت قدمي وأنا أتقدم من الكيس الأسود بخطوات ثقيلة ومترددة، وجدته ثقيلا وأنا أرفعه قليلا عن الأرض ثم أردّه في حركة سريعة، ولاحظت من خلال فتحة صغيرة في جانبه بقعة دم تعلن عن رائحة الموت التي أنبأني بها عواء الذئاب في أرجاء البيت.

وبقلب يرتعش ويدين ترتجفان رحت أفتحه.. لم يكن الكيس مغلقا بعناية، ولهذا سَهُل فتحه، وسهل عليّ الوقوع في فجيعة لازمتني العمر كله، وفتحتْ لي نافذة على جحيم وطن لا يحسن الذبح.. صلعة أبي التي انحسر عنها الشعر في سن مبكرة كانت أول من أطلّ علىً من كيس يشبه أكياس القمامة.. عجزت أن أفتحه عن آخره حتى لا أرى عيني أبي الزرقاوين ولا أُفجع في صفائهما، ولا أقرأ آخر رسالة تركها لي قبل أن يغدروا به..

الصدمة جعلتني أتكوّم إلى جانب رأس أبي الذي قتلوه ثم فصلوا رأسه عن جسده ورموه كما ترمى فضلات الطعام..

الصدمة تحبس الدمع، وتحبس النحيب وتجعلك جاهزا للانتحار من شرفة وطن لا يعرف كيف يصون شرفك، ولا يعرف كيف يواري سوأة موتاه حين ينفذ فيهم حكم الإعدام، وحين يذبحهم من الوريد إلى الوريد..

ياه..

كيف يمكن لوطن أن يهين أبناءه بهذه الصورة البشعة، ويعبث بأجسامهم كطفل يحس أنّ اللعبة التي بين يديه أصبحت ملكه، فيفصل رأسها وينتزع أطرافها فقط ـ ليعرف هل تتألم اللعبة حين انتزاع أطرافها، وهل تتأوه، لكنه يكتشف أنها تظل صامتة ليواصل عبثه بها. وفي الأخير يعجز عن إعادتها إلى شكلها الأول، فيدسّها في قمامة البيت مخافة عقاب أمه وحرمانه من لعبة أخرى؟

ياه..

كيف يمكن لوطن أن ينتقم من أبنائه بكل هذه الوحشية، ويعدم وجودهم في الحياة لا لشيء إلا لأنهم أصبحوا أرقاما غير مرغوب فيها؟ الاختزال مطلوب في حال النمو الديمغرافي غير المحسوب، كما في الرياضيات، الاحتفاظ بأدنى عدد..

ياه..

ياه..

كيف فكرت أن أحب؟

كيف فكّرت يوما أن أكون شاعرا؟

كيف خطر ببالي أن أتغزّل بامرأة في وطن يسخر من مشاعر أبنائه، ويبلوهم في أولادهم وآبائهم وأزواجهم وفيما يملكون، فقط ـ ليختبر

قدرتهم على تحمّل الأذى، وليجعل منهم مواطنين انكشاريين قادرين حتى على إلحاق الأذى بأنفسهم وذويهم، فكيف بالعدو؟

وأنا أحوّل نظري عن صلعة أبي، كنت أتساءل: هل هو الحجّاج عاد ببدلة رسمية ليرمي كعبة الأمان بمنجنيق الحماقة؟ لكن الحجّاج لم يكن يغدر، بل كان يقتل وعيناه في عيني الذي يهوي عليه بسيفه ليفصل رأسه عن جسده.. سعيد بن جبير قُطع رأسه وهو يعلم أن الحجاج فعل ذلك، ولهذا ظل يأتيه في اليقظة والمنام فيزعج راحته ويقضّ مضجعه حتى ساقه إلى حتفه وهو يردّد «مالي ولسعيد بن جبير.. ما لي ولسعيد بن جبير»..

أبي، قد يكون نظر إلى وجه من فصل رأسه عن جسده، لكن الأكيد أنه لم يعرفه ولم يعرف سبب حقده الذي جعله يعبث بجسده بكل هذه الوحشية. الجلاد أيضا قد لا يكون يعرف أبي ولا يعرف سببا لقتله سوى أنه مرَ في التوقيت الخطأ، وأنه كان عليه أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض، ويطّلع الغيب ليغيّر وجهته وينجو بحكمته..

لم أستطع أن أصرخ.. لم أستطع أن أبكي، ولا أن أتحرّك قدما واحدة، فجلست إلى جانب رأس أبي واضعا رأسي بين ركبتي ودخلت في غياهب عالم لا أدري ما لونه.. أحسست وكأني أقف عاريا من الحياة على جبل «قاسيون» في سوريا، وأدخل مغارة الدم، وأتسمّر عند الصخرة التي لا يزال بها أثر دم هابيل ليشهد على بشاعة قتل الإنسان لأخيه الإنسان..

هل نظر قابيل في عيني أخيه قبل أن يجهش عليه؟ أكيد، لا. لو نظر في عينيه لرأى اللقمة التي تقاسماها معا، ولرأى ظل كفّيه على النهر الذي شرب منه أخوه.. لو نظر في عينيه لرأى تاريخهما المشترك الذي بدأ بالجنة وانتهى إلى الأرض التي تقاسما فيها النشأة الأولى..

دخلتُ مغارة الدم ورحتُ أسبح في تاريخ أول من استباح دم أخيه دون أن أدري ماذا حدث بعدها، كيف التفّ الناس حولي وهم يكتشفونني متكوّرا أمام رأس أبي، وأيّهما حملوا الأول، أنا أم رأس الحكمة.. أيّهما ساروا به إلى قبره أولا. لكن الأكيد أنهم ساروا به إلى مقبرة القرية في تابوت صغير كرضيع حديث الولادة، وجنازة كبيرة ومهيبة، ومشوا بي إلى مقبرة اليأس في تابوت كبير وجنازة يتيمة، ووحيدة مشى فيها القتيل على قدميه..

لم أكن في وعيي لأعرف كيف استقبلت أمي الفاجعة، وكيف كان وقع الصدمة على أختي مريم التي عرفتُ فيما بعد أنها حاولت الانتحار عند سماعها الخبر، وذلك برمي نفسها من أعلى سطح البيت لولا أن التفّ حولها النساء اللواتي أتين معزيات، وأمسكن بها وظللن يراقبنها حتى لا تعيد المحاولة..

كنت أحس أني داخل جبّ يشبه ذاك الذي رمى فيه الإخوة ـ الذين أعمت الغيرة بصيرتهم ـ أخاهم يوسف الصديق، وأني في انتظار معجزة تنجيني مما أنا فيه.. أجلس متكورا على فجيعتي في انتظار سيارة يرمي بهم القدر في طريقي فأنجو مما أنا فيه ولو بوثيقة رقّ.. من ينجيني

من هذا الغمّ سأكون له عبدا لا أفتح عينيّ إلا بأمره ولا أغمضهما إلا بإشارة منه، ولا أضحك أو أبكي إلا إذا أذن لي بذلك، ولا أقوم بشأن من شؤوني الصغيرة أو الكبيرة إلا في حضوره.. الانكسار أيضا له سلطة تجعلك عبدا له..

لم أفق إلا بعد يومين وأنا أقف أمام دكان أبي مستقبلا جموع المعزين الذين يفدون كلما سمعوا بمقتل الحاج اسماعيل..

بعد أربعة أيام، ظهرت نتائج شهادة البكالوريا.. كان النجاح، وكان الانكسار الذي لم يحرك ستائر الفرح في قلبي ولا في البيت، بل مدّد في حبل الحزن الذي التفّ بعد ذلك حول رقبتي وجرّني بعيدا عن القرية..

لم يهنئني أحد بنجاحي، ولم يفرح أحد بنجاحه لأن القرية كلها كانت تعيش حدادا على رجل فتح قلبه وجيبه لكل من تعثّر في مشكلة أو كانت له حاجة.

• • •

مرّ الصيف حزينا كأشد ما يكون الحزن، ولم أنتبه إلى موعد التسجيلات الجامعية التي كادت تفوتني لولا خالي سليم الذي نبّهني إلى ذلك، ورافقني إلى الجامعة وهو يشدّ على يدي قائلا:

ـ الحزن لا يوقف الحياة، مهما كان الذي فقدناه عزيزا على قلوبنا.

قلت بصوت منكسر:

ـ أبي كان هو الحياة، فهل يمكن أن نحيا خارج الحياة.

قال وهو ينظر في عيني المنكسرتين:

ـ أرواح الذين نحبهم تعيش معنا، ولهذا هم يرافقوننا، يحزنون لحزننا ويسعدون لسعادتنا، والحاج اسماعيل لا يرضيه إلا أن يدخل ابنه إلى الجامعة ويكون متفوقا.. في حياته وفّر لك كل شيء، ولذلك يجب أن ترضيه في قبره.

كنت سأقول له «أيهما أُرضي، الرأس المفصول الذي واريتموه داخل قبر، أم بقية الجسد الذي نهشته الكلاب والذئاب في أرض مجهولة».

ووصلنا الجامعة، كانت الحقوق على رأس اختياراتي، وكان خالي سعيدا لهذا الاختيار لأن ابن أخته سيصبح محاميا. وكنت أنا منكسرا كأشد ما يكون الانكسار في وطن أحس أنه جعلني جاهزا للانتحار، وجعل حياتي نهرا راكدا غير قابل للتجدد.

مرت الأيام ثقيلة كشيخ هرم يجر مع رجليه ثقل عمره المتعب، وحان الوقت الذي أفارق فيه أمي وأختي، وأخرج من البيت للالتحاق بالجامعة..

كنت أرتّب حقيبتي عندما وقفت أمي إلى جانبي والدموع ترقص في عينيها ألما.. عندما تبكي أمامك امرأة تحبها تحس أنك مسؤول عن توفير كل أسباب الفرح لتحلّ الابتسامة مكان هذا الدمع الحارق، لكن عندما تبكي أمامك أمّك تحس أن العالم كله ينتحب ولا يبقى أمامك إلا أن تلقى برأسك على صدرها وتشاركها دمعها..

قلت لها وأنا أحاول أن أمنع رأسي من أن يقع على صدرها لأن ذلك سيجعلني أبكي أكثر من دمعها:

ـ إن كان يرضيك أن أظل إلى جانبك، فسأفعل ذلك وأنا غير آسف على الجامعة، ولا على شيء...

قاطعتني وهي تضع يدها على كتفي:

ـ لا يا ولدي.. حلم أبيك يجب أن يتحقق، ولن أكون أنا من يعرقل هذا الحلم.

قلت لها وأنا أسحب يدها من كتفي برفق وأحضنها بين يدي:

ـ لا أدري ما تفعلان أنت وأختي في غيابي، حياتكما ستكون صعبة.

قالت دون أن تسحب يدها من بين يديّ وكأنها لا تريد أن تفارق هذا الدفء الذي تحسه وأحسه أنا أيضا:

ـ خالك سليم سيكون إلى جانبنا، ودكان أبيك سيكون مصدر رزقنا كما كان دائما.

انحنيت وقبّلت يدها، لكنها سحبتها ورفعت رأسي لأقع على عينيها اللتين يتصارع فيهما الانكسار والتحدي، قالت لي:

ـ أرِح أباك في قبره يا بن.

التفتّ فرأيت مريم تقف عند الباب.. اقتربت منها فاستقبلني دمعها. مسحت على شعرها الذهبي الذي يسقط على كتفيها دون عناية أو ترتيب، نظرت إلى وجهها الذي يذكرني بعينيّ أبي وصفائهما.. قلت لها مازحا وكأني أردت أن أصرع هذا الحزن الذي لم يغادر عينيها منذ الفاجعة:

– كان يجب عليّ أن أسجل اسمك في الجامعة، وأقول لهم هذه أختي وظلي الذهبي الذي يرافقني، وأكثر من ذلك ستتفوق على كثير ممن يحملون شهادة البكالوريا.

أطلّت ابتسامة بريئة من وراء عينين زرقاوين دامعتين وقالت:

– عليّ أن أجتهد أربع سنوات لألتحق بك... لكن يعز عليّ أن تفارقني وأنت أقرب الناس إلى نفسي.. لا أتصور الحياة بدون أبي وبدونك أيضا، لكني أريدك ان تكمل دراستك لتحقق حلم أبي.

قلت لها مطمئنا:

– العاصمة بعيدة جدا عن القرية، لكني سأحاول أن أعود متى سنحت لي الفرصة... ثم استطردت وأنا أقترب من مكتبتي الصغيرة كأني أودع بعضا مني انفرط عني:

- أوصيك بأصدقائي خيرا.. هؤلاء رفقائي، فاقتربي منهم وسيؤنسون وحدتك، كما أوصيك أن تهتمي بأمي، فموت أبي عجَّل بعجزها وهرمها وكأن الزمن سحب منها عشر سنوات في ليلة واحدة...

قالت وهي تمسح ما بقي من دمع على وجنيتها المتوردتين:

ـ لا تغب عنا طويلا فأنا وأمي وحيدتان من دونك.

• • •

وحين جاءت لحظة الفراق، اقتربت من أمي كي أقبلها قبل مغادرتي، فوجدت نفسي ألقي برأسي على صدرها وألتصق بها كما لو كنت أخشى أن لا يضمني هذا الصدر مرة أخرى، وأقضي حياتي في أرض باردة.. عجزت أن أقول لها شيئا وهي تودعني بآهة موجعة..

دمعة أختي نزلت حارة وموجعة، وآهات أمي ظلّت قطرات دم توزعت في كل منعرجات حياتي...

(٣)

عندما وقفتُ أمام مبنى الجامعة- لأول مرة- كانت المحاماة قبلتي.. أحسست فجأة أنها محجتي التي بذلت كل ما في وسعي للوصول إليها، يدفعني إلى ذلك الظلم الذي انتشر كورم خبيث في جسد عالم يمتهن العبث.. عالم فقد لغة الحوار واتّخذ من القتل وسيلة للانتصار لفكرة ما.. عالم يقتل فيه الإنسان إنسانا آخر لمجرد أنه يختلف معه في الرأي أو في طرح فكرة، وقد يقذف به إلى الجحيم لأنه يختلف عن لونه، بل قد يطعنه بخنجر حقد لمجرد أن شكله لم يعجبه..

في الجامعة

عرفت أنّ النجاح له سبيلان لا ثالث لهما: فإما أن تكون متفوقا، بحيث يعجز أي أستاذ أن يحجب بريق هذا التفوق ويَعْبُر عليه، فتأخذ علامتك كاملة وأنت شامخ الرأس.. تنتزع نجاحك دون أن تحس بالامتنان لأحد. والسبيل الثاني هو أن تشتري نجاحك دون أن تكون مجبرا على الدخول إلى قاعة المحاضرات والجلوس إلى أستاذ محاضر يجترّ محاضرة يعلوها الشحوب لكثرة ما حملها في محفظته، وجرّها من سنة إلى أخرى دون أن يكلّف نفسه عناء نقلها إلى أوراق أخرى تعطيها وجها لائقا أمام الطلبة، ولهذا تبدو القاعة شبة خالية في كثير من الأحيان، ولهذا أيضا أجدني أرتاد مكتبة الجامعة باستمرار أبحث عما يثري معلوماتي.

في الجامعة

عرفت أنّ التعرف على فتاة والحديث إليها ليس بطلب عزيز، وأنه من السهل أن تجلس إلى طالبة وتتحدث معها كما لو كنت تعرفها منذ ألف عام، بل لن تجد حرجا في أن تدعوها إلى الخروج لتجلس معك في محل لبيع المأكولات الخفيفة أو صالون من صالونات الشاي التي تتكاثر في كل الشوارع والأحياء، بينما في قريتي الراسخة في ذاكرة العمر- الحديث إلى امرأة طلب عزيز قد لا تصل إليه العمر كله إلا إذا طرقت باب أهلها مرات عديدة، وقد لا يستجيبون لطلبك.

فالمرأة هناك ليست لعبة ولا نكتة يتسلى بها الرجال في أوقات فراغهم ويملأون بها مربعاتهم الخاوية.. ذاك الجسد الناعم الذي كنت أراه يسكن برجا عاجيا يصعب الوصول إليه، أصبح بالإمكان الاقتراب منه وملامسته وتقبيله أيضا.

فالطالب يقبّل زميلته صباحا ويهديها قبلة على الخدعوض كلمة «صباح الخير»، ويشدّ على يدها مساء عندما يلتقيها بعد فترة الراحة القصيرة، ويجلس إليها في ساحة الجامعة جسدين متقاربين، بل ومتلاصقين وهما يتبادلان أوراق المحاضرات، أو يشرحان لبعضهما البعض ما عسُر فهمه داخل القاعة.

وأحيانا يشكو كل منهما أوجاعه للآخر دون حرج أو تحفّظ، فأرى الشاب يمسح على شعر الفتاة ويحيطها بذراعه ليخفّف عنها وجعا

ما، قد يكون مصدر الوجع مجرد تعثر في الحصول على علامة جيدة في مقياس. وأرى الفتاة وهي تشدّ على يد الفتى لتقول له أنه في منزلة أخيها وستكون إلى جانبه، وأنها ستشرح له كل المحاضرات التي غاب عنها وأنّ مستقبله يهمها كثيرا، فأقف مصدوما أمام كل الذي يحدث حولي..

لا أنكر أني كنت أضيق بمعطف الصمت الذي أشده بقوة إلى جسدي، ويمنعني من الحديث والتعامل بحرية مع زميلاتي، فكنت أكتفي بابتسامة ضيقة وتحية خجولة تقتصر على تحريك رأسي في انحناءة خفيفة..

المرأة- عادة- يشدها صمت الرجل أكثر من صخبه، ويأسرها غموضه أكثر من أن يكون كتابا مفتوحا يسهل تصفحه والمرور بين حروفه وسطوره بيسر دون التعثر بكلمة السر، ولهذا كنت أقرأ علامات الإعجاب على وجوه زميلاتي، وأفهم رغبتهن في الكشف عن أسرار هذا الشاب الذي يتدثر بصمته، ويستمع إلى صخب الآخرين أكثر مما يشاركهم الحديث.

وكنت ألاحظ في عيون بعضهن هذا الإعجاب وهو يعلو ليصبح حبا أحسه عن بعد دون أن أقوى على الاقتراب منه.. ربما خوفا من أن تعبث بمشاعري فتاة أخرى بعد فيروز، وتبيعني بسيارة فارهة أو شقة فاخرة أو حساب بنكي منتفخ. وربما لأني لم أعد جاهزا للحب كما كنت في السابق، فالحب يغدو نكتة مسلية في وطن يذبح أبناءه لا لسبب إلا

لأنهم خارج الحساب.. لم أعد جاهزا للحب لأني لم أعد أقوى على الابتسامة، فرأس أبي يحجب عني شمس الفرح، وما تبقّى من جسده خرّب في داخلي كل خلايا الأمل.. خلايا الأمل لا تتجدد، ولهذا كنت أحس أن قدرتي على الحب دخلت موتها السريري وتحتاج إلى معجزة لتعود إليها الحياة مرة أخرى.. لن يكون في استطاعة امرأة أن تحب رجلا وتقاسمه حياته وهو لا زال يسكن مغارة الدم..

في الجامعة

عرفت أنه يجدر بك ألاّ تتعلم كيف تقف في الطابور ولا تحترم من يقف أمامك من زملائك، لأنك ستجد نفسك آخر من يصل إلى خالتي «ساسية» ويأخذ حصته من الطعام الذي ستجد نفسك مجبرا على إعادة طهيه بغرفتك في الحي الجامعي حتى يأخذ لون الأكل ومذاقه.

كل غرفة في الحي الجامعي تحولت إلى مطعم صغير به كل ما يحتاجه الطبيخ من توابل وخضر وعجائن يجلبها الطلبة وخاصة الطالبات من بيوتهم لإعداد طعام شهي يذكرهم بأنامل أمهاتهم السحرية، فعندما تمرّ في الرواق تزكي أنفك مختلف الأطعمة التي تنبعث من الغرف الضيقة.. الاكتفاء بوجبة الجامعة جريمة في حق الجسد والأكل خارجها جريمة أكبر في حق الجيب. ويبقى الحل الوسط تحويل الغرفة إلى مطبخ صغير تختلط فيه رائحة التوابل برائحة الكتب، فتهزم الأولى الثانية وتصرعها.

في الجامعة

وفي العام الأخير من دراستي تعرفت على سعاد ..

لقائي بها غيَّر خارطة أحلامي و جعلني أعيد ترتيب حدود رغباتي.. معها عرفتُ كيف تتسرب الألفة داخل الشرايين لتتحول- في غفلة مني- إلى حب دافئ تغلغل في أعماقي ونشر أجنحته البيضاء في كل أروقتي.. حب جعلني أرخي معطف الصمت وأسحبه عن لساني شيئا فشيئا لأعترف لها أنها المرأة الوحيدة في هذا العالم، وكل النساء دمى متحركة لا أنوثة فيها.. امرأة عرفت طريقي وسحبتني شيئا فشيئا من مغارة الدم لتنثر على جوانب حياتي كثيرا من ورود الأمل، فأطعتها. وسار انكساري خلفها على استحياء..

لقاؤنا كان صدفة خُربت بفعل فاعل، وبُترت قبل أن تستقيم.. كنا نقف في مكتبة الجامعة.. بل في ركن واحد وأمام رفّ واحد، نبحث عن كتاب دون أن يعلم أحدنا بنية الأخر. عندما مددت يدي لأخرج «شمس العرب تسطع على الغرب» كانت يدها أسرع، وأخرجته.. ابتسمتُ لهذه الصدفة العجيبة..

عجبا!! مازلت قادرا على أن أبتسم

مازلت إنسانا وكنت أعتقد أني أصبحت بقايا إنسان، بل ذكرى إنسان ـ وردّت هي بابتسامة واسعة أحسستها شمسا دافئة تسللت إلى أروقتي

الباردة فنشرت فيها الدفء والأمان، وزرعت إحساسا غريبا لم أفهمه في حينه ولم أعهده من قبل.

قالت وهي تحافظ على ابتسامتها الآسرة:

ـ هو لك.. بإمكانك أن تأخذه وسيكون لي حظ في وقت آخر.

ارتبكت أمام سخائها وقدرتها العجيبة على التسلل إلى أعماقي السحيقة، وأجبتها:

ـ بل هو لك.. كانت يدك أسبق.

استطردتُ وأنا أجد مشاعري تتعرى أمامها من أول لحظة رأيتها:

ـ ما رأيك أن نجلس في ركن من هذه المكتبة وتقرئين لي بعض فصوله، وأقرأ لك فصولا أخرى.

ـ وإن تعبنا؟

سألتني وهي تسحب ضوء ابتسامتها عن المكان.

أجبتها:

ـ نلتقي كل يوم في هذا المكان حتى نأتي على جميع صفحاته.

عادت شمس ابتسامتها تشرق على المكان وهي تأخذ مني الكتاب وتغادر وكأنها تقول لي: «الكتاب كالحب لا يجوز أن نقرأه بصوت

عال، أو يشاركنا أحد في قلب صفحاته وإلا فقد خصوصيته.. الحب حالة خاصة.

لست أدري عمّا كنا نبحث بين دفتي هذا الكتاب، ربما أردنا أن نستشعر بعض العزة من زمن كنا ننتج فيه الحضارة ونصدّرها إلى غيرنا، وربما كنا نهرب من خلاله ـ من زمن أصبحنا فيه عبيدا لحضارة وقيم غيرنا، إلى زمن كنا فيه أسيادا وعلماء وأبطالا في الحرب والسلم..

لم نضرب موعدا للقاء آخر، لكن اللقاءات تكررت في مكتبة الجامعة.. لست أدري ما الذي كان يدفعني لارتياد المكتبة بصورة متكررة، هل هي الرغبة في المطالعة وتغذية العقل والتواصل مع شخصيات أحترمها، أم هو إحساس غامض يقود قلبي نحو مكان اعتقدت أنه الوحيد الذي سيجمعنا، خاصة وأنا أدرس في كلية الحقوق وهي في كلية العلوم السياسية.

قالت لي ذات يوم وهي تمسك بكتاب أعرف ملامحه جيدا لأني عاشرت صاحبه زمنا طويلا:

ـ كنت أسمع كثيرا عن مالك بن نبي، لكن عندما قرأت كتابه «الظاهرة القرآنية» اكتشفت أني لم أكن أعرف الرجل، ولم نعطه حقه كمفكر ونابغة.. سنحتاج إلى قرون كي ينجب الوطن مفكرا في مثل حجمه.

قلت لها وأنا آخذ منها الكتاب وأسبقها إلى طاولة فارغة قريبة من الرفّ الذي كنا نقف أمامه، وكأني أجرّها برفق لكي تقاسمني جلسة ولو داخل المكتبة:

ـ لم أكن أعتقد أنّ هذا الكتاب موجود بالمكتبة، لم أعثر عليه منذ أن تركته في مكتبتي بالقرية.

جلستْ على الكرسي المقابل لي، تفصلنا طاولة باردة بدأ الدفء يتسلّل إليها شيئا فشيئا، فدبّت فيها الحياة لتقاسمنا جلسة حب يمشي على أطراف أصابعة بين رفوف المكتبة حتى لا يلفت انتباه أحد، ثم قالت:

ـ أبي قرأ كل كتبه، وكل المحاضرات التي ألقاها في الملتقيات الفكرية، ويحثني دائما أن أقرأ له، وهذا الكتاب يغريني دائما أن أعيد قراءته، في كل مرة أفهم جزءا عجزت عن فهمه في المرة السابقة.

قلت لها كأني أستعرض عضلاتي الفكرية، وأكشف لها أني سبقتها إليه:

ـ هل تصدّقين.. طالعت هذا الكتاب وأنا في السنة أولى ثانوي، ليس في مقدور أي إنسان أن يقرأ أفكار مالك بن نبي، إنها تحتاج إلى تبسيط كبير حتى تقترب أفكاره من العامة وتلامس واقعهم من أجل أن يدركوا الركب الحضاري. لقد كان له بعد الاستقلال نشاط فكري إسلامي متميز، حيث كانت له ندوة ثابتة حضرها الكثير من أقطاب الحركة

الإسلامية في السبعينات، ربما أراد بهذه الندوات أن يتحول من مرحلة التنظير إلى مرحلة التطبيق، ويجسّد أفكاره في واقع الناس عوض من أن تبقى سجينة الكتب، وقد وضع أسس النهضة التي رآها في الإنسان والتراب والزمن.....

وجمعتنا أفكار ابن نبي التي كانت حاضرة في لقاءاتنا الأولى، وكأني كنت أريد أن أقتفي منهاج هذا النابغة الجزائري وأؤسس لعلاقتي مع سعاد على شروط تمنحها الاستمرارية وتجعلها غير قابلة للتصدع أو الانهيار..

قلت لها وأنا أغلق الكتاب الذي كنا نقلّب صفحاته ونقرأ بعض فقراته، وأفتح أول صفحة في تاريخ حبنا:

ـ أشعر بكثير من الارتباك لأني لم أجلس من قبل إلى امرأة وأحسست أنها قريبة مني كل هذا القرب.

ردّت وهي تحاول أن تتجاهل ما أعنيه:

ـ ولكن جلوس الزملاء في الجامعة مع بعضهم البعض لا يسبب كل هذا الارتباك.

رفعت عيني إليها لأقع في صفاء عينيها وقلت لها كلمات لم أحسن ترتيبها، ولم أقدر على تتمّتها:

ـ ما يكون بين الزملاء علاقة عابرة، وأنا أرغب أن أقيم في قلبك.....

ارتبكتُ أكثر وتسارعت نبضات قلبي.. أهدتني ابتسامة اعتبرتها تأشيرة العبور إلى قلبها والإقامة الدائمة هناك، وهمست لي بصوت دافئ:

ـ وأنا أسعد أن تقيم في قلبي..

ثم استطردت وهي تحافظ على همسها:

ـ لي شرط واحد...

ـ شرطك مجاب قبل أن أسمعه.

ـ أن تعدني بألا تمّل ٱلإقامة الطويلة، وتغادره ذات يوم إلى قلب آخر لتجدّد حياتك.

ـ ٱلإقامة في غير الوطن تيه ومذلّة، وأنت وطني.....

ثم وضعتُ يدي على الكتاب وكأني أتحسّس موضع يدها التي كانت تقلّب صفحاته وأمسك بها، واستطردت:

ـ من السذاجة أن يغادر الإنسان وطنه إلى أرض لم يألفها ولم تألفه.

على اتساع المكتبة أحسست أن المكان يضيق شيئا فشيئا حتى غدا غرفة ضيقة جيدا لا تتسع إلا لقلبين تتسارع نبضاتهما، بل عشا صغيرا

لعصفورين يقفان جنبا إلى جنب يعزفان على أوتار قدر بدا منحازا لهما. هل يمكن أن ينحاز القدر لعاشق بهذه السرعة وكل هذه السهولة ليغدو في غاية السعادة؟ هل العذاب الذي عاشه العشاق الأوائل كان لقدر أولاهم ظهره وانحاز لمن هم أقل منهم عشقا، فمنهم من مات غما، ومنهم ذهب عقله لأن البعد عن الحبيب يجعلنا فارغين من كل شيء، حتى من العقل؟

انحياز القدري لي، وقبول سعاد بأن تمنحني تأشيرة المرور إلى قلبها كان بداية التاريخ، لأنها سحبتني من قلبي وخرجت بي من مغارة الدم، وأصبحت قادرا على أن أحب وأبتسم ولو لامرأة واحدة هي كل العالم..

حبي لسعاد وارتباطي بها، جعلني أغيّر نظرتي للمرأة.. علّمني حبها أنّ المرأة ليست مجرد قصيدة نغزلها في أوقات فراغنا ونتدثر بها أيام بردنا، وليست قصة ننسج خيوطها في الوقت بدل الضائع، ونوشّح بها تاريخنا الإنساني لنكون أكثر تألقا وشهرة.. المرأة ليست جسدا يطفئ رغبة ما قد تنفرط من عقد تماسكنا..

علّمني حبها أنّ هناك من النساء من لا ترى في الرجل فراغا تدخله بفستان أبيض ويدين مخضبتين بالحناء، وسذاجة تختبئ وراء مساحيق صارخة.. سعاد كانت ظلي الذي ينقص عني حينا، ويساويني حينا ويفوقني طولا وامتدادا حينا آخر..

كنا نكمّل بعضنا البعض، ويرقّع كل منا ما تمزّق من الآخر، رغم أن ما كان يتمزّق مني أكثر بكثير مما كان يتمزق منها، فهي ابنة العاصمة والطفلة المدللة عند أبيها المثقف والصحفي «سعد الجزائري» صاحب المقالات الجريئة التي أربكت مسؤولين في هرم السلطة، والذي حدثتني كثيرا عن حبه لها واستعداداه لتلبية كل طلباتها. وأنا الشاب القروي الذي ما زال تراب قريته عالقا بحذائه وأفكاره، ولا زال رأس أبيه المقطوع دون ذنب يطارده في كل مكان..

لقاؤنا كان يقتصر على ساعة أو ساعتين في الأسبوع بحكم أننا في معهدين مختلفين، ومع ذلك أحسست أني أتورط في حب لا طاقة لي على مقاومته أو التعايش معه بشكل صحي..

وسارت بنا الأيام سريعة حينا ومتباطئة حينا آخر.. الرغبة في إنهاء الدراسة كانت تسيطر عليّ وتدفعني للاجتهاد والمثابرة حتى أتفادى السقوط، وأعجّل بتحقيق حلمي بالارتباط بسعاد.. لكن بداخلي خوف كبير من العودة إلى قرية تعيش على موتها الدائم.. أحس بالألم كلما تصورت أني سأغادر العاصمة وأخلّف ورائي سعاد لخيبة ممتدة، فظروفي لم تكن تسمح لي بالارتباط بها. فهي أكيد لن تترك أباها ولن تقوى على مغادرة العاصمة لتكمل حياتها في قرية نائية تقتات من صمتها وفراغها، وتعيش على مشاريع مؤجلة من حملة انتخابية إلى حملة أخرى.. ولن أستطيع أن أوفر لها سكنا في العاصمة..

سنة في الجامعة كانت كافية لأن توحّد بين نبضات أحلامنا، وتجعلنا نتفق على كل شيء، حتى على أسماء أبنائنا..

قالت لي ذات أمسية جمعتنا في كافيتيريا الجامعة:

ـ أحبّ كثيرا اسم «أسامة» ولو رزقنا الله بولد بعد زواجنا سنمنحه هذا الاسم.

أسامة.. أحسست بشيء يوخز قلبي، ويحيلني على شكّ أرّقني. من يكون هذا الرجل الذي تريد أن تمنحه عمرا أطول في حياتها، فيحمل ولدها اسمه؟ هل يكون زميلا لها في الجامعة كسر قلبها ورحل إلى سواها، وظلّت على وفائها له ولو باسم يحمله أحد أبنائها؟ أم هو رفيق الصبا وحبّ يعود إلى طفولتها الأولى، لكنّ الأيام فرّقت بينهما وسار كل منهما في طريقه، فظلّ اسمه يدقّ بقوة على جدار ذاكرتها؟

هي لم تخبرني عن سبب اختيارها لهذا الاسم، وأنا رأيت فيه مشروع حب فاشل بطله أسامة. لكني ابتلعت شكي وهواجسي، وقلت في نفسي: «يجب أن أكون متحضّرا، ولا أحاسبها على ماضيها، فالماضي خزانة سرية من حق أي طرف أن يحتفظ بمفاتيحها في جارور خاص ومقفل».

اختيار الأسماء فخّ يقع فيه الرجل، كما يمكن أن تقع فيه المرأة..

كم من رجل أخذ اسم ابنته من امرأة أحبّها وما زالت تسحب ذيل ماضيها أمامه كلما أغمض عينيه وجاور زوجته في فراش تتعلّق بحواشيه ملامح حب تحدّى العقل والمنطق والعرف وأقام له وسادة ثالثة..

وكم من امرأة أصرّت على اسم اختارته لولدها ولا أحد يعلم أنها أخرجته من خزانة الماضي، وسحبته إلى حاضرها دون أن يتفطّن أحد لذلك.. فليس من المستبعد أن يكون «أسامة» اسم رجل أحبته وغادر تربتها لسبب هي وحدها تعلمه. ومع ذلك أبديت إعجابي بهذا الاسم وقلت لها:

ـ اسم جميل، أسعد أن يحمله أحد أبنائي تيمنا بأسامة بن زيد حِبّ الرسول صلى الله عليه وسلم.

كنت سأستطرد قائلا «وإذا رُزقنا ببنت نسميها فيروز» كرد اعتبار لكرامتي التي خدشها أسامة، لكني تراجعت، فهذه الفتاة لم تكن إلا طيفا عابرا لا يستحق مني الاهتمام أو التأريخ له بأن أمنحه لابنتي، أو أفتح بابا للشك في قلب سعاد وأنا أحوج ما أكون لليقين.

قالت وهي تعبث بارتباكي الذي يلازمني كلما جلست إليها ونظرت في وجهها:

ـ وإذا كانت بنتا، كيف تحبّ أن نسميها؟

ـ سعاد....

أجبت بعفوية.

ابتسمتْ، وظهر في ابتسامتها انتصار كبير لأنه لا وجود لامرأة في دفتر العمر الذي مضى..

ابتسمت، لأنها تأكدت أن لا وجود لامرأة في قلبي أهرّب طيفها من زاوية إلى أخرى حتى لا تتعثر بها، أو يظهر اسمها بزلة لسان..

(٤)

كانت حرارة الصيف المبكر تمتزج بدفء الإحساس الذي يكبر بسرعة في صحراء يومياتي- تماما كتسارع نمو الحشائش في مقبرة تعرف سكون الموت... ساعتها جلست أنا وسعاد في كافيتيريا الجامعة، نعيش آخر يوم لنا في فضائها الواسع، ونضع اللمسات الأخيرة للوحة أحلامنا..

قلت لها وأنا أنفث تعب كل السنين:

- أخيرا.. أخيرا تحرّرنا من السهر والمراجعة والامتحانات...

فاجأتني بسؤالها:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- سأتدرب في مكتب محام كبير، وبعدها أسعى للاعتماد على نفسي وفتح مكتب صغير.. أعرف أن الأمر لن يكون سهلا.

- المحاماة لن تحقق لك شيئا من العدل الذي تنشده، فقد تكتشف أنك دافعت عن ظالم حسبته مظلوما.. ظُلم الناس لبعضهم البعض لا يأخذ مفهوما واحدا بل له ألوان وأشكال تتغير من تفكير إلى آخر لكن ظلم الوطن وخيانته لأبنائه هو الذي يأخذ شكل الخطيئة التي لا تحمل إلا لون القهر.. تعوّدنا على صورة الخائن لوطنه ونعته بأبشع الصفات،

لكن الأوطان أيضا قد تمارس الخيانة ضد أبنائها وتتجاهل طموحاتهم وأحلامهم وتقذف بهم إلى يأس قاتل، وهذا النوع من الظلم لا يمكن أن ترفعه عن نفسك ولا عن غيرك بالمرافعة والوقوف في الحكمة...

ظهر في حديثها فلسفة لم أعهدها من قبل، ولهذا رحت أنظر إليها كأني أكتشفها للمرة الأولى، بينما هي تابعت تشريحها لمفهوم الظلم دون أن تهتم بهذه الدهشة التي تبدو فاضحة على وجهي:

- التشرد أقسى أنواع الظلم الذي يعاني منه الأطفال والنساء ومع ذلك لا تستطيع أن تحاكم الهيئات والمؤسسات المسؤولة عن خروجهم إلى الشارع، لكن الصحفي- وبتحقيق واحد يستطيع أن يلفت انتباه جهات مسؤولة لهذه الظاهرة...

كنت أبدو أمامها كطفل ساذج وأنا أسألها:

- ماذا تقصدين؟

أجابت بسرعة:

- الصحافة.. بالصحافة يمكن أن تحاكم الحاكم والمحكوم والمسؤول، وحتى الأرض التي تخون أبناءها وتبطش بهم في لحظة ضعف... تستطيع أن تقيم موازين وتزلزل موازين أخري. هل تصدق بالمرافعة لا ترفع الظلم إلا عن شخص واحد لكن بمقال واحد قد تمنع الظلم أو ترفعه عن شعب بأكمله.. الشرط الوحيد أن تكون جريئا وجاهزا للموت..

سألتها ببراءة الطفل الذي اكتشف أنّ اللعبة التي بين يديه ما عادت تناسب وضعه:

- وماذا أفعل بهذه الشهادة التي جعلت مني محاميا؟

أجابتني بابتسامة تنمّ عن غرض لم أدركه:

- أقايضك عليها.. أنت تسدل عليّ عباءة المحامي، وأنا أوشحك بمتاعب الصحافة ونكهة السلطة الرابعة...

ثم استطردت بثقة:

- لا بأس.. سأكلم أبي، فهو بحكم منزلته الأدبية والصحفية على علاقة بالكثير من الصحف ورؤساء التحرير، سنكون أنا وأنت في جريدة واحدة، لأن قدرنا واحد.

آه...

أيتها الراقصة في منعرج أفكاري.. كيف سمحتُ لك أن تعبثي بأحلامي ألصغيرة تفككينها، ثم تعيدين تركيبها لتغدو حلما يتسلل إلى شراييني ويصبّ مع دمي...

آه...

أيتها الطالعة من ظل لأحلامي لو تعلمين أي معادلة ركّبت وأي معادلة أسقطت، وأي مصير كنت تسوقينني إليه...

في العمر... امرأة تشكلها، فترغب فيها زوجة...

وامرأة تشكلك، ولا تستطيع لها تصنيفا سوى أنك تحس بالانتماء إليها، فتكون أكثر من زوجة تقاسمك هموم أسرة، بل تقاسمك همّ وطن...

وصدقت سعاد في وعدها لي.

خلال أيام ليلة ولجتُ عالم الصحافة كمتعاون بأجر زهيد يتأخر شهورا، ثم دخلته من بابه الواسع الذي ضاق عليّ فيما بعد. واكتشفت بعد عامين من عملي كصحفي- أنه فضاء أوسع من كل الفضاءات... دخلت متاهة أنستني فاجعة أبي وحرقة أمي ودمعة أختي... وتاه وقتي في ملفات ساخنة كشفتْ عن قضايا فساد ورفعت من شأني لتجعل مني صحفيا متميزا...

كان أول تحقيق قرّبني من رئيس التحرير قضية السلع التي تنام في الميناء سنوات، وتنتهي صلاحياتها.. تتعفن دون أن يستفيد منها المواطن، وأحيانا تصله ليس لتسد رمقه بل لتقتله.

الحصول على المعلومات كان يتطلب مني أن أقضي الساعات معتصما في الميناء أراقب عن بُعد ما يجري..

في الأيام الأولى كنت أخرج إلى الميناء في وقت مبكر، وأقلّب نظري بين جموع الحمّالين وهم في حركاتهم الآلية بين السفن العملاقة التي ترسو في الميناء، وبين المخازن التي تستقبل البضائع الآتية من وراء البحر إلى شعب يعجز أن ينتج ربع ما يستهلكه..

كنت في حيرة من أين أبدأ، ومع من أتحدث.. أشار عليّ أحد الحمّالين عندما همست له بمهمتي وألقيت في سره أني هنا من أجل أن أقف على أوضاعهم المزرية وأساعدهم على حل مشاكلهم، فأشار عليّ أن أسأل قدّور الحمال فهو الراسخ في الميناء..

قال لي وهو ينفض الغبار الذي علق بقميصه الرمادي وسرواله البنّي وكأنه سيغادر المكان إلى موعد هام يستعد له ولو بالتخلص من غبار يفضحه أمام من يحب:

ـ هناك من يرحل إلى قبره وهناك من يرحل إلى همّه، وهناك من يجيء إلى الميناء بهمّ أكبر، لكن قدور الحمّال هو الراسخ في هذا الميناء، وهو من يمنحك كل المعلومات التي تريدها.

سار بي إلى حيث يوجد هذا الراسخ في الميناء. كان يجلس على حائط صغير يفصل الماء عن اليابس، ينظر إلى هذا الأزرق الممتد وإلى هذه السفينة العملاقة التي تربض في الميناء منذ أن تكررت زياراتي لهذا المكان.. كل السفن تأتي محملة بالقوت والغبن وتعود أدراجها فارغة إلا من كبرياء شامخ، ما عدا هذه السفينة.

كانت رجلاه تتدليان من فوق السور الصغير وتوشك أن تلمسا ماء البحر، وأول ما شدني وأنا أقف إلى جانبه – دون أن ينتبه إليّ– حذاء يعلوه الغبار، ومن وراء غبار كثيف تطل فتحات صغيرة وأخرى واسعة تبرز بعض أصابع قدميه.. ابتسمت في سري وأنا أتذكر المثل

عندنا: «الحبيب ينظر إلى الوجه والعدو ينظر إلى الرجلين» وأنا لم أنظر إلى رجليه فقط بل إلى بؤس حذائه..

هل كنت أنصب العداء لهذا الحمال منذ الجلسة الأولى؟ ألم يكف رصيد الأعداء في حياته لأكون رقما آخر..؟ ألا يكفي أن يكون بينه وبين الحياة عداء ليتسلل الأحبة من حياته ثم أجيء أنا لأكون رقما في قائمة من يتسلّلون إلى يتمه العاطفي الواضح في هيئته؟

حاولت أن أخفّف من عداء غير مبرر، فحييته بصوت هادئ وحنون:

ـ السلام عليك يا عمي قدور..

التفت إليّ وقد فغر فاه دهشة، أو صدمة:

ـ عمي؟

ثم استطرد وهو يشير إليّ بالجلوس إلى جانبه:

ـ لم أسمع أحدا من قبل يناديني عمي، فليس لي أخ يتعلق أولاده برقبتي ويصرخون فرحا «جاء عمي» ولا قيمة لي وسط الناس ترفعني مقام العم، فأنا قدور الحمّال، حتى نسي الناس أن لي لقبا ينسبونني إليه.. مؤلم أن يكون نسب الإنسان أكياسا يحملها على ظهره، وغبارا يحجب ملامحه عن الآخرين.

وجرى الدمع في عينيه، وكأني نكأت جرحا غائرا.

أردت أن أهدهد جرحه وأمسح على يتمه التاريخي الذي بدا واضحا في عينيه الغائرتين ونحافته، وعلى ملامح أحرقتها الشمس التي تلفح الوجوه.. الغبن كان متجليا في سترته الزرقاء البالية، وحذائه المليء بالثقوب والذي يلبسه بدون جوربين.. قلت وأنا أضع يدي على كتفه كإعلان صريح للتعاطف معه:

ـ كل الناس سواء، وكلنا إلى فناء.

قال بحكمة مَن خبر الحياة:

ـ هذا كلام يخفف عن الناس الضعفاء مثلي..

ثم أردف وهو يمد ببصره إلى هذا الزرق الممتد:

ـ إيه يا ولدي.. في هذا الميناء رأيت العجب، وعرفت أن لو تتوقف هذي السفن سنموت جوعا ويقتلنا البرد.. هذا الظهر- يا ولدي- تقوّس من كثرة ما حمل من سلع.. كل واحد يحمل همّه، والحمال يحمل همّه وهمّ الناس.

وعندما سألته عن مدة عمله في الميناء ابتسم بمرارة، فكشفت ابتسامته عن أسنان صفراء متآكلة:

ـ هل تصدق يا بني أني ورثت هذي الصنعة على الوالد، والدي أخرجني من المدرسة وأنا أستعد لاجتياز شهادة التعليم الابتدائي بحجة أن الفقر

وحش يلتهم كل شيء، حتى العلم. كنت نجيبا ومتفوقا، وكان المعلمون يحبونني كثيرا ويقولون بأني سأكون طبيبا أو مهندسا أو مسؤولا كبيرا في البلاد، لكن الفقر جعلني حمالا للمهندس والطبيب والمسؤول الصغير قبل الكبير، وسأورث هذه الأكياس والصناديق لولدي الذي خرج من المدرسة وعمره عشر سنوات، وهو الآن يسند ظهره إلى حائط أمام دار متآكلة لا تحمينا من أمطار الشتاء ولا من حرارة الصيف.. كم من ملف قدمته للحصول على سكن اجتماعي لائق لكن اسمي يسقط في كل مرة لصالح من يملكون شققا وفيلات ويريدون المزيد للمتاجرة أو للتفاخر. الحمّال لا يورث لأبنائه إلا أكياسا يحملونها على ظهور تتقوس شيئا فشيئا، ورؤوس تنحني لأقدام تركلها إن تباطأت أو تعثر أصحابها.. أنا هنا منذ عشرين سنة وما زلت أتقاضى أجرة يومية بلا تأمين ولا راتب يكفل لأولادي حياة كريمة.

واسترسل «عمي قدور» في الكشف عن أوجاعه وكأنه كان ينتظرني منذ زمن ليتقيأ كل همّ أثقله وعسرُ عليه هضمه، فالهمّ كالأكل، هناك ما يمكن أن نبلعه ونهضمه معزين أنفسنا بأن الحياة كلها تعب، وهناك ما يعسُر هضمه فنحتاج إلى قيئ يريحنا..

هو واصل بوحه، بينما نظري كان مركزا على السفينة العملاقة التي تربض هناك منذ بدأت زياراتي للميناء:

ـ قبل تسع عشرة سنة مات أبي الحمّال، أهلكه السل ولم يجد دواء يهدئ به السعال الدامي المستمر، لأن أجرة يومه كان يعود بها بما يسدّ رمقنا

ويبعد عنا شبح الموت جوعا.. رأيته يقع على الأرض ويتدحرج ليقع عليه كيس القمح الذي كان يحمله على ظهره من السفينة إلى شاحنة كبيرة تقف غير بعيد عن الميناء، وعندما أزحت الكيس الذي كان يجثم على صدره كهمّ حمله طول حياته وجدته ساكنا وقد امتلأ فمه دما، ونزل قليله على لحيته القصيرة التي خالطها الشيب وغبار الأكياس.. وما أوجعني أني رأيت صاحب الشاحنة يهرول نحو أبي وسمعته يصرخ بحدة:

ـ الكيس، الكيس، أدركوه فقد يتمزّق ويتفرق ما فيه ويضيع. لكنه تنهد وابتسم في زهو وهو يراني أرفع الكيس عن صدر أبي، وقال مبتعدا عنا:

ـ الحمد لله، الكيس سليم.

وغادرنا دون أن يلتفت إلى أبي الذي امتلأ فمه دما وأصبح جثة هامدة.

كنت سألحق به وأركل مؤخرته ليقع على وجهه ويبتلع التراب ليعرف وجع السقوط ولو للحظة واحدة، لكني تراجعت أمام أبي الذي سكن جسده وهمّه، واستراح.

وأعادني «عمي قدور» إلى واقعه وهو ينظر إليّ ويبتسم تلك الابتسامة التي تعري أسنانه الصفراء المتآكلة:

ـ أحس أن نهايتي ستكون هنا مثل والدي، تحت كيس أو فوق صندوق.

قلت له وأنا أتمثّل صلعة أبي كما رأيتها أول مرة داخل كيس أسود للقمامة:

ـ ليس أبوك فقط من مات وقد امتلأ فمه دما، هناك من غرق في دمه، وهناك من توزّع لحمه على الطيور والوحوش.

سألني بفزع:

ـ ماذا تقصد؟

قلت له وأنا أستدرك حزنا يكاد يفضحني:

ـ لا عليك..

ثم استطردت وأنا أجتهد في رسم ملامح مطمئنة على وجهي:

ـ أعدك أن أفتح ملف الحمالين في الميناء، وأن أثير هذه القضية من أجل أن تعود إليكم حقوقكم.

وخزني الألم وأنا أحس أني أكذب عليه، بل أراوغه من أجل أن يزوّدني بمعلومات أكثر عمّا يجري في الميناء، وأفتك منه أسرار بعض السفن التي تأتي محملة وتربض أسابيع كثيرة قد تمتد إلى شهور.

وعرفت بعد التحريات أنها محكومة بقانون العرض والطلب وأن حمولة السفينة قد ترمى في البحر من أجل المحافظة على استقرار الأسعار التي تلهب جيوب الفقراء دون أن يضعوا في حسبانهم انتهاء صلاحيتها. فهذا النمو الديمغرافي غير المرغوب فيه يجب اختزاله بشتى الطرق، بتسميمه، وإن اقتضى الأمر بذبحه..

وعرفت أيضا أنّ كثيرا من السفن كانت تأتي بالسلاح الذي قتلنا به بعضنا البعض، وتفرغ حمولتها في الثلث الأخير من الليل وبسواعد غير سواعد الحمّالين الذين يعملون في الميناء.. كانت السفينة ترسو وعندما يأتي العمال صباحا ليستأنفوا أعمالهم يرون أنها اختفت دون أن يعلموا من أفرغ حمولتها.. اللعبة كانت أكبر من ظهورهم التي تقوست.

عرفت ـ بعد زياراتي المتكررة للميناء ـ أن الحمّال يعرف من أسرار البلاد والعباد أكثر مما يعرفه المسؤولون القابعون وراء مكاتبهم..

وعدت إلى الجريدة بتحقيق مطوّل عن السلع التي تقبع في الميناء مدة طويلة تؤدي إلى تلفها ومع ذلك يتم تسويقها. وقدمت أدلة عن بعض المواد التي يتم فبركة تاريخ صنعها وتاريخ انتهاء صلاحيتها.. التحقيق كان على حلقتين وزاد من مبيعات الجريدة وجعل اسمي يسطع في عالم الصحافة، وأكثر من ذلك زاد من حب سعاد لي ولهفتها عليّ، وجعلها تسرع إليّ في اليوم الموالي وفي يدها نسخة من الجريدة وحب يكبر ويزهو في عينيها السودواين الواسعتين والتي تحرص دائما على اكتحالهما لتزيد في كبرهما وتأسرني بكل هذا الاتساع الذي لا أملك إلا أن أغرق فيه

وأنا سعيد بذلك. قالت لي وهي تشير إلى الجريدة التي تشد عليها بيدها فأحسها تشد على قلبي وتسحبني نحوها:

ـ أبي قرأ الجزء الأول من التحقيق وأُعجب بك أيما إعجاب، وأكيد سيقرأ اليوم الجزء الثاني.

قلت وأنا أنتشي لابتسامتها التي تدغدغ قلبي:

ـ إعجاب سعد الجزائري بالتحقيق وسام أزيّن به صدري، ويدفعني لأن أغامر أكثر وأكشف عن كثير من بؤر الفساد، لكن إعجابك أنت يمنحني سلطة فوق السلطة الرابعة ويجعلني جاهزا للموت والحياة في سبيل أن أكون على الصورة التي تجعلك تفتخرين بي أمام والدك، وأمام كل الناس.

قالت وهي تسحبني نحو بياض قلبها لأتطهّر من كل الألم الذي ظللت أجره معي منذ أن خرجت من القرية مفجوعا:

ـ أنا أريدك كما أنت، حتى ولو كنت صحفيا بسيطا في جريدة مغمورة، يكفي أن أحس وأنا معك أني لست ريشة في مهب الريح وأنك تمنحني من القوة ما يجعلني أتغلب على ضعفي وأعيش عمرا خاليا من الانكسار.. أحس دائما أني أستمد قوتي من أبي، وكلما تذكرت أنه قد يرحل يوما ويتركني شجرة عارية يتملكني الرعب، لكن دخولك إلى حياتي بدّد هذا الخوف.. ولهذا أنا أريدك كما أنت..

• • •

«أريدك كما أنت» آه.. لكم تمنيت لو قالت لي «أحبك كما أنت».. رغم كل الدفء الذي تغرقني فيه إلا أنها لم تقل لي يوما «أحبك».. ابتسمت في سري وأنا أكتشف أني أنا أيضاـ لم أقل لها «أحبك» منذ أن عرفتها في الجامعة.. الرجل الجزائري مهما كانت جرأته ومهما كان وزن الحب الذي يحمله في قلبه والذي لو توزّع على العالم لكفى نصف المعمورة شر القتال، ومع ذلك لا يجد الجرأة الكافية ليمسك بيد حبيبته وينظر في عينيها هامسا: أحبك. كما نشاهده في المسلسلات الشرقية حيث تكثر كلمات: حبيبي، حبيبتي، أحبك. حتى بين رجل وامرأة بينهما مشروع حب.. في حديث المحبين الجزائريين وفي همسهم تغيب هذه الكلمات، ويحضر الاحساس بالانتماء الذي يجعل كل طرف يحس أنه ينتمي إلى جغرافية الآخر وإلى تاريخه حتى ولو كان عامرا بالخيبات، تماما كهذه اللحظة التي تقف فيها سعاد أمامي وهي تحمل الجريدة التي توقّع شهادة ميلادي أمام جلالة السلطة الرابعة، أحس أنها تنتمي إليّ، وأني أنتمي إليها، وأن كل الحدود بين روحينا قد ألغيت باتفاقية الحب..

لكن الأهم من هذا كله وبعد هذا التحقيق وتحقيق آخر عن الحليب الفاسد الذي سمّم العديد من الأطفال أصبح لي مكتب خاص.

فقد عُينت رئيسا لقسم التحقيقات.. ترقية اعتبرتها حقا مكتسبا ومشروعا ونموا طبيعيا لحياتي الصحفية التي جعلتني جاهزا للموت والحياة أيضا..

(٥)

خريف يتحرك على أطراف أصابعه، يمد يده بسكون موجع وهو يقترب من نافذة أيامي المتسارعة، ويتسلل هاربا من دفتر العمر..

وخريف آخر يتسلق حائط عمري، وينفذ إلى ممرات أيامي دون أن أشعر به..

بوابات تُفتح وأخرى تُغلق، وأيام تتسرب من ثغرات غير محسوسة تشبه تسربا بطيئا للغاز، لا تشعر إلا والعالم ينفجر من حولك لتتحول حياتك إلى رماد تذروه الرياح..

كم يلزمك من العمر أيها الغارق في ملكوت كلمات تسوقك إلى حتفك؟

كم يلزمك من عمر إضافي لتتذكر أمك التي خلفتها لوحدة قاتلة، وأختك التي جفّت دموع الفراق في عينيها وهي تفشل في الحصول على شهادة البكالوريا مرتين متتاليتين، فتتحول أحلام التفوق عندها إلى ربة بيت من الطراز الأول..

مريم تزوجت بعد عام من إخفاقها الثاني في الحصول على شهادة البكالوريا، رغم تفوقها الذي شهد به كل أساتذتها، سبب فشلها هو ذلك الخوف الذي كان يرافقها إلى قاعة الامتحان ويتّخذ له مكانا إلى

جانبها ليعبث بأفكارها وبمجهودها طيلة العام. أمي تقول أنها مصابة بـ «الخَلْعَة» التي سكنت عروقها بعد فجيعتها في أبيها..

لم أحضر عرس مريم وهي أختي الوحيدة والقريبة من قلبي، كنت حينها مكلفا بمهمة صحفية في الجنوب منعتني أن أكون إلى جانب أمي في يوم تزف فيه ابنتها الوحيدة، بل تركت الأمر كله لخالي سليم الذي ملأ فراغ أب رحل مبكرا، وابن عجز أن يملأ فراغ أبيه.. كنت أحس أني انسلخ عن أهلي وقريتي شيئا فشيئا عقابا لهم على جريمة وطن، وأني لم أعد معنيا إلا بتحقيق ذاتي وإرضاء طموحي الذي كان يتجبّر.....

سحبني من شرودي رنين الهاتف القابع أمامي كحارس على كل محاولات الانفلات والهروب...

كان رئيس التحرير على الخط يطلبني إلى مكتبه...

أجبته بسرعة كأني أريد أن أقطع الخط على أي تفكير يعيدني إلى الوراء الذي لم يكن عادلا:

- سأحضر حالا.

سرت إليه يسبقني الشوق إلى قضية أخرى، وملف قد يرفعني درجات أعلى...

لم أكن بحاجة لأن أطرق الباب لأنه يصر دائما على تركه مفتوحا. كان يقول لي:

- باب مكتبي مفتوح، وكذلك صدري لكل انشغال أو قضية تراها تعمل لصالح الشعب هذا الشعب كُتب عليه الكفاح ليجد نفسه آخر كل معركة هو الخاسر الأول.. ناضل من أجل حريته ودفع ثمنها من دمه وأطفاله وعشيرته، وعندما نالها انشغل هو بالرقص فرحا بالاستقلال بينما تسللت الخفافيش لتستحوذ على الأملاك والفيلات التي تركها المعمّرون ورحلوا... هذا المواطن القنوع -دائما- اكتفى برقصة الاستقلال، بينما «القياد» والخونة استولوا على كنوز الاستقلال وتحكّموا في رقاب العباد. بعدها كان عليه أن يكافح ويشد حزامه لبناء مؤسسات الدولة، ليكون على رأسها من لا يرحم جوعه ولا عريه، ولا يهمه أن يقتات من لحمه أو دمه، أو يستر عورته بخيبة يجترها.. ثم يجد نفسه مجبرا- مرة أخرى على الكفاح ليعود الأمن إلى وطن لا يملك فيه غير قبر، وقد يضيق عليه..

كان رئيس التحرير دائم الحديث عن هم هذا الوطن وعن رقصة الاستقلال، وكأنه يصرّ على أن هذا الشعب ـ ومنذ البدء ـ وجد من يستغفله ويتاجر بطيبته.

نظر إليّ ذات يوم بحزن عميق تعلوه ابتسامة باهتة تطل من دخان سجائره المتعاقبة على شفتيه، وقال:

ـ هل تصدق أن والدتي- رحمها الله- كانت تتقن رقصة الاستقلال؟

ابتسمت في سري لهذا البوح الغريب الذي يكشف لي عن رقصة تتقنها أمه، لكنه استطرد دون أن يأبه لابتسامة تطلّ من عيني على استحياء:

ـ في كل أفراح العائلة والجيران كانوا يطلبون منها- وبإلحاح- أن ترقص لهم رقصة الاستقلال، فتُنزل الحزام الصوفي الذي يحيط بخاصرتها حتى يعلو منتصف بطنها، ثم تسدل على وجهها وشاحا أبيض وتمد يديها إلى الأمام، ثم تبدأ في تحريك بطنها التي تعلو شيئا فشيئا حتى تكاد تلامس صدرها، وتتحرك باتجاه الحاضرين الذين يصفقون لها وهي مزهوة بنفسها.. هذه الرقصة مارستها أمهاتنا وحتى آباؤنا صبيحة الاستقلال، وعندما استفاقوا من نشوة النصر وجدوا أن الغنيمة قد اقتُسمت بين من لم يخرجوا إلى الشارع، ولم يمارسوا طقوس هذه « الشطحة».

كثيرا ما كان رئيس التحرير يسترسل في فجائع هذا الوطن، وأسترسل أنا في صمتي أمام حرائقه التي كان ينفثها مع دخان سجائره المتعاقبة على شفتيه المكتنزتين.

احترامي لهذا الرجل جعلني أرى فيه صورة أبي.. نظراته المسافرة في عمق الحكمة.. تجاعيد وجهه التي تخفي وراءها ذكاء عاطفيا حادا إلى جانب ذكائه العقلي.. مقدمة رأسه التي انحسر عنها الشعر ليترك مساحة واسعة للهيبة والوقار والرزانة.. أبي لم يكن الأقوى ولا الأكثر

ثراء في القرية، ولكن كان أشد الناس التصاقاً بالعقل والحكمة، فلا يتقدم أحد لخطبة فتاة إلا وهو يسبقه إلى بيت أهلها، ولا تُـــقرأ فاتحة إلا بحضوره، ولا يزوّج ولي أبنته إلا بعد استشارته، ولا يخطو أحد نحو عمل أو مشروع إلا بعد الرجوع إليه.. كان بيتا للحكمة يقصده كل من كانت له حاجة..

صورة رئيس التحرير.. تفاصيل الحكمة فيه، اختلطت بصورة أبي الطالع من حجرات النسيان. كلماته كانت تسبقني إليه وتسرق مني الكرسي الذي كنتُ سأجلس عليه.. حروفه كانت مقدسة، فجمعتها في يمين القلب، و جلست.

بادرني وكأنه قرأ بعض ما في نفسي:

- تبدو مضطربا... بل أقرب إلى الحيرة والألم.

قلت وأنا أحاول أن أتفادى النظر في عينيه اللتين تفضحان ضعفي:

- كل شيء ها هنا عقيم إلا المشاكل، إنها تتناسل بشكل غريب فلا نكاد ننتهي من ملف فساد حتى تنفتح أمامنا عشرات الملفات التي تلحّ في الاستعجال، فمن الرشوة إلى اختلاس أموال البنوك إلى المتاجرة بشقق السكنات الاجتماعية التي يأخذها من هو ليس بحاجة إليها ثم يتاجر بها ليمتص ما تبقّى من دم الفقراء... هل تصدق عندما خلّفت المحاماة ورائي وولجت عالم الصحافة كان تقودني الرغبة في

الشهرة والانتشار، لكن اليوم أجد هذه الرغبة تتبدد ليستوطن مكانها الإحساس بالمسؤولية...

قال لي وهو يسحب نفسه بخفة ويجلس على الكرسي المقابل لي:

- ما يشدني إليك هو هذا التفكير الراقي، هذا الإحساس المسؤول الذي لا يكون إلا من رجل يحب وطنه ويخلص له...

قاطعته دون شعور مني:

- ولكنه في كثير من الأحيان- لا يحببنا ولا يخلص لنا...

- الوطن يا ولدي- كالابن نحبه وإن عصانا، و نخلص له وإن خاننا لأنه قطعة منا.. بعض دمنا.. فكيف والوطن كل دمنا.. الوطن هو الأم التي لا نملك إلا أن نحترمها ونحبها حتى وهي على حماقة أو جنون.

أجبته وأنا أبتسم بمرارة:

- حتى الخيانة والعصيان لهما فلسفة..

تجاهل تهكمي وَمـدّ يده ليأخذ ورقة كانت أمامه، ثم قال لي وهو ينظر في حروفها القليلة:

- الحديث كان سيأخذنا بعيدا و ننسى الموضوع الذي استدعيتك من أجله.

ثم أستطرد:

- وصلتنا أخبار تقول أن أحداث شغب تعيشها قرية بني حمدان، وأن السكان قطعوا الطريق الوطني وعجز الناس عن الوصول إلى أماكن عملهم، وطلبة الجامعة متذمرون لأن هذا الحاجز منعهم من الالتحاق بالجامعة وإجراء الاختبارات...

- ألم تعرف السبب؟

سألته وكأنني أتحسس الطريق الذي سأعبره...

أجابني:

- يقولون أن أنابيب الغاز مرّت فوق تراب قريتهم لتصل إلى بلديات مجاورة استفادت من خدمات غاز المدينة، بينما هم مازالوا يتدحرجون وراء قارورات الغاز التي تنهب جيوبهم. وقد تكتشف- وأنت هناك- أسباباً أخرى.

• • •

وعشتُ أول احتكاك لي بالنار والإنسان...

عرفت كيف يستخدم الإنسان النار وسيلة للتعبير عن الرفض، وكيف يتوحَّد مع اللهب ويفجـّر نفسه- إن اقتضى الأمر- ليقول: «لا»، أو

لينتقم من عدو يعجز أن يواجهه، فيحول جسده المنهك قنبلة يفجرها في وجه من اغتصب حريته وأمنه، أو حقه في الحياة.. بل ويصرخ في وجه الظلم الجاثم على صدره بلغة النار: «إما أن أكون... أولا أكون... إن لم تكن الكرامة ورداء الحرية فالنار أولى بالجسد تأكله وتتآكل معه...

نزلت إلى قرية بني حمدان يرافقني مصور الجريدة.. هرج السكان وصراخهم كان يُسمع على بعد أمتار، والنار المتصاعدة من العجلات المطاطية كانت تقتحم الأنوف وتلفح الوجوه وتترجم الغضب الطالع من خيبة طويلة...

طابور ضخم من السيارات والشاحنات والحافلات التي كانت تريد أن تعبر القرية متوقفة لأن حاجز البشر والحجر منعهم من العبور.. كان لا بد أن ننزل من السيارة وأن نسير على الأقدام لنصل حيث النار.

مجموعة من العجلات المطاطية والمتاريس وأغصان الأشجار والحجر كانت تشكل حاجزا يقسم الطريق إلى قسمين، لا أحد يمر من الجانبين ومن حاول أن يبعد شيئا يسهّل له العبور يجد حاجز البشر الذي هو أعتى من الشجر والحجر والمتاريس..

كهول وشباب وأطفال دون العاشرة يقفون على بعد خطوات من النار التي كانت تتصاعد في السماء لتعلن بداية التمرد الذي كان يقطع الطريق..

سيارات وحافلات تقف على الجهتين، لا مرور من قرية بني حمدان التي تعتبر نقطة عبور للكثير من المدن الكبيرة ولهذا كان الاستياء كبيرا

من أصحاب المركبات التي نزل أصحابها في محاولة منهم لفتح الطريق، بينما رجع البعض الآخر من حيث أتى لأنهم يعرفون أن كل محاولاتهم ستبوء بالفشل، وأنّ الطريق لن يُفتح إلا بحضور الوالي الذي سيستيقظ من نومه على مهل، وسينظر في شؤون الرعية على مهل أيضا..

محاولات عناصر الدرك لتفريق السكان لم تكن عنيفة- ربما هم أيضا ًملـَّوا الاصطدام بالشعب الذي غالبا ما ينتهي بعطب في الجسد والروح، وتشوهات مستعصية. ودخلوا معهم في حوار ودي لفكّ الحصار لأن مصالح الناس تعطلت...

- ومصالح أولادنا... من يفكر فيها؟

ارتفع صوت من بين الجموع.

- أولادنا يقطعون كل يوم مسافات طويلة للوصول إلى مدارسهم...

أضاف صوت آخر لم أتبين ملامحه...

وتقدم رجل تفضحه عضلاته المفتولة التي جعلت الناس يوسّعون له الطريق، وقال مخاطباً قائد الدرك ومختلسا نظرة إليَّ وإلى المصوّر الذي كان بجانبي:

ـ أولادنا تاهوا بين دلاء الماء وقارورات الغاز والأوحال التي يغرقون فيها كل صباح وهم ذاهبون إلى مدارسهم. كثير منا يعيش في ظلام

ونحن بلد الغاز.. لن نتحرك من هنا حتى يحضر الوالي ونعرض كل مطالبنا. هل يُعقل أن يمرّ الغاز فوق أراضينا دون أن نستفيد منه؟

وتعالت الأصوات تأييدا لكلامه، وأصبحت الأجساد أكثر قربا من النار التي كانت تلتهم العجلات وأغصان الأشجار، وتسمع لها طقطقة مفزعة تجعلك تحس أنها قد تأتي عليك وعلى من بجانبك.

وعبثا حاول عناصر الدرك إقناعهم بإخلاء السبيل أمام السيارات والشاحنات والحافلات، إلا أنهم كانوا مصرّين على حضور الوالي الذي قدم بعد مغيب الشمس، وبعد أن أنهك الناس التعب والجوع، ووعدهم ببناء متوسطة وتعبيد الطريق وإيصال الماء والغاز إلى بيوتهم، ومشاريع في الأفق ووعود من ورق فرح بها الناس وجعلتهم يعودون إلى بيوتهم ليستسلموا لنوم عميق قد يستغرق أعواما، ويستيقظون ذات يوم بتغيير الوالي بآخر لا يعرف شيئا عن الوعود السابقة... فيعودوا إلى لغة النار والشارع...

عندما يتسلل الإحساس بالعدل من قلوب المواطنين، لا تبقى غير النار وسيلة لإعادة ميزان العدل... عندما تغيب مساحات الحوار بين الرعية والحاكم لا يبقى غير الخروج إلى الشارع لإعادة الحق المسلوب...

لك أن تتجبـّر أيها الشارع... بل لك أن تتمدّد فخرا... فكم احتضنت من قضايا عادلة، وكم من المرات لجأ إليك الشعب لتكون الحكم بينه وبين الحاكم فنصرته وأعدت له حقه المسلوب...

كم من ملك متجبّر عبث بأحلام الناس فأنزله الشارع عن عرشه.. كم من سلطان تقاذفت تاجه الأقدام المهرولة في الشارع احتجاجا.. وكم من دكتاتور متجبّر عبث الشارع بقوّته وحوّله إلى بالونة مثقوبة تتطاير أجزاؤها بتطاير انتفاخها الوهمي في الهواء..

«ماري انطوانيت» ترفّعت يوما عن الشعب الذي خرج إلى الشارع يتظاهر من أجل الخبز، نظرت إليه من شرفة قصرها وهي تسأل حاشيتها: «لماذا يصرخ هؤلاء الناس؟» فردّوا عليها أنهم لم يجدوا الخبز، قالت لهم بسذاجة: «إذا لم يجدوا الخبز فليأكلوا البسكويت».. هل كانت سخرية من ملكة ترى الشعب مجرد قطيع من الغنم يصدر أصواتا حين يجوع، ويركن للصمت حين يشبع؟ أم كانت سذاجة من امرأة لم يحدث يوما أن نامت على جوع أو استيقظت عليه؟ لكن كيفما كان الأمر، فالثمن كان غاليا، ولم يكن إلا رأسها.

الحاكم لم يهتم يوما بالشارع...

ملايين الأرجل تعبر الشوارع منها الحافية والدامية والمبتورة واليائسة التي تجرّ نفسها نحو مصير لا تعلمه.

ملايين الأجساد تقطع الشارع ـ الرئيسي منه والجانبي- ذهابا وإيابا.. منها النحيفة التي تآكلت بفعل الجوع وتهرّأت من ثقل الهموم التي أحدثت فيها ثقوبا مكشوفة، ومنها الضعيفة التي تكالبت عليها المحن وأحنتها الظروف القاسية فلم تعد مستقيمة.. منها التي تزحف نحو

بيت من غرفة واحدة تتكور داخلها أجسام من مختلف الأعمار، ومنها التي تنحدر نحو كوخ قصديري تحت جسر عملاق..

ملايين الوجوه تطلّ على الشارع- كل يوم- منها الرمادية التي أرهقها الصمت الاختياري، ومنها الفحمية التي غلبت عليها الهموم وذهبت ببياضها...

قد ينزل الحاكم إلى الشارع لكن نزوله يكون مبرمجا والاستعداد له يكون بشهرين أو ثلاثة قبل النزول التاريخي- فترة تكفي لتغير ملامح الشارع الذي يعبره.. فتُسوى الأرصفة وتُعبّد الطرقات ويعاد دهن الجدرا وتقلع الأشجار الشامخة من منبتها لتُغرس غريبة مكسورة على جانبي طريق يقطعه مسؤول عابر..

يخرج الحاكم إلى الشارع حين يكون كل شيء قد أصبح على ما يُرام، وأنه تمّ الاستعداد لكل شيء حتى لإخراج التلاميذ من مدارسهم والوقوف بهم على ناصية الطريق ليهتفوا بحياة حاكم يمنحهم بركة عبوره من حيّهم، والنظر في وجهه وهو يبتسم لهم عن واجب، ويلوّح بيده ليوهم نفسه أنه الزعيم.. لحظة عبور حاكم قد تكلّف الملايير وساعات طويلة من الانتظار على الأرصفة.

الشارع كالبركان الخامد لا نعرف متى يثور.. قد ينام مئات السنين لكنه سيثور يوما...

• • •

وتفرّق الناس في قرية بني حمدان، ليتركوا آثار ثورتهم في الشارع.. أحجار متفاوتة الحجم هناك وهناك.. عجلات مطاطية تحولت إلى أكوام متفحمة ومتاريس وأطفال يعبثون بما تبقى من ثورة الغضب...

وعدتُ إلى الجريدة.. لم يبق في ذهني غير صورة لسيارة أرادت أن تعبر، فتقدم منها الرجل المفتول العضلات، أدخل رأسه حتى لامست عنقه زجاج نافذة السيارة، وجال ببصره داخلها ثم رجع إلى المحتجين وأمرهم أن يفسحوا لها الطريق، وتعاونوا جميعا على إزالة بعض الأحجار والمتاريس التي كانت تقيم حاجزا يمنع مرور كل السيارات، وبمجرد عبور السيارة الصفراء أعادوا كل شيء إلى حاله الأول.. وعرفت فيما بعد أنّ بداخل السيارة المسموح لها بالعبور امرأة توشك أن تضع مولودا.. قد يكبر هذا المولود ويصبح راشدا ليجد قريته مازالت كما عبرتها أمه وهي تتهيأ لوضعه. أما المصوّر فعاد بملامح باهتة صورها من وراء دخان ألسنة النار.

(٦)

المطر ينقر على النافذة الصغيرة المغلقة ويعبث بمربعاتها المتآكلة الأطراف، وكأنه يلح عليَّ أن أشرع له الباب ليهديني وجها أحبني.. فالأحبة كما الغيث تعرف فصله وتجهل يوم نزوله، وإن تأخرتَ في احتضانهم واحتوائهم حين نزولهم صحراء قلبك عليك أن تنتظر أياما، وربما حولاً كاملاً ليعودوا إليك...

أتكوّر داخل خيبتي، أندسّ في حضن فراش بارد، أحتسي وحدتي وأشعل حكايا دافئة أحارب بها برد الشتاء في فندق تعلو كلمة السعادة مدخله، وتصفعك الرطوبة عندما تلج بهوه الذي يفضي إلى سلالم خشبية توصلك إلى غرف متجاورة وأخرى تقابلها، يفصل بينهما رواق ضيق لا يكاد يتسع لاثنين. فيحدث كثيرا أن يعبر معي رجل في اللحظة نفسها فيدفعني أو أدفعه، أحيانا برفق وأحيانا باحتكاك شديد، وإن كانت امرأة أجد حرجا شديدا في نفسي وأفسح لها حتى أكاد ألتصق بحائط الرواق مخافة أن ألمس شيئا من جسدها.. غرف تشترك في الحمام والمرحاض، ولهذا كنت أتعمّد أن أنهض في وقت مبكر حتى أتجنب الوقوف الطويل في طابور من ينتظرون دورهم للدخول إلى المرحاض..

ابتسمت وأنا أرى وجه سعاد يطلّ من النافذة المتآكلة الجوانب، ويعبر ليقاسمني غرفة ضيقة ومقرفة تتوزع الرطوبة في كل زواياها ويتسلق الهمّ جدرانها الصفراء الباهتة.

كنت أنظر إلى وجهها الذي يقترب مني وأنا مستلق على سرير يعلوه الصدأ من كل الجوانب.. أنظر إلى سمرتها الآسرة وأغرق شيئا فشيئا في ابتسامة عريضة تطل من عينيها السوداوين الواسعتين، حتى أني نسيت بؤس الغرفة التي لا أدخلها إلا ليلا..

آه.. أيتها الآتية من مدن الشمس..

كنت أنت ابنة المدينة، وأنا القروي الآتي بغبار مازال عالقا بحذائي...

محظوظ أنا، وأنت مرشدي.

عندما تدخل المدينة لأول مرة لا بد لك من مرشد يأخذ بحيرتك ويمسك بيمين دهشتك ليقودك إلى عالم تتعلم فيه أن الصدق لا يكفي وحده لتكسب محبة الآخرين، بل لابد لك من فنون أخرى أساسية: أولها أن تتعلم كيف تقطع الطريق الذي تعبره أربع سيارات أو أكثر في اتجاه واحد وبسرعة مجنونة دون أن تصدمك واحدة، وتنتهي باستعدادك الدائم لنسيان وجع الحاضر كلما أشرقت عليه شمس يوم آخر...

وكنت أنت مرشدي. تعلمت منك كيف أبتسم من غير حب وأضحك للآخرين دون أن تتعرى أوراق فرحي، وكيف أتحدث دون أن أقول شيئا...

محظوظ أنا، وخيوط ابتسامتك الدافئة تبعثر غبار حذائي وتنزع عني خشونة القروي الذي لا يهمه إلا أن يكون صادقا...

محظوظ أنا، وأنت تطوّقين شتاتي بحب دافئ.

محظوظ أنا وأنت تحاصرين مغارة الدم التي أعتصم داخلها، وتصرين ألاّ تغادري المكان إلا وقلبي يجاور قلبك ويسيران حيث مدن الشمس.. فعلتِ ذلك وأنت لا تعرفين سبب اعتصامي بهذه المغارة، ولا سبب إصراري على البقاء فيها ما بقي من عمري، لكنك كنت أقوى من إصراري وأقوى من الدم..

عندما تحاصرك امرأة بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة، وتتعلق نظراتها بشمسك المخبأة تحت جناحي وجع غير معلن لتمتزج بتراب أحلامها، وتحاول- جاهدا- أن تتخلص من حصارها وتكرّر المحاولة فتفشل.. ساعتها تأكدْ أنّ هذه المرأة أصبحت وطنا ومن الصعب أن تغادر تربته.

سعاد... نجمة طالعة في سماء خيبتي الممتدة.. أسعد كثيرا وأنا أقرأ نجاحي في عينيها، وأحس التصاقها بروحي كلما تقدمتُ خطوة نحو الأمام.

قالت لي يوما ونحن نشق طريقنا نحو الجريدة:

ـ إنك تكبر في عالمي يوما بعد آخر، وأخاف أن تصير عملاقا فأعجز عن احتواء عظمتك...

قلت لها وأنا أستمتع بإبحاري في دفء قلبها:

- لا يمكن أن أتحرّك أو أسبح في عالم غير عالمك.

ثم استطردتُ في لحظة انزلاق عاطفي حاد:

- لو لم تكوني ظهرت في حياتي كنتُ أبدعتك من خيالي، وجعلتك في عصمة أحلامي..

ردت و ملامح انتصار تعلو وجهها المشرق دائما:

- كنت سأسعد أكثر لأني سأدخل الأساطير، وأصبح قبسا من حكايات ألف ليلة وليلة.

لم أرها يوما عارية من ابتسامتها..

كنت سأذهب إلى الاعتقاد أن الابتسامة جزء من تقاسيم وجهها، بل من تفاصيل جسمها الذي يسبح أمامي- دائما- فوق سحابات الكلام دون أن أقوى على ملامسته أو الاقتراب منه دون أن أترك مسافة أمان...

كانت تقول لي عندما يحاصرني الوجع وأفقد القدرة على الفرح:

- لا دواء كالابتسامة نحارب بها فيروسات الإحباط التي تهاجم أفراحنا وتنخر جسد تألقنا..

وعانقتُ ابتسامتها لأذهب في نوم عميق متناسيا بؤس الغرفة والسرير المتآكل الذي يفضح تقلّب جسدي في فراش بارد.

لكن هذه الابتسامة التي كانت تحرضني عليها تدحرجت من هرم فرحها الطفولي وعيناها تقعان على ملف فوق مكتبي صباح هذا اليوم...

عندما رأيتها تحدق فيه، أجبتها دون أن تسألني:

– هو ملف المفقودين...

ثم استطردت كأني استعرض عضلاتي الصحفية أمامها:

– لقد أخذ مني وقتا طويلا وعبث براحة أعصابي وأنا أقف على أرقام وحقائق تدوخ... شباب، آباء، فتيات خرجوا من بيوتهم لأغراض شتى ولم يعودوا، تكاثرت حولهم الشائعات لكن لا أحد يعرف سبب اختفائهم. وأغلب الذين اختفوا ليست لهم توجهات سياسية ولا دينية، بل هم بسطاء وعاديون جدا..

هل تعرفين زينب عاملة النظافة في الجريدة، الجميع يعتقد أن زوجها توفي وترك لها خمسة أطفال وهي تؤمّن لهم قوت يومهم بالعمل في الجريدة، لكن عرفت مؤخرا أنها ليست الحقيقة وأن زوجها خرج ليصلي الفجر في المسجد القريب من البيت لكنه لم يعد إليها ولا إلى أولاده. وأخبرتني أن الجهات التي قصدتها لتسأل عنه لا تعرف عنه شيئا، فهربت بأولادها من القرية إلى المدينة وأخفت حقيقة اختفاء زوجها عن كل الناس، حتى عن أبنائها الذين أوهمتهم أنّ أباهم هاجر إلى إسبانيا لكنه لم يعد، ربما لم يجد سبيلا للرجوع وربما غرق

قبل أن يصل. وبما أنهم صغار صدّقوا أنّ للبحر حماقة ولم يصدقوا أنّ للوطن حماقات تفجعنا في أحبائنا بدون تقسيط مريح، وتحيلنا على يُيتم مبكر..

وفي الملف حقائق عن طلبة جامعيين لم يعودوا إلى آبائهم، وفتيات بريئات اختطفن من بيوتهن ليلا أمام أنظار أمهاتهن دون أن يكون في مقدورهن أن يفعلن لهن شيئا. ومن الأمهات من ماتت حسرة لأن عودة ابنتها فضيحة تكابدها في صمت، فهي قد ترجع إلى البيت ببطن متكورة لا تعرف كيف تداريها عن الناس.. وعدم عودتها وجع يعبث بما تبقّى من عمرها...

واسترسلتُ في الحديث عن أرقام وحقائق مرعبة عن المفقودين وقفتُ عليها بعد تحقيق طويل..

انتبهتُ.. فإذا دمعتان حارتان ترتسمان قطعتين من فضة وهما تسقطان على الملف الذي تحمله بين يديها...

آه.. أيتها البهية... كم أنت جليلة حتى في حزنك... كم أنت فاتنة وهذه الدموع ترسم على وجهك الأسمر الآسر لوحة تختصر كل فصول العام...

كنت سأقول لها: «عندما تتشكل سحابات في قلب الربيع و تمطر، تكون أكثر بهاء».. لكني احترمت دموعها الصامتة الحارقة التي بدأت رذاذا ثم أصبحت سيلا..

تأكدت أن الأمر أكبر من أن يكون مجرد تأثر بقصص المفقودين الذين خلّفوا جروحا في قلوب أحبتهم.

سألتها:

- يبدو أنك فقدت عزيزا...

سقط الملف من يديها المرتعشتين وتهاوى جسدها على الكرسي الذي كانت تقف إلى جانبه ثم جاء صوتها مهزوما.. مذبوحا...

- أخي...

صدمتني الدهشة وسألتها وأنا أجمع الأوراق التي تناثرت عند قدميها وأعيدها إلى الملف دون عناية أو ترتيب:

- أخوك؟

قالت وكأنها لم تنتبه لدهشتي:

- كان أكبرنا وأكثرنا تميزا وهو يجمع بين ذكاء عقلي وذكاء عاطفي. كان- في البيت- كالربيع الذي لا يبخل ببهائه على الدنيا، كالزهرة التي لا تملك إلا أن تفوح وتعطّر كل من حولها.. عندما كان يحضّر لشهادة البكالوريا كنت أنا أستعد لاجتياز شهادة التعليم المتوسط ولم أكن أراهنه على التفوق لأنه أذكى مني...

كان يقول بتحدٍ غريب: «لن أرضى بغير جائزة تقدير من رئيس الجمهورية، لستُ أقل من الذين وصلوا إلى هذا الشرف...».

فيرد أبي وابتسامة فخر تزين ملامحه: «وسأكون أسعد منك لأنك بعض دمي، بل كل دمي...» وحقق حلمه كما أراد.. و.....

وانتصرت الدموع على صوتها فخنقت ما تبقّى من الكلام...

يا الله.. ما حيلتي أمام دموع بهذه القداسة؟

لم أقف يوما على مثل حرارتها وغزارتها.. دموع تنزل على قلبي جمرات حارقة فتحولني إلى هيكل متكور متفحم لا يعرف أين يندثر...

و لم أفعل شيئا.. وكأنّ دمعها حبس الأرض وحبسني أيضا...

لم أقل لها شيئا يخفّف عنها.. كل الكلمات التي كانت تحضرني في مواقف كهذه سقطت مذبوحة عند شهقتها المنكسرة...

لأول مرة أراها منكسرة.. كانت دائما محصّنة بمنزلة أبيها الأدبية والثقافية وبمقالاته التي لا تغيب عن أوسع الصحف انتشارا، وصورته التي تظهر في الحصص الثقافية ونشرات الأخبار الوطنية والعربية.. كلما قرأت لأبيها مقالا أو سمعت له حوارا أو تدخلا أراها أمامي تزداد طولا وشموخا وقوة، حتى اعتقدتُ يوما أنها أحبتني وتمسكت بي لتكتمل صورة تألقها، ولتغنم لقبا فخما تتباهى به.. ابنة كاتب وصحفي مرموق، وزوجة صحفي معروف...

الألقاب كما الجواهر تمنح المرأة تألقا وبهاء وتجعل الناظر يفتتن بها دون أن يفكر بالسؤال عمّن طوّقها بها...

ومع ذلك كنت أحسها قريبة من نفسي، لصيقة بروحي ومتربعة على عرش قلبي.. كل ألم أحسّه في نفسها أجده جمرات حارقة توجعني قبل أن توجعها.. وها هي أمامي جمرة وجع تقبض على أنفاسي، ولا أدري ما أفعل لها...

جلست على الكرسي المقابل لها مفرغا من الكلام، بينما هي استرسلت في حديثها وكأنها لم تعد تشعر بوجودي:

- دخل أسامة الجامعة بحلمه الكبير في أن يصبح مخترعا..

قاطعتها دون وعي مني:

ـ أسامة.. كان اسمه أسامة؟

لكنها لم تعر دهشتي اهتماما، وواصلت فخرها بذكاء أخيها كالخنساء ترثي أخاها صخرا وتعدّد مناقبه:

ـ كان مولعاً بالإلكترونيك والتفكيك و التركيب، وهو صغير كان لا يتسلّى بلعبه كما الأطفال، بل تجده يفكك اللعبة قطعا قطعا ثم يعيد تركيبها، وأحيانا يصنع منها لعبة مختلفة...

وفجأة أشرق المكان بابتسامة مفاجئة كما الشمس الدافئة التي تطل بعد غيمة ماطرة. ثم قالت وكأنها تقبض على ذكريات حميمة تخاف أن تفلت منها:

- عندما نجح بتفوق في الدخول إلى الثانوية- اشترى له أبي خزانة صغيرة أصبح يجمع فيها كتبه وأشياءه الخاصة التي لا يحب أن يطّلع عليها أحد، ويحكم قفلها جيدا كأن بها كنزا كبيرا أو سرا يخاف أن ينكشف لأحد ولو كان قريبا.. و كنت شغوفة بالبحث في أسراره فأتنهز فرصة خروجه من البيت وانشغال أمي في المطبخ وأجرّب كل المفاتيح حتى أفلح في إيجاد ما يناسبها، ولكني لا ألمس شيئا. كنت أرى كتبا ورسائل وصورا، لكنها لا تغريني بالكشف عنها بقدر ما كانت تغريني دقة ترتيبه لأشيائه الخاصة.

كنت أندهش وأنا أجد أغراضه القديمة داخل خزانته الصغيرة، حتى أقلام الحبر التي استعملها وهو تلميذ في الابتدائي، أراها هناك..

يقول دائما- أن كل شيء أصابه العطب قابل لأن يعود كما كان في أول الأمر.. لكن يبدو أنه أحسّ بأن هناك من يتلصص على أشيائه الخاصة فاخترع جهازا منبها ثبّته في القفل حتى إذا لمسه أحد أطلق صوتا مزعجا.. عندما فاجأني هذا الصوت لأول مرة كاد يغمى عليّ فزعاً و خوفا، وأقبل هو مسرعا من الصالون ليضبطني متلبسة بالتلصص على أشيائه الخاصة التي كان ترتيبها يبهرني..

كانت حماقة مني أن أقدمت على فعلي هذا وهو في البيت، حسبته منشغلا بمشاهدة مباراة في كرة القدم، ولم أتفطّن لذلك المنبه اللعين..

تلك آخر مرة فتحت خزانته. لم أُعد المحاولة مرة أخرى حتى وإن كنت على يقين من عدم وجوده في البيت لأنه اشتكاني لأبي الذي عنّفني قائلا «عيب أن تطّلعي على أشياء أخيك الخاصة» فطأطات رأسي خجلا وخوفا رغم أني لم أطّلع على شيء يستحقّ كل هذا التعنيف، بل كنت أكتفي بالنظر إليها فقط... آه.. كم كان قريبا جدا من نفسي، وكنت لصيقة به، ربما لأنني الأخت الوحيدة بين ولدين، أنا أصغرهما.. لكنه خرج ذات ربيع ولم يعد.. الربيع عادة لا يغدر... أليس كذلك يا يوسف؟

لم أجبها لأني أعرف أنها لا تستجدي جوابا..

واستطردتْ وقد سحبت ابتسامتها من المكان فأظلم قلبي:

- لكن الربيع غدر في تلك المرة وحمله تحت جناحي الخيانة.. المسافة بين البيت والجامعة كانت كافية لتسرق عمره وتبعثر أحلامه، وتدخلنا في دوامة من الضياع لم نخرج منها إلى اليوم...

في الأيام الأولى لغيابه، قيل لنا أنه صعد إلى الجبل.. استدرجته مجموعة من الطلبة في الجامعة وهم يقفون على ذكائه الخارق في الإلكترونيك، وأغروه كي يساعدهم على تركيب القنابل..

بعد شهور وقِطع من الألم سمعنا أنه تم القبض عليه لأنه انضمّ إلى جماعة إرهابية، وهو موجود في سجن بالصحراء. عندما سأل أبي كل من يعرفهم بوزارة الداخلية أخبروه أن هذا الاسم غير موجود في قائمة المسجونين ولم يسمعوا عنه...

بعد عام شاع خبر مفاده أن جماعة اختطفته لتساوم أبي على مبادئه وأفكاره ومواقفه التي لم تتغيّر. لكن لا أحد اتصل بأبي ولا ساومه.. وعام يجر عاما وخيبة تسحب وراءها خيبة أكبر، ولا ندري أميت هو أم حي...

ثم رفعت رأسها إلى وجهي ولامست قلبي بنظرة ضعيفة أحسست معها- ولأول مرة - أنها بحاجة إلي.. كنت دائما أحس أني بحاجة إليها، كانت سندي في جامعة اكتشفت فيها أن العلاقات والمكانة الإجتماعية هي التي تمنحك الشهادة العليا وبتفوق أيضا.. كانت منقذي من البطالة وأبوها يتوسّط لي عند رئيس التحرير لأعمل كمتعاون.. كانت مرشدي في مدينة لا تعرف كيف تكون وفية لمن يحبها... كانت اليد البيضاء التي سحبتني بقوة من مغارة الدم وجعلتني أكتشف أني مازلت قادرا على أن أحب..

الآن..

وهذه النظرة المنكسرة تتعلق بأسوار قلبي أحس أنها تبحث عن مساحة آمنة تستريح فيها من عبء أثقلها...

قالت لي ونظرتها تلتصق أكثر بجدار قلبي:

– آه... ما أقسى ألا يكون لفقيدك قبر تبكي فوقه.. لو كان لأخي قبر أرويه بدموعي لكان موته مجرد فقدان، لكنه غاب ولا نعرف له قبرا نقف عنده، فاتخذ من قلوب العائلة قبورا تنفتح على خراب دائم.. مؤلم جدا أن ترى حبيبك ينزلون به إلى القبر ويهيلون عليه التراب ليغيب عنك إلى الأبد ويظلّ فؤادك فارغا، لكن الأيام تظل تهدهد على الألم وتعالجه حتى تخفّ حدّته، وتسلّم بأن هذا القبر هو بيته، وتستطيع أن تزوره في أي وقت شئت. لكن الأكثر ألما ألاّ يكون لحبيبك قبر..

كنت سأقول لها: «وما أقسى ألا يكون لفقيدك غير رأس يقطر دما، يسيرون به في جنازة مبتورة في انتظار زمن آخر يوارون فيه ما تبقّى من الجسد، وقد لا يأتي هذا الزمن فيظل الرأس يحن إلى بقاياه ولو كانت رِمَماً».

لكن شلاّل دمعها عاد ليسقط على خيبتي فيضانا مدمّرا. ساعتها لم أدر ما الذي تغيّر بداخلي.. أحسست بمسؤولية كبيرة نحو هذه الدموع...

الساعة العاشرة صباحا.

مقر الجريدة مفرغ إلا مني ومنها، والحارس الذي يقف عند المدخل يمارس هوايته في التفرج على الناس في غدوهم ورواحهم. فكل

الصحفيين والعمال يبدأون في الالتحاق بالجريدة بدءا من الحادية عشرة، حيث يشكّلون خلية نحل تعمل في حركة سريعة.. لا أحد في هذا المكتب الذي تطل نافذته على الشارع إلا أنا وهي وحرقة من فقدوا أحباءهم خارج القبر و.. ورغبة ملحة تحرّضني على أن أمدّ يدي إلى جرحها وأمسح بحب على دموعها الموجعة، بل كانت تلح عليّ أن أمسك بيديها المرتجفتين وأقرّبهما إلى صدري لأعيد إليها بعض السكينة التي غادرتها..

ولأول مرة تمنيت لو أني أستطيع أن أطوّقها بذراعي وأضمها إلى صدري لعل ارتعاشة جسدها تهدأ قليلا. فالمرأة تحتاج ـ حين ضعفها ـ أن تحضنها لتحسّ أن العالم أكثر اتّزانا وأمانا. لكن رواسب الرجل الريفي كانت تمنعني أن أمدّ يدي إلى وجهها أو يديها أو أن أحضنها، واكتفيت بأن احتضنتها بنظرات جد دافئة كانت تملأ المكان. لكنها- وبعفوية مباغتة- أمسكت بيدي وقالت بصوت مضطرب وهي ترفع عينيها إلى وجهي الذي كان يسبح في جلال حزنها:

ـ أشعر بحزن يشطر قلبي إلى نصفين.. لم أستوعب غياب أخي بعد كل هذه السنين، ولن أصدق أني لن أراه مرة أخرى. أخي أحمد كفر بالوطن وهاجر ليكمل دراسته في كندا.. أمي قتلتها الصدمة، وأخاف أن يلحق بها أبي رغم ما يبدو عليه من هدوء.. سيتركني لوحدة قاتلة وعالم فارغ.

ثم استطردت بصوت أقرب إلى الرجاء:

ـ يوسف.. كم أنا بحاجة إلى وجودك بجانبي.. أحس أن حضورك في قلبي امتداد لحضور أبي.

يا أللّه.. كم تربكني يدها التي تلامس يدي وتشد على أصابعي برفق، ثم تسترخي لتصبح في راحتي..

عندما كنا في الجامعة، كانت الدراسة حاضرة في حديثنا، لم أكن في حاجة لأن أقول لها «أحبك».. بل لم تكن لديّ الجرأة الكافية لأقولها، فأكتفي بإبحار في عينيها اللتين تلمعان بطيبة تجعلني طفلا صغيرا يحبو نحو بياض أمه.

كان غزلي يتوقف عند التعبير بإعجابي بها وبأخلاقها التي ترفعها عندي درجات تعلو فوق كل الناس. وعندما أصبحنا نعمل في جريدة واحدة أخذتنا مهنة المتاعب ولم تمنحنا إلا وقتا قصيرا من حين لآخر، حيث نلتقي في قاعة للشاي تقابل مقر الجريدة، فنرسم ملامح مستقبل يبدو باهتا..

الغريب أنها لم تكن تظهر لي تبرمها من علاقتنا التي لم يكن لها شكل رسمي، رغم أنها- من حين لآخر- تبلّغني سلام والدها وتخبرني أنني دائم الحضور في حديثهما، وأنه معجب بنجاحي وتميّزي في عالم الصحافة، فهو يقرأ العمود الذي أكتبه يوميا ويتابع كل التحقيقات التي أقوم بها، وأمنيته أن يلتقي بي..

كنت أقول لها حين أشعر بالإحباط من وضعي الاجتماعي:

ـ أحس أني أورّطك معي في علاقة لا أدري كيف ستنتهي.. مشكلة السكن هي العقبة الأولى في طريقنا..

وكانت تبتسم وهي تعانقني بنظرات دافئة:

ـ العمارات تنمو كالفطريات في كل الأماكن، وتأتي على كثير من المساحات الخضراء.. إن شاء الله ستكون لنا شقة تجمعنا.

كانت لقاءاتنا تنتهي بعبارة «ستفرج إن شاء الله» وكنا نصدّق الفرج ونصدّق أنه سيأتي قريبا. فعندما تنعدم الحيلة عند الضعفاء تكون الحاجة إلى الإيمان بفرج قريب يوصلهم بالحياة.

الآن.. أشعر بفوضى في مشاعري وحواسي ويدها الباردة الناعمة تنام على راحة يدي..

لم أزد على أن سحبت يدي الأخرى التي كانت مبسوطة على المكتب وغطيت بها على خوفها الذي كان واضحا في ارتعاشة يدها. وسرت في جسدي رعشة كادت تذهب بهدوئي وتملكني خدر لذيذ رحل بي إلى حكايا ألف ليلة وليلة...

ووسط هذه الفوضى التي أحسستها في مشاعري تحرّك بداخلي سؤال كبير: كيف استطاعت كل هذه المدة أن تخفي عني جرحا بهذا الحجم؟

كانت أقرب إليّ من نفسي في السنة الأخيرة من دراستنا في الجامعية، وأصبحت تقيم في شرايبني ونحن نعمل معا في جريدة واحدة.. وتأكدتُ أن المرأة تملك من القدرة على التكتّم والتستر ما يجعلها تسمح لرجل أن يدخل قلبها ويعبر ممراته كما يشاء دون أن يتفطّن إلى سراديب سرية..

تأكدت أنّ الرجل لا يعرف من خبايا المرأة ولا أسرارها إلا ما تسمح به. ولكني شعرت براحة وأنا أجد أني لست وحدي من كان يخفي عنها سر أبيه، بل هي أيضاـ كانت تخفي عني حزنها على أخيها الذي كان رقما موجعا في أرقام المفقودين، ولولا وقوفها على الملف الذي أعدّه ما انهارت بهذا الشكل وباحت لي بسر كتمته عني. فهل سيكون ملف آخر لعدد الضحايا الذين فصلت رؤوسهم عن أجسادهم لأنهار أمامها وأطلق سراح دموعي التي حبستها في مغارة الدم لتؤرخ لوطن يذبح أبناءه، ولا يحسن الذبح؟

لكن، ومنذ تلك المكاشفة التي أوجعتني، وجدت نفسي أغرق مرة أخرى في ملف المفقودين لأنفتح على عالم من الإنكسار والحسرة التي تلازم الأمهات وهنّ يكابدن آلام أبناء خرجوا ولم يعودوا منذ سنوات، وما زلن يتأرجحن بين اليأس والأمل في العودة.

وبقدر ما أوجعتني تلك المكاشفة، بقدر ما حملت إلى نفسي راحة كبيرة تنفست بعدها الصعداء، وأنا أكتشف أن «أسامة» ليس حبيبا تخبئه في خزانة الماضي وتستخرجه حين تُرزق بأول مولود.. «أسامة» أخوها الذي رحل دون كفن وقبر ولا صلاة تكون آخر وقفة للأحياء معه.

(٧)

«أبي يريد أن يراك»

دعوة أخرجتني من بين عارضتين لتجعل لي محلا من الإعراب. هذا الرجل الذي طالما حلمت أن ألقاه ولو عند باب قاعة يلقي فيها محاضرة، أو تعانق عيناي وجهه في لقاء عارض.. تمنيت أن أصافح قلبه ولو عن بعد، بعدما صافحت قلب ابنته عن قرب وشددت على قلبها أثناء المصافحة الأولى فعلقت دقاتها بيدي، وجلست بعد ذلك أرتبها على مهل لأكوّن منها عقد حلم أتحلّى به أمام الاخرين وأمام نفسي..

رجل تمنيت أن أقبّل يده التي ظلت تمسك بالقلم لأكثر من ثلاثين سنة وتتقلب بين مزاج وطن يغيّر بدلته الرسمية كما يغير الانسان ملابس نومه عندما يستيقظ صباحا، وغالبا ما تكون على غير مقاسه فإما فضفاضة يبدو فيها باهتا لا تفاصيل له، أو ضيقة تكشف عيوبه..

سعد الجزائري، كاتب ومفكر وإعلامي حر، ظل ينتقل من جريدة إلى أخرى. فكلما أحس أنه يختنق، وأن مساحة الجريدة التي ينشر بها مقالاته لم تعد تتسع لحركية أفكاره الجريئة، غادرها غير آسف وحطّ الرحال في جريدة أخرى، لكنه يظل يحافظ على نقطة نظام يقولها كلما أحس أن القطار سيخرج عن سكته وسيخلّف ضحايا.. نقطة نظام كان يضعها على شفرة سيف أو فوهة مدفع، أو أمام كلمة غير مسؤولة من رجل مسؤول..

كاتب ظل يسير على خط متواز مع السياسة التي لم تأسره يوما، ولم يكن منتميا إلى أي حزب من الأحزاب حتى عندما فاق عددها ستين حزبا، وظل يصرّح في أكثر من مناسبة أنّ للسياسة بريقا يشبه بريق الذهب ومن يقع تحت أسره لا يمكن أن ينساه أو يتخلى عنه حتى وهو في أرذل العمر لا يعلم بعد علمه شيئا، وقد كتب في إحدى مقالاته التي احتفظت بها في ذاكرتي: «..... فلم أسمع عن نائب دخل البرلمان دون أن يكرّر التجربة مرة أخرى إلا إذا لفظه هو، لأن أفكاره أصبحت جثة يعافها بحر السياسة فيرميها على الشاطئ وليس بها أمل في الحياة.. لم نسمع عن وزير تخلّى عن حقيبته الوزارية طواعية ورغبة في أن يخوض غيره هذه التجربة فيمنحها وجها مغايرا قد ينفع البلاد والعباد، فينهض من حيث تعثّر هو، ويقيم ما تهاوى في عهده.. كلّ من يلج السياسة يخرج منها بعد عملية تنظيف وكنس تقوم بها الحياة وهي تعقد دورتها العادية، وأحيانا في دورة استثنائية.....».

ـ أعتقد أنك تعرف الحي الذي أسكنه؟

أعادني صوتها العابر لأسوار قلبي إلى حضورها الطاغي.. نظرت إليها ولسان حالي يقول: نعم.. أعرف الحي الذي تسكن به امرأة تجتاح خيالي وواقعي.. هو حي راق وهادئ جدا، تبدو فيه العمارات وكأنها طالعة من مدينة بهية تسبح في السحاب..

نعم.. أعرف الشارع الذي تعبره روحي صباح مساء.. هو شارع لا أثر فيه لأطفال يتخذون من الأزقة الضيقة مكانا يمارسون فيه هوايتهم التي قد تجعل منهم نجوما دون حاجة لمحفظة تنوء بحملها ظهورهم..

هو شارع لا ينتشر على أرصفته المتسولون وبائعو السجائر والكاوكاو ولا تجار السوق الموازية الذين ينشرون على جانبي الطريق فساتين وأخذية وجوارب ومناديل ورقية، ودون حياء- يعرضون ملابس نسائية داخلية يلوّحون بها للمارة من الرجال، ويصفعون بها وجوههم من شروق الشمس إلى غروبها، فمنهم من يغض بصره وينصرف، ومنهم من يتظاهر بالإعراض عنها فيبتعد وهو يختلس النظر إليها، ومنهم من تدفعه رغبة ما للاقتراب من هذه الملابس الداخلية للنساء، ولمسها وإطالة النظر فيها ثم السؤال عن ثمنها وكأنه يريد أن يشتريها، بل ترى بعض الرجال يزاحمون النساء اللواتي يقفن أمام هذه الملابس لشراء قطعة ما وكأنهم يتخيّلونها على أجسادهن.

نعم أعرف ملامح الحي جيدا.. هو حي لا ترى قمامة ساكنيه ولا تعرف أين يرمون فضلات أكلهم، ولا تشاهد مشردين وهم ينبشون حاويات القمامة، وينتقلون من كيس إلى آخر علّهم يجدون فيه ما يصلح لأن يُؤكل أويُلبس كما ينقّل الرجل الفقير عينيه في صناديق الخضر والفواكه في الأسواق، لكن الأول لا يشعر بالحسرة لأنه سيأكل في نهاية المطاف، فالبيوت فيها- دائما- نصيب للمشردين يوضع في كيس أسود أو ملون، سيجد بعد عملية تنقيب ـ وإن طالت ـ ما سيأكله، أما الثاني فقد يعود إلى بيته بغصة تورثه أمراضا مزمنة وهو يدخل بقفة عجز جيبه أن يملأها، فيصمت الأطفال رهبة وتصرخ الزوجة: «دبّر راسك.. هل سنأكل الحجر».

نعم أعرفه.. هو حي أغلب بناياته فيلات تبدو هادئة ساكنة وكأن لا أحد يسكنها، بل أغلبها لا يسكنها إلا أب متقاعد وأم تعيش على خيال أولاد هاجروا ليكملوا دراساتهم ولم يعودوا.. فيلات تطل من أسوارها أشجار بكل أنواع الفواكه التي تجعل المارة يشتهونها ولا يجدون إليها سبيلا، حتى العمارات التي قامت على مساحات هذا الحي بنيت على طراز رفيع، وشكل يوحي أنها واسعة وخاصة جدا وهي تطل على البحر.

• • •

وصلتُ..

العمارة كانت أنيقة جدا.. صعدت السلم الذي كان غاية في النظافة وكأن الأطفال لا يمرون به ولا يتركون فيه فضلات ما يأكلون من حلوى وشوكولاطة ودمى لفتيات صغيرات يمارسن أمومتهن المبكرة ولو على سلّم عمارة. بل لا ترى آثار أقدام مرّت من هنا..

وقفت أمام الباب..

لست أدري لماذا عبر بخيالي أن البيت قد يكون فارغا إلا من صمته وعينيها، وأنني سأجد نفسي في مواجهة أنوثتها التي قد تربكني فلا أعرف ماذا أفعل..

ضغطت على زر جرس الباب فتسارعت نبضات قلبي وأنا أسمع صوت عصفور يعلن عن قدومي، ثم تلاه وقع قدمين تنقران البلاط بهدوء ورزانة أعرفهما جيدا لأنهما يعلنان لي دائما عن قدومها في أي مكان كنت فيه..

عندما أكون في مقر الجريدة أميّز وقع خطواتها الحالمة عن كل العاملين والعاملات في الجريدة، فأضع من يدي كل عمل أقوم به وأحبس أنفاسي منذ أن تخطو الخطوة الأولى في الرواق الضيق إلى أن تصل إلى مكتبها الذي يجمعها وأربعة صحفيين آخرين، ثلاث نساء ورجل واحد فقط. كنت أحس أنها ـ وبنقرها على البلاط ـ تعزف سنفونية تجعلني أتمايل على وقعها وأحبس أنفاسي، ولا أعيش إلا على ما تجود به عليّ من حرارة أنفاسها التي تتسلل إليّ في مكتبي دون أن يحس بها أحد غيري..

الآن.. هي تقترب من الباب شيئا فشيئا..

ترتعش أطراف قلبي أكثر.. يخرج حلم الاختلاء بها من قمقم كنت أغلق عليه..

ماذا لو وجدتُ أن أباها خرج لأي عارض طارئ؟ هل ستعتذر؟ أم ستدعوني للدخول كما يفعل بنات العائلات المتحضرة وتجلس إليّ في انتظار أن يحضر أبوها؟

ماذا سأفعل أنا في مواجهة أنوثتها ورغبتي وبيت فارغ إلا منها ومني؟ هل سأجلس مقابلا لها ومحترما مساحة الصمت بيننا إلى أن يحضر الغائب؟ أم سأجلس إلى جانبها لأحس أنها لي باتفافية حب يعلمها الجميع، وأني أملك من الحرية ومن الحق ما يجعلني أقترب منها و.... أكيد ـ الحديث داخل شقة مغلقة على من تحب سيكون مختلفا عنه في مقر الجريدة أو في قاعة شاي أو في الشارع ..

وانفتح الباب..

ووقعت في اتساع عينيها، وفي كحلهما الذي بات من طقوسها التي تمارسها كل يوم، وبدأ هذا الاتساع يضيق أمام ابتسامتها التي ملأت المكان، فعيناها وابتسامتها في حركة مد وجزر، كلما اتسعت مساحة ابتسامتها تقلّص اتساع عينيها، وكلما ضاقت ابتسامتها وتقلصت كان لعينيها رحابة وطن لا تملك إلا أن تستلقي على شطآنه، فهي كما يقول المثل عندنا: «تضحك من عينيها» وهذا مؤشر لجمال يأسر كل من يحيط به من النساء والرجال، فكيف وأنا المتيم بها منذ المصافحة الأولى في مكتبة الجامعة والتي جمعت قلبي إلى قلبها، ولم أكن أدري حينها أنها ستجمع وجعي إلى وجعها وأننا نشترك معا في وطن فجعنا في من نحب وجرّنا إلى انكسار لم نفلح في إخفائه..

ـ أهلا يوسف تفضل، أبي في انتظارك.

ترحيب جعلني أخرج من وساوسي التي ذهبت بي بعيدا. ودخلت إلى صالة كبيرة وأنيقة، يجلس على إحدى أرائكها رجل تجاوز الخمسين من عمره، خالط البياض سواد شعره فزاده مهابة وهو يقف فاتحا ذراعيه ليرحب بي بحفاوة لم أتوقعها، ويقبلني على خدي الأيسر ثم الأيمن مثل أب حنون يقبّل ولده بعد غياب طويل، وبين القبلة الأولى والثانية ترك وقتا مقتطعا سمح له بأن يقول لي:

ـ أهلا بك يا ولدي..

وعندما لا حظ ارتباكي، سحبني من يدي وأجلسنى على أريكة مقابلة له، تتسع لاثنين..

ـ أجلس يا ولدي..

ولدي..

أحسست هذه الكلمة تمسح على يتمي وتنشر بعض الدفء فتبدد الخوف الذي تملكني عند وقوفي بالباب..

الصالة كانت دافئة جدا إلى الحد الذي جعلني أضيق بالسترة الجلدية السوداء التي أرتديها، وانتبهت إلى أنّ الرجل كان يرتدي قميصا أبيض فضفاضا بياقة أنيقة تلف عنقه، كان كمن آتى لتوه من حج مبارك زاده هيبة ووقارا. وكان على حق فيما يرتديه، لأن البرد الذي خلفته الأمطار الغزيرة التي غسلت الشوارع هذا الصباح لا يوجد منه في هذا البيت

الدافئ بقلوب من فيه، وبهذه المدفأة البنية الكبيرة التي تلتصق بجدار الصالة وتضفي على المكان حرارة لا تملك معها إلا أن تتجرد من كل لباس ثقيل. ومع ذلك تحمّلت سترتي الجلدية لأن سعاد قالت لي يوما «إنك أنيق بهذه السترة الجلدية، تبدو كالمحققين الذين يبحثون عن الحقيقة».

انتبهت إلى الرجل وهويقول كمن يعتذر عن ذنب:

ـ كما ترى يا ولدي.. عندما تغيب عن البيت صاحبته يكون عرضة لكل الفوضى والإهمال..

ورفعت رأسي لأرى الاهمال الذي يعتذر عنه، فلم أجد له أثرا وسط هذا الديكور الجميل للصالة، ولم أجد أثرا لسعاد التي لا حظت أنها اختفت في غرفة من الغرفتين المقابلتين للصالة التي نجلس فيها.

ثم رأيته ينظر إلى الجريدة التي كانت بين يديه عندما دخلت عليه، ووجدها فاتحة للحديث معي:

ـ جرائدنا لم تعد مفتوحة إلا على أخبار الموت والدمار في كل مكان في العالم.. الإنسان أصبح في قيمة ذبابة من السهل أن نصوب نحوه آلة الموت ليمسي هباء منثورا.. جميل أن نجد شعرا يمسح على جراحاتنا..

ووجدت نفسي أتحدث إليه كمن يطلق سراح همّ يكتم أنفاسه:

ـ في بداية شبابي كنت أكتب الشعر.. رأيت فيه متنفسا عن كثير من همومي وهموم الآخرين، وكنت سعيدا لذلك لكن سلطة الصحافة داست على كل الأوزان والقوافي وعبثت ببحور الخليل، وأكثر من ذلك وجدت أن الشعر ترفٌ لم نرتق بعد إليه ونحن نغرق في ملفات الضحايا والمفقودين والمعطوبين جسديا ونفسيا.

نظر إليّ وقال مبتسما وكأنه أراد أن يتجاوز مساحة الحزن التي ظهرت في أول حديثي معه:

ـ أعرف أن بداية الحديث مع شخص لا نعرفه تكون مربكة، لكني قرأت كل تحقيقاتك ومقالاتك، وأطلّ كل صباح على عمودك الذي تفضح فيه خيباتنا الوطنية والعربية في زمن لم نعد نتقن فيه إلا للرثاء.

ثم استطرد وهو يحاول أن يقرّب المسافة بيننا ليسهل الحديث:

ـ يكفي أن نداوم على قراءة أفكار إنسان ما لنحسّ أنه أقرب إلينا من بعض الذين هم من دمنا.

قلت وقد وجدت في مقدمته حافزا لمباشرة الحديث معه:

ـ وأنا أيضا قرأت لك الكثير وأنحني أمام مواقفك التي لم تتغير.

قال وهو يأخذ ولاعة من طاولة زجاجية أمامه، ويشعل أول سيجارة له وكأنها إيذان بحرائق همومه التي يخفيها وراء هدوئه المكابر:

ـ عندما تثبت على موقف واحد في وطن تتغير قناعات رجاله من عقد لآخر، فهذا يعني أنك تسبح ضد التيار وستواجهك متاعب كثيرة.

قلت له وكأني أطفئ أول حريق أعلن عنه:

ـ ولكنك بقيت صامدا عند عتبة الوطن تذوذ عن قناعتك وأفكارك، ففي وقت هرب فيه الكتاب والمثقفون خوفا من رصاصة طائشة أو مجنونة، ظللت أنت ها هنا تجابه قاتلا لا تعرفه، ورصاصة لا تدري من أين تاتي.

ـ كذب من قال أن الوطن يصير أكثر التصاقا بنا عندما نغادره.. كذب من قال إني أحمل الوطن في قلبي وأرحل به إلى أي مكان أكون فيه.. الوطن- ياولدي- أكبر من أن نخبئه في صدورنا أو نطويه مع ملابسنا وأغراضنا في حقائب السفر، الوطن أكبر من نقطع له تذكرة سفر ويرحل معنا تحت أسماء مستعارة..

حبس حديثه عندما ظهرت سعاد وبين يديها صينية تحمل فنجاني قهوة يتوسطهما صحن به مربعات من الحلوى..

قالت وهي تضع الصينية النحاسية على الطاولة الزجاجية، وتنظر إلى وجه أبيها وكأنها تستأذنه:

ـ سأترككما لحديثكما.. الأكيد أنه في السياسة...

ثم استطردت وهي تنظر إليّ بطرف خفي:

ـ الذهب يأسر المرأة، والسياسة تأسر الرجل.

واختفت وراء باب أغلقته أمام نظراتي التي تبعتها على غفلة من أبيها الذي كان ينظر إلى صينية القهوة..

أخذ الفنجان الأول وناولني أياه، بينما أخذ الفنجان الثاني لنفسه وقال:

ـ هل تصدق يا ولدي أني لا أحب الوساطة...

ارتبكت.. أحسست أنه يقصدني لآنه توسّط لي عند رئيس التحرير، وأوجدني في مكان يحتاج من شاب مثلي أن ينحت على الصخر كي يتبيّن شيئا من ملامح أحلامه..

تحرك الفنجان بين يدي.. شددت عليه مخافة أن يسقط ويحرجني أمام رجل أحترمه وأحافظ على توازني أمام هامته الأدبية والثقافية والسياسية...

استطرد وهو يرتشف قهوته:

ـ لكن، معك الأمر كان مختلفا.. أحسست وأنا أقرأ مقالا جاءتني به سعاد أنك ستكون نسخة مني.. أعرف أن لا أحد يكون نسخة مكررة من الآخر، وإلا جاء باهتا لا وزن ولا قيمة له، ولهذا أنا على يقين أنك

ستكون النسخة المنقحة...

ـ يكفيني شرفا أن أكون نسخة منك ولو باهتة..

ـ لا يا ولدي، كن أنت ولا تكن أحدا.

أشعل سيجارة ثانية بعد أن أطفأ الأولى في منفضة زجاجية، وكأنه يشعل حريقا آخر:

ـ حتى أولادي، لا أحد منهم حاول أن يكون نسخة مني.. ربما أنا لم أشجعهم على ذلك. يبدو أننا نوّرث المال وحتى المناصب لأولادنا ونفشل في أن نورثهم أحلامنا لأن لهم أحلامهم التي يرونها مشروعة.. ولدي أحمد سافر إلى كندا لإكمال دراسته وإعداد أطروحة الدكتوراه لكنه لم يعد.. تزوج هناك من فتاة سورية.. وسعاد ليس لها إلا الصفحة الاجتماعية التي تشرف عليها في الجريدة وتغرقها في مشاكل الآخرين التي كثيرا ما تحملها إلى البيت وتطلب رأيي..

أشعل سيجارة ثالثة، لكن هذه المرة بيدين مرتجفتين وسحب نفسا عميقا وكأنه يريد أن يملأ رئتيه بما يجعله أكثر تحررا من أوجاعه وقال:

ـ أما أسامة أكبر أولادي وفاكهة قلبي فقد.....

وتعثرت الحروف بين شفتيه وهو يخفي دمعة وراء دخان سجارته، ثم استطرد بصوت متهدج:

ـ في العمر حرائق قد لا يراها الناس، ولكنها تترك آثارا وندوبا لا تمحى.. عندما رحل أسامة عن البيت وأصبح يقينا أنه لن يعود تعجبت كيف للشمس تشرق في غيابه.. عندما استيقظ صباحا وأسمع زقزقة العصافير أحزن لهذه الطيور التي لم تحبس فرحها وقد رحل زين الشباب دون أن يواريه تراب أو يضمه قبر. كنت أحس أن العالم لملم أفراحه وترك الفضاء مفتوحا على خراب مقيم.

رفع عينيه إلى صورة معلقة على الجدار المقابل لنا.. الإطار المذهب كان أنيقا، لكن الصورة التي يحيط بها كانت أكثر أناقة وجمالا.. شاب تطغى الابتسامة على ملامحه ونظرة طموحة تسكن عينيه، كان وجهه صافيا وكانت وجنتاه متوردتين تدلان على ما كان عليه من نعيم..

أحسست أنه يصغي إلينا ويبتسم وكأنه يقول لنا «أنا حي أرزق» لكن صوت أبيه المتهدج طغى على الإحساس بالحياة التي قرأتها على ملامح ولده:

ـ أحيانا أتصور أنه حي، وأنه في مكان ما في هذا العالم وسيعود يوما، وأحيانا أتصور أنهم قتلوه ورموا بجثته للكلاب والوحوش وأنها نهشت جسمه الطري، هذا التصور الأخير يجعلني أفقد اتزاني وأبكي كما الأطفال، فهذه الوسامة وهذا التألق وكل التميّز الذي قرّبه من قلبي لا يمكن أن يكون طعاما للوحوش، ولا يبقى منه حتى العظم الذي يدلنا عليه.

لم يستطع أن يحبس دموعا هزمته فتركها تنزل لتكون شاهدا على حرقة أب لا يعرف لولده أرضا. ثم قال وهو يجفف دموعه بمنديل ورقي أخرجه من جيب صغير في أعلى قميصه الأبيض:

ـ عندما قتل قابيل أخاه جاء طير يعلمه كيف يواري سوءة أخيه فتكون للميت حرمة، لكنهم قتلوا أبناءنا ولم ينظروا إلى السماء ليتعلموا أن للميت حرمة وسوءة يجب أن تُوارى...

ورأيته يضغط بأنامل يده اليمنى على صدره من الجهة اليسرى وكأنه يشعر بوخز في قلبه، خشيت أن تكون أزمة قلبية تجعل لقائي الأول به هو الأخير، فبعض الناس لا يجب أن يتكرر لقاؤنا بهم حتى يظلوا على بهائهم وطغيان حضورهم، لكنه ابتسم وكأنه قرأ ما يختلج في نفسي فقال وهو يهدهد على فزعي:

ـ لا تخش شيئا يا ولدي، الشقي عمره طويل، فكما يشيب الرأس يشيخ القلب ويصيبه الوهن عند كل غصة.. لم أعد أخاف الموت، فلن آخذ زمني وزمن غيري لكن الخوف كله على سعاد، ستكون وحيدة من بعدي ولن أجد رجلا يصونها ويحميها من عاديات الدهر غيرك.

ثم ابتسم وقد عاد إليه الهدوء وظهرت ملامح الارتياح على وجهه وقال:

ـ أعتبرْها يا ولدي ـ إعلانا رسميا في أن ترتبطا في أقرب وقت. هذا البيت سيكون هدية زواجكما. أريد أن أجنبكما مشقة البحث عن شقة

تجمعكما، وصيتي إليك سعاد وجمعية البيان الثقافية، لقد أفنيت سنين عمري من أجل أن ألمّ شمل الكتاب والمثقفين، وأخذت على عاتقي طبع أعمال الشباب الذين يتيهون في أروقة المطابع الخاصة بحثا عن يد حانية تأخذ أعمالهم وتخرجها إلى النور، كنت أحس معاناتهم.. الطبعات لم تكن أنيقة لكني حاولت أن أجعلها في شكل مقبول ولائق يعرّف بالوجوه الأدبية الشابة في بلدي.

وخزني الألم.. أحسست أن الرجل يكتب وصيته الأخيرة ويعلنها أمامي لأكون الشاهد الوحيد عليها، وعلى رأس الوصية ابنته..

كنت سأقول له أن سعاد قطعة مني بل هي بعض دمي كما هي بعض دمك، فالحب أيضا له نسب يجعلنا نحس بالانتماء لمن نحب.

لكني رأيته ينتقل من الأريكة الصغيرة حيث كان يقابلني، وجلس إلى جانبي أين كنت أجلس على أريكة تتسع لاثنين، وكأنه أراد أن يطوي كل المسافات التي ما زالت في نفسي نحوه، وازداد قربا مني وهو يضع يده على كتفي ويلفني بعاطفة أب يحنو على ولده ويقول بصوت دافئ:

ـ لست أدري ما الذي جعلني أحس أنك بمنزلة أبنائي، نظرتي في الرجال لا تخيب أبدا. سيكون لك شأن كبير في عالم الصحافة، وستكون أيضا زوجا ناجحا وأنت تملك هذا القدر الكبير من الإحساس بالمسؤولية تجاه الناس، فكيف بزوجتك.

قلت له وأنا لا زلت أستأنس بيده التي تحط على كتفي كحمامة بيضاء حملت السلام إلى قلبي وعقلي:

ـ سأرتّب أموري في الأيام القليلة المقبلة، وسأحضر معي خالي وأمي لتكون الخطبة رسمية، وإلى ذلك الحين هل تسمح لي أن أزورك كلما أحسست باليتم وأني في حاجة إلى أب يربّت على مشاعري ويمسح على يتمي ليدفعني في حميمية إلى الأمام..

سحب يده من كتفي تاركا فتحة باردة وفراغا رهيبا، وقال لي:

ـ البيت بيتك، وقلبي يتسع لك في كل الأوقات..

اعتبرتها إعلانا صريحا عن أبوة لم أكن أحلم بها، في زمن أصبحت فيه العلاقات بين الآباء والأبناء يحكمها الإيواء والإطعام، ويغيب عنها الاحتواء.

لكنه باغتني بجملة اعتراضية وأنا أقف استعدادا لمغادرة مكان سيكون ملاذي في قادم الأيام:

ـ عرفت من سعاد أن أباك توفي وتركك مسؤولا عن أمك وأختك الوحيدة.

بلعت ريقي وأنا أجد أن الوقت لم يحن بعد للانهيار ولتعرية وجعي أمام أحد حتى لو كان في قيمة سعد الجزائري ومنزلته في قلبي. قلت له بصوت بدا أكثر حزنا وألما:

ـ توفي قبل الإعلان عن نتائج البكالوريا بأسبوع واحد، وهذا ما خنق فرحتي وجعلني منكسرا.

قال لي وهو يسير معي إلى الباب الخارجي:

ـ أتمنى أن تجد في أبوتي ما يخفف من هذا الانكسار.

أجبته وأنا أستعجل الخروج مخافة الانهيار رغم إحساسه الصادق الذي احتواني به منذ جلوسي إليه.. الانهيار والوقوع في أحضان من نحب له موعد، ومناسبة تأتي بغتة فلا تترك لنا مجالا لضبط النفس:

ـ إن شاء الله.

قال وهو يودّعني بقبلتين كما استقبلتي بقبلتين:

ـ كنت أتمنى أن تطول جلستنا أكثرمن هذا، لكنك استعجلت المغادرة.

ـ الحديث عن أوجاعنا كالحريق، إن لم نوقفه أتى على كثير من المساحات الخضراء ولم يترك إلا رمادا وحسرة على ما ضاع، لكني سأعود قريبا لأنك أصبحت كل أهلي.

قال وهو يشد على يدي:

ـ اعتن بنفسك يا ولدي، وتذكّر أنك أصبحت بعض دمي.

ـ إن شاء الله.

ودعته وأنا أنقل بصري بين بابي الغرفتين..

تمنيت لو أني رأيت سعاد قبل خروجي واشتهيت أكثر لو أنها قاسمتنا الجلسة ولو ظلّت صامتة.. يكفي حضورها في أي مكان أكون فيه لأحس أنّ العالم أكثر اتّزانا..

(٨)

الدخول إلى مقر الجريدة يجعلني أحس أني أدفع باب عائلتي وألج دون طرق واستئذان، ربما لأن أحلامي نمت بين دفء جدرانه كما ينمو الجنين في رحم أمه ويكبر ليكون مشدودا إليها بحبل سري وهو في بطنها، وبحبل الإنتماء وهو ينفصل عنها.

وربما لأنه شهد ميلاد أول طموح في أن يظهر اسمي في جريدة يومية، وأن يصبح لي مساحة أعالج فيها أي ملف أراه ينغص حياة بلدي ويضعها عند منعرج التخلف.. رغم العروض التي جاءتني من مختلف الجرائد ـ وكانت مغرية ـ إلا أنني ظللت على وفائي لأول جريدة منحتني فضاء واسعا احتوى أحلامي وأوجاعي، ربما وفاء للرجل الذي زرعني في هذه الجريدة وأصبحت أحد أعمدتها، وربما وفاء لسعاد التي زرعتني قي عقل وقلب أبيها فمنحني من أبوته ما سد فراغه وفراغي، وخفّف من حرقته على ولده الذي خرج ولم يعد، وحرقتي على أبي الذي خرج وعاد رأسا مفصولا داخل كيس أسود.

عندما نزعت عباءة المحامي ودخلت عالم الصحافة، كنت مدفوعا برغبة في الشهرة ومزاحمة أقلام إعلامية تتربع على عرش الصحافة المكتوبة، وأنا الآتي من قرية جبلية نكرة. كنت أؤمن أنه لا يجب أن أكون مجرد رقم يُضاف إلى عدد الصحفيين، وكنت أصرح بهذا لكل زملائي وأدعوهم للتميز، لأن ذلك يدعو إلى الإبداع كلٌ في مجاله،

ولأن الرغبة في التميز تجعلنا أكثر عطاء.

صورة عمر أرتيلان..

وهو يسقط شهيد السلطة الرابعة كانت تتمثل لي وأنا أحرّر عمود الصباح، أراه يبتسم لي ويمسح على اضطرابي قائلا: «الصحافة ميدان آخر، أقلّ ما نفقد فيه حياتنا، وأكثر ما نكسبه كلمة حق نقولها فتكون تأبينا لنا حين نُوارى التراب» فأنكبُّ على كتابة المقال وأنا أشعر أني أمسك الشمس بيميني والقمر بيساري، وأني أجعل النجوم موطئ قدمي. كنت أشعر بشموخ لوجودي في عالم الصحافة، خاصة وأن الكثير يحسدونني على عملي في جريدة مرموقة تغطي شعبيتها على كثير من الصحف الوطنية..

صورة عمر أورتيلان..

وهو يحمل محفظة حمراء اللون.. بهيئته، بملامحه التي عرفه بها زملاؤه والتي لم تتغير حتى آخر لحظة في حياته.. نحيف الجسم، كثيف الشعر، مدمن على التدخين حيث تقيم السيجارة بين شفتيه وكأنه يريد أن يدفع حرائق الوطن ولو بدخان سيجارة تنتهي بين أصبعين دون أن ينتبه لها. ومن غريب الصدف أنه اغتيل وهو متوجه إلى كشك التبغ المحاذي لدار الصحافة.. بين الصحافة والسيجارة مسافة لاتتسع إلا للموت، وبين السيجارة والسيجارة مسافة قد تتسع للحياة ولو في شكلها الخرافي.

صورة عمر أورتيلان..

وهو يحس أن الصحافة أقرب وأحب إليه من أي شيء آخر.. حتى من عروسه ومن ليلة لا يمكن أن يسهى عنها عريس، حيث دفعه زملاؤه إلى أخذ حمام وتغيير ملابسه ليدخل على امرأة ستكون بحجم وطن يتسلل من شقوق الفتنة ويهوي ليستقر في قلب من جمر..

صورة عمر أورتيلان..

وهو ينكبّ على كتابة آخر عمود.. المقال عنده لم يكن يتجاوز نصف ساعة، لكنه يتغلغل في عمق الوطن سنين وسنين.. عموده كان يوقعه باسم «بوجمعة» وهو أحد العاملين في الجريدة، وكأنه أراد أن يقول للجميع أنّ رأيه كصحفي لا يختلف عن رأي عامل بسيط في الجريدة، ولا حتى عن رأي عاملة النظافة. فعندما يكون الوطن على شفا حفرة من الهلاك لا نفرق بين الأيدي التي تمتد لإنقاذه: يد فلاح، يد عامل، يد صحفي أو يد مجرم خارج لتوّه من سجنه..

آخر كلمة في عموده في جريدة المساء اليومية «أيها السلم تجلّ» ولم يتجل السلم، بل تجلى جلاده واغتاله صبيحة اليوم الموالي، فالسلم لا يتجلى إلا على جثث المخلصين والجريئين.. السلم لا يوقع شهادة ميلاده إلا على جثة رجل في قامة عمر أورتيلان..

كل هذه الصور كانت تسبقني إلى الجريدة، وتزاحمني المكان الذي أجلس فيه والأفكار التي تراودني، والرؤى التي أترجمها في عمود كل صباح.

دخولي إلى مقر الجريدة كان يشعرني بأني أدخل مملكة لا تتسع إلاّ لي، لكن بعد أربعة أعوام اكتشفت أن القلم لم يعد قمرا ولا الورقة أصبحت شمسا، وأني تورطت في أخبار الموت والانتحار والاغتصاب والمخدرات وزنا المحارم والاختطاف..

بكيت مرة حدّ الوجع وأنا أقف على خبر مفاده أن شابا قتل أمه تحت تأثيرا المخدر لأنها رفضت أن تمنحه نقودا، وعندما فاجأه والده وهو يهوي على رأس أمه بمطرقة، اضطرب. ولكي يمنع صراخه كتم أنفاسه وخنقه وهو شيخ تجاوز السبعين من عمره.. حينها أدركت أن أقدس علاقة أسرية تنهار بشكل رهيب وأننا سنشهد شرخا في علاقاتنا ببعضنا البعض..

وشعرت بالتقزز حد الغثيان ومراسلنا من إحدى ولايات الشرق يرسل خبرا مفاده أن أبا اغتصب ابنته القاصر، وظلّ يصرّ على الفاحشة ثلاث سنوات متتالية دون أن تتفطن أمها للأمر إلا بعد أن ظهرت عليها أعراض الحمل، فاقتيد الأب إلى السجن وقتلت الفضيحة أمها وظلت البنت في بيتها تنتظر ساعة المخاض لتنجب ابنها.. عفوا أخاها الذي زرعه أبوها في أحشائها. ما ذنب هذا الطفل أن يخرج إلى العالم مشوه المشاعر ومفجوعا في انتمائه ونسبه؟ ما ذنب هذه الطفلة التي تجاوزت العقد الأول بقليل لتدخل ورطة أخلاقية بهذا الحجم؟ ما ذنبها وهي تصبح شجرة عارية بعد أن قتلت الصدمة أمها ودخل أبوها السجن؟

أذكر حين قرأت الخبر أني أسرعت إلى المرحاض الموجود في مقر الجريدة، وتقيأت كل الأكل الذي في جوفي، ما أكلته ليلا وما تناولته صباحا، ومع ذلك ظلت الرغبة في القيء مستمرة، ورأيت أنه يخرج من فمي ماء أبيض لزجا يدل على أنه لم يبق في جوفي ما أردّه غير أمعائي.. لم أتصور ذلك المنظر الذي كان يجامع فيه الأب ابنته. لم أتصور كيف تعرّى أمامها من ثيابه ومن أبوته، وكيف جردها من ثيابها ومن براءة في عينيها وهي تتعلق برقبته كلما عاد من عمله مساء، وتنادي «بابا».

وخرجت من المرحاض تجر رجلاي جسدا متهالكا، وصادف أن كانت سعاد تمرّ في الرواق شبه المظلم لتدخل إلى رئيس التحرير بأوراق في يدها عندما رأتني أقترب من مكتبي بخطى متثاقلة.. أسرعت إليّ وهلع في عينيها:

ـ ما بك يوسف، هل أنت مريض؟

ابتسمت رغم المرارة التي مازالت في حلقي. فعندما ننظر في وجه من نحب لا نملك إلا أن نبتسم، حتى ولو كانت تلك الابتسامة هي آخر ما نودع به الدنيا. قلت لها وأنا أسند ظهري إلى الحائط الذي يفصل مكتبي عن الرواق:

ـ يبدو أن الطعام الذي أكلته ليلا لم تهضمه معدتي.

قالت والهلع لا زال مستقرا في عينيها:

ـ سأخبر رئيس التحرير ليأخذك إلى الطبيب بسيارته، إنك لا تقوى حتى على حمل جسدك.

قلت لها وأنا لا زلت أحافظ على ابتسامتي لتحافظ هي على تماسكها:

ـ القيء يجعلنا أكثر راحة.

لم أشأ أن أطلعها على الأمر المقزز الذي جعلني أردّ ما في جوفي، فنحن ومن نحبّ لا نجتمع على عار أو عيب، ونتجنب أن يطّلع الحبيب على فضيحة أخلاقية سبق وأن اطّلعنا عليها، حتى لا نخدش حياءنا وحياءهم.

• • •

هذا الصباح..

بداية العشر الأواخر من شهر مارس..

رذاذ المطر يغازل الربيع الذي يقبل على استحياء هذه السنة.. لست أدري ما الذي جعلني أتخلف عن العمل.. عندي رغبة ملحة في التسكع...

عندما خرجتُ من غرفتي بفندق «السعادة» كانت وجهتي إلى الجريدة، لكني غيّرت مساري عن غير وعي مني، ووجدت نفسي أمارس التسكع بفوضى لم أعهدها في حياتي...

وجه أمي زحف إلى اضطرابي الذي يتناسل في قوة غريبة...

دخلت إلى أول مربع هاتفي صادفني في طريقي وأنا أتذكر أن خالي سليم نجح في ربط البيت العائلي بالهاتف، وأرسل لي رقم الهاتف مع سائق سيارة أجرة يأتي باستمرار إلى العاصمة.

كان صوتها دافئا- كما عهدته.. رغم مسحة الحزن التي كانت تعلوه، إلا أنها لملمت وجعها واختصرت شوقها في جملة واحدة «كم اشتقت إليك يا ولدي» ثم أضافت بصوت منكسر «يوسف، متى ترجع يا ولدي، البيت في غيابك مظلم» واختصرت لها ضياعي في جملة مبتورة «الظروف صعبة يا أمي والعمل كثير، لكنك دائما في قلبي»..

قالت وفي صوتها حشرجة بكاء تجتهد في إخفائه «البيت فارغ وبارد في غيابك يا ولدي، والوحدة تقتلني».

آه.. يا لهذا الجرم الذي ارتكبته في حق أمي، إنه أكبر من جرم قابيل وأكبر من جرم وطن فصل رأس أبي عن جسده، لأني فصلت أمي عن الحياة وجعلتها تعيش في محراب صمتها وحيدة، وحزينة..

من أين أستمدّ كل هذه القسوة التي جعلتني أتخلى عن أمي وأسلمها إلى وحدة عجّلت بهرمها؟

لماذا أصرّ على كل هذا الغياب عن البيت رغم حبي الكبير لأمي التي منحتني قبسا من روحها الطيبة التي تألف وتؤلف؟

لماذا أعاقب أمي وقريتي الجبلية بالغياب ـ على ذنب ذبحهم قبل أن يذبحني، وغيّر في خرائط أفراحهم قبل أن يعبث بخريطة حياتي التي أصبحت مزدحمة بالألم والقسوة ومحاولة الهروب إلى الأمام، لأن في الخلف شبحا مرعبا أخاف ـ إن استدرت ـ أن يلتهمني؟

كنتُ أحب أن ألقي بوجعي كله بين دفء صوت أمي، لكن هذه الأسلاك لا تحمل غير برودة قاتلة. وكنت ـ أيضا ـ أنوي أن أخبرها بما عزمت عليه من خطبة سعاد، وأن نتّفق على يوم قريب لتحضر هي وخالي سليم، وبأنها لن تكون بعد ذلك وحدها وستعيش معي في العاصمة. لكن منعني الخجل من عدم زيارتي لها إلا في الأعياد، وأحيانا أعتذر لوجودي في مهمة صحفية. ولهذا قررت أن أرجئ الحديث في هذا الوضوع الهام إلى حين ألقاها في زيارة قريبة أرتّب لها. واكتفيت بأن قلت لها وأنا أختم المكالمة المختصرة: «سأعود قريبا يا أمي، ربما الأسبوع المقبل أو الذي يليه. بلّغي سلامي لمريم وخالي سليم».

وأنا أخرج من المربع الهاتفي قابلتني صورة أبي بعينيه الزرقاوين الصافيتين المليئتين بالغضب، وتخيلته يصفعني مزمجرا: «لم تكن رجلا... وضيـّعت عائلتك».

أبي...

أيها الطالع من ذاكرة الغضب... أيها المطلّ من سنابل لم تعد سخية..

أبي... أيها المنحني أمام لون الأرض التي ظلت تسكننا ولم نعد نسكنها... أرض تخوننا باستمرار ولا نملك إلا أن نسكب من حرارة دمنا وفاء لعيون لا ترانا، بل تتطلـّع إلى سوانا...

أبي... ظلت صورته المتعالية الغاضبة ترافقني في تسكعي، وظللت أتحسس موضع الصفعة على خدي من حين لآخروأنا أعبر من شارع إلى شارع، ومن مقهى إلى مقهى...

المقاهي في العاصمة تنتشر بشكل يشبه الضباب.. كلها تعج بالناس من مختلف الأعمار.. الزمن هنا لا قيمة له، بل لا وزن ولا طعم للساعات وهي تشطر الأحلام ذهابا و أيابا... الإنسان هنا يجتهد في قتل الوقت بفنجان قهوة أو شاي، أو أي سائل يذيب مرارة البطالة التي أكلت نصف عمره وهو يزحف نحو النصف الثاني المفتوح على الكهولة وعالم مجهول يسيّجه الإحساس بأنّ الفرج قريب، فيحتسيه مع فنجان قهوة.. ما لون هذا الفرج الذي يأتي بعد الأربعين، ويتسلق العمر وهو يسحب نفسه نحو الكهولة؟

أحسست أن رجلي غير قادرتين على حمل كل هذا التمزق الذي يثقُل يوما بعد آخر، فعرّجت على مقهى لأهوي بجسدي على أول كرسي أجده شاغرا..

رفعت رأسي إلى أعلى المدخل، فوجدت «مقهي البهجة». ابتسمت في سري وأنا أهمس لنفسي: «جميل أن تخرج من السعادة وتحضنك البهجة،

فلا يعرف الحزن لقلبك سبيلا.. قضيت ليلتي في فندق السعادة، وأبدأ يومي في مقهى البهجة».

لم تكن بيني وبين المقاهي علاقة حميمة، فأنا لا أرتادها إلا بإلحاح من أحد زملائي في الجريدة، ولهذا شعرت بالبرودة وأنا ألج المقهي رغم صخب المكان وأنفاس الناس وعبق بقايا القهوة على الطاولات المستطيلة، ودخان السجائر الذي يشكل سحابة كبيرة تكاد تحجب الرؤيا، وهمس الأصدقاء لبعضهم البعض بما يحملون من همّ.. كل هذا يجعلك تشعر بدفء غريب وأنت تدخل أي مقهى كبير وسط مدينة عامرة بخيبات الناس.

يحيّرني هذا الصخب الذي يكون في المقاهي، فالرفيق لا يسمع رفيقه إلا بصعوبة شديدة تجعله أحيانا يعيد الكلام مرتين أو يقترب من أذنه ويرفع صوته لتصل كلماته. فنحن نتحدث في وقت واحد دون أن نفكر «مَن منا يسمع الاخر» وأهمّ ما يميزنا أننا نحسن الحديث ولا نحسن الاستماع، وهذا سبب رئيسي لتخلف استقرارنا العاطفي والاجتماعي.

فالزوجة لا تجلس هادئة لتسمع هموم زوجها وما يؤرقه في عمله وفي علاقاته بالناس والتي تجعله يعود إلى البيت باحثا عن حضن دافئ وقلب يصغي لأوجاعه، بل تثور في وجهه إذا نسي طلبا من طلبات البيت وكأن العالم سيتوقف عند هذا الطلب.

والزوج لا يعرف كيف يهادن زوجته ويمسك بيديها حين غضبها ليجلس إلى جانبها ويسمع ما تريد أن تقوله، بل يقابل غضبها بغضب أكبر، وصراخها بصفعة توقعها أرضا، وتنسيها أنّ لها شريكا يقاسمها همّها.

والأب يدخل البيت تسبقه عصا الصمت التي يهش بها على أولاده فيهربون بمشاكلهم الخاصة إلى الشارع ليجدوا في استقبالهم رفقاء السوء الذين يزيّنون لهم الفواحش..

هذا الصخب الذي كنت شاهدا عليه هذا الصباح جعلني أتذكر النكتة التي قالها الشاعر السوداني جيلي عبد الرحمن ليعبّر عن صعوبة تعامله مع اللهجة الجزائرية عند تواجده في الجزائر: «عندما خلق الله سبحانه وتعالى الكون وقفت أمامه الشعوب والأمم. فبدأ يقسّم اللغات التي ينطقون بها، فقال للانجليز تحدثوا اللغة الإنجليزية، وقال للروس تحدثوا الروسية، وعندما جاء دور الجزائريين قال لهم، أما أنتم فتحدثوا اللغة التي تحلو لكم، ومنذ ذلك الحين والجزائريون يتحدثون لغة لا يفهمها سواهم».. صحيح أيها الشاعر، قد نتحدث لهجات صعبة لا يفهمها غيرنا لكن لقلوبنا لغة واحدة قادرة أن تمرّر حبنا للآخر ونحضنه حين يكون في حاجة لنا.

تنفست الصعداء وأنا أجد طاولة صغيرة بكرسيين شاغرين في ركن من المقهى.. ألقيت بجسدي على الكرسي دون أن أعير اهتماما لمن يملأون المكان بلهوهم وأحاديثهم وقهقهاتهم التي تمتد إلى الشارع..

أخرجت من معطفي الجريدة التي اشتريتها من الرصيف المقابل لفندق السعادة، فأنا أحب أن أطّلع على ما يكتبه زملائي الصحفيون في مختلف الجرائد.. ابتسمت وأنا أتذكر قصيدة الشاعر نزار قباني «أخرج من معطفه الجريدة وعلبة الثقاب» والتي غنتها ماجدة الرومي بصوتها الملائكي الذي أحبه كثيرا ويرقص قلبي على نغماته..

لا شك أن الشاعر لا يقصدني.. صحيح أني استبدلت سترتي الجلدية بمعطف أسود ـ لأنّ الأمطار التي نزلت ليلا خلّفت بردا شديدا وكأنّ الربيع يريد أن يستقبلنا بأجود ما عنده ـ وأخرج منه الآن الجريدة، لكن ليس في جيبي علبة الثقاب، فأنا لا أدخن..

صفعة أبي على خدي الأيسر لا زالت ترسم معالمها في نفسي عندما سمع من عمي «الطاهر القهواجي» أنه رآني أدخن.. وسعاد ـ أيضا ـ لا يمكن أن تكون جالسة رفقة صديقاتها الجميلات في الطاولة المقابلة لي تستعذب شرودي وحيرتي، وترقب لهفي عليها في نظراتي التي تبحث عن ظل قلبها في المكان.. الحبيبة ـ في الجزائر ـ لا تدخل المقاهي، لأنها حكر على الرجال.

فتحت الجريدة.

الجرائد هذه الأيام لا حديث لها إلا الإنزال العسكري الأمريكي في العراق، وصمود صدام حسين أمام استفزاز أمريكا وحلفائها. رحت أقلب الصفحات الداخلية الواحدة تلو الأخرى أستشعر نكهة المقاومة

مكتفيا بقراءة العناوين كما يفعل أي جزائري، إذ يعبر على العناوين البارزة ولا يقف إلا على ما يهمه. استوقفني في صفحة محليات عنوان استفزني لأن أقرأ المقال كاملا «ومن الحب ما قتل».

المقال كان ينقل خبر شاب أحب فتاة حد الجنون، وتقدم لخطبتها لكن أهلها رفضوه لأنه لا يرتقي إلى مستواها الاجتماعي، ولم يكتفوا بهذا الرفض بل قطعوا أمامه كل السبل بحيث وافقوا على أن يزوّجوها لرجل غني في عمر والدها، واستسلمت هي لرغبة أهلها وبدأت تجهز نفسها للعرس، واستسلم الحبيب لرغبة الانتقام لحبه المطعون. فكَمَن ذات صباح في قبو العمارة التي تسكنها وانتظرها إلى حين خروجها فطعنها بخنجر، ثم طعن نفسه ليسقط صريعا إلى جانبها وعيناه شاخصتان في وجهها الذي أغراه بالموت.

هذا الشاب أظهر لفتاته جنون حبه الذي أوصلهما إلى هذه النهاية التراجيدية، لكنه من المؤكد أنه لم يقل لها يوما «أحبك» إلا أنهم وجدوا الكلمة ـ بعد التحقيق ـ منقوشة على المقبض الخشبي للسكين الذي طعن به حبيبته ونفسه.

ورحت أعبر على الأخبار المحلية حتى لا أصطدم بمزيد من الأوجاع، ووصلت إلى صفحة الرأي الحر ليستفزني عنوان آخر ويجبرني على قراءته «ليلة سقوط بغداد» المقال كان لكاتب حر يتوقع سقوطا قريبا لبغداد، مقدما إرهاصات وأسبابا لهذا التوقع خاصة وأن الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال سيسهّلون على الأمريكان الأمر، كما أن

تفجيرات ١١ ديسمبر لا تمر هكذا دون أن تصفع أمريكا دولة عربية محورية حتى تستعيد بعض الكرامة..

أخرجت قلما من جيب داخلي في معطفي، وشطّبت على المقال من أعلاه إلى أسفله كثورة على الكاتب الذي أفسد عليّ نكهة المقاومة التي أستشعرها في خطابات صدام وفي صواريخ الصمود.

كنت في حاجة إلى فنجان قهوة أعيد به ترتيب ما بعثره هذا المقال والذي قبله، رفعت رأسي لأطلب النادل، فرأيته..

ـ مصطفى..

صرخت دهشة وصلت إلى أسماع القريبين مني في المقهى.

وردّ هو بدهشة أوسع:

ـ يوسف..

وقفت من مكاني في حركة نصف دائرية واحتضنته بحرارة صادقة.. أحسست أني أحضن عمري الذي خلفته ورائي. أبعدته برفق عن كتفي الذي ألقى عليه همّه وأنا أقول بفرح طفولي:

ـ كيف أنت يا صاحبي.. أجلس.. أجلس.

وجلسنا، خيبته في مقابلة خيبتي.

ـ صدفة عجيبة، ما كنت أتوقع أن ألقاك هنا.

ـ أما أنا فكنت أتوقع حضورك من حين لآخر، فالكتاب والصحفيون مولعون بالجلوس في المقاهي لأنها مفرغة عمومية لهموم الناس.

ابتسمت لعبارة المفرغة العمومية وأنا أتذكر المفرغة العمومية التي أنشاتها الولاية في القرية، والتي أورثت الأطفال أمراضا خطيرة أودت بحياة بعضهم، وجعلت البعض الآخر يعيش معاناة مع مرض الربو.

ـ ما شاء الله، اسمك أصبح ومضة في عالم الصحافة، وأنا أقرأ كل ما تكتبه.

قال مصطفى وهو يشدّ على يدي التي لا زالت بين يديه، وبإعجاب صادق.

ـ وأنت، ما الذي جاء بك إلى هنا، كنت أتوقع أن أراك بالبدلة الزرقاء التي طالما حلمت بها، كنت أحسب أني سأجدك في إحدى نقاط التقاطع في ولاية من الولايات تنظم حركة المرور بقفازات بيضاء خشنة وصفارة تحدّث بها السيارات فتأمر بعضها بالمرور وتوقف البعض الآخر.

ردّ وهو يرسل زفرة طويلة:

ـ كما ترى يا صاحبي، استبدلت البدلة الزرقاء بهذا المئزر الأبيض في مقهى البهجة.. أثناء الفحص الطبي كنا كثر، وكان الطبيب يجلس

وراء مكتبه ينظر إلينا الواحد بعد الآخر. وعندما وصل نظره إليّ حدّق طويلا في وجهي.. أحسست أنه يعرف الكوخ المتآكل الذي جئت منه، يعرف يُتمي الذي حرمني من الدخول إلى الجامعة، ويعرف أمي التي تنتقل بين بيوت القرية تنظف وتغسل وتطبخ لأجل أن يشبع الاخرون ونحصل أنا وإخوتي على ما يسدّ الرمق، ويبعد عنا شبح الموت جوعا.

كان يمر على جسدي بنظرته التي أربكتني وجعلتني أحس أنه يعرف أن السروال الأسود المكوي بعناية، والقميص الأبيض الذي أحكمت غلق أزراره إنما هما من بقايا أغراضك التي تركتها في خزانتك ولم ترجع إليها منذ أن التحقت بالجامعة.. وكتب الطبيب بصمته على جسدي «مرفوض».

وجئت إلى العاصمة بحثا عن العمل واستقر بي الحال هنا.. صاحب المقهى رجل طيب آواني هنا في غرفة صغيرة ملحقة بالمحل من الجانب الخلفي ويعاملني كولده. وما يعطيني من أجر أعود به إلى أمي عند نهاية كل شهر لكي أعفيها من مشقة العمل في البيوت، فقد كبرت ولم تعد تقوى على ذلك وسأعمل كل ما في وسعي لأجعلها ترتاح ما بقي من عمرها.

أحسست أنه يعيّرني بوفائه لأمه وتجاهلي لأمي كل هذه السنين، بلعت ريقي بصعوبة وقلت له وأنا أهرب من جملته الأخيرة:

ـ كنت صاحبي وأخي وقريبا جدا من نفسي، ولم أكن أحس أنك تختلف عني في شيء.

لكن مصطفى أعادني إلى جحودي وهو يقول مستغربا:

ـ انتظرنا ـ جميعا ـ أن نراك في عرس أختك مريم، لكن تعجبنا لعدم حضورك.

قلت وأنا أمسح على جبيني بيدي اليمنى خجلا من قلة وفائي لعائلتي ومن غيابي عن عرس أختي.

ـ كنت مكلفا بتحقيق صحفي حول السياحة في الجنوب الجزائري وهوس الأجانب بزيارة تمنراست.. آه، ياصاحبي لو كنت معي لترى تلك اللحظات العجيبة لأجمل غروب في العالم، حيث كانت الشمس تتهيأ للنوم بين أحضان أسكرام العجيب الذي ألبسته الطبيعة تاجا رائعا يلهم الفنانين والشعراء، فقد شكّلت عند نصف قرص الشمس أعظم لوحة فنية جثا أمام سحرها السياح من كل مكان في العالم.

وعندما لاحظت اهتمامه بالموضوع واصلت حديثي:

ـ الرحلة من مدينة تمنراست إلى جبل أسكرام استغرقت حوالي ثلاث ساعات استمتعت خلالها بمشاهد طبيعية مدهشة من بينها أشكال جبلية تشبه الإبهام والأسد والفيل والسمكة و.. لكن المكان غير مناسب لأحدثك عن هذه الآثار التي تعود إلى قرون خلت.

ردّ مصطفى وهو يبتسم، وكأنه يذكرني مرة أخرى بأني انسلخت عن عائلتي وقريتي:

ـ سنتفق على يوم نعود فيه معا إلى القرية، ونجلس في ذلك المقهى الذي جمعنا أيام الدراسة، إنه أكثر هدوء من المقاهي في العاصمة.. كم أحن إلى تلك الأيام.

أجبته بسرعة كأني أريد أن أقطع عليه حبل التمني:

ـ إن شاء الله.. إن شاء الله.

ووقفت كأني أريد أن أكمل هروبي من الحقيقة التي واجهني بها مصطفى:

ـ المهم أني عرفت مكان عملك، وسأراك من حين لآخر.

قال وهو يحاول أن يعيدني إلى الكرسي برفق:

ـ لم تشرب قهوتك.

قلت وأنا أشدّ على يده وأهم بالانصراف:

ـ تأخرت كثيرا على موعد دخولي إلى الجريدة، سأعود في أقرب وقت.

وخرجت مخلفا ورائي اضطرابي وكثيرا من الرجال يمارسون طقوس النسيان والإهمال.

قطع من البشر تجلس في المقاهي، وأخرى تهرول في الشوارع بلا هدف ولا اتجاه وكأنهم احترفوا المشي لقطع مسافات عمر لا يعرف

أحدهم كيف يعيشه.. وكتل أخرى احتلت الرصيف.. وعلى مسافات متقاربة، نساء ورجال وأطفال أحترفوا التسول. فهذه امرأة تسند إليها صبيا وتستجدي المارة ولسانها لا يتوقف عن الدعاء، وذاك رجل يزحف وهو يمد يده يطلب صدقه، وتلك شابة بأثواب رثة وصحة غائرة ومسحة جمال تقاوم المرارة وهي تنظر في وجوه المارة لعل أحدا يرأف لحالها...

عندما تحركت يدي داخل جيب معطفي أفتش عن نقود أسكت بها هذه الخيبة الطالعة من وجوه المتسولين، نقرت في أذني نصيحة سعاد: «لو بقي قلبك بهذه الرقة ستنفق مرتبك الشهري في يوم واحد، ولن تجد من يسعفك بدينار.. هنا يجب أن تتعود على كل شيء، حتى على الخيبة الطالعة من وجوه الناس، بل يجب أن تراها صورة عادية من صور الحياة ولا تحتاج منك كل هذه الرأفة».

هذه الصور أراها كل يوم وأنا أقطع المسافة بين الفندق والجريدة، لكني أحس اليوم وكأني أراها لأول مرة.. بدا لي الشارع في حالة ثورة وهيجان وكأنه غاضب من هذه الوجوه التي تعبره وتنثر خيباتها على رصيف بارد.

لأول مرة أفقد الرغبة في العمل، وفي رائحة الورق التي تفضح قلة حيلتنا أمام مشاكل تتفاقم، ولهذا غيّرت الطريق المؤدي إلى مقر الجريدة وواصلت تسكعي في الشوارع.

وعندما أحسست بالتعب رجعت إلى الفندق لأندسّ في فراش بارد

وأفكّر في وسيلة أكفّر بها عن عقوقي لأمي.. بعد زواجي من سعاد سأسكن معها في بيت أبيها لأنه وهبه لنا، وسأحضر أمي لتعيش معي وأعوّضها عن كل أيام الوحدة التي عجّلت بهرمها. لكن هل سترضى أمي أن تعيش مع رجل غريب في بيت واحد مهما كانت طيبته وعفته؟ هل يمكن لغريبين أن يعيشا تحت سقف بيت واحد حتى ولو كانت أمي بعفتها، وسعد الجزائري بشهامته وكبريائه؟

ونمتُ على جوع وقلق مما سيأتي.

• • •

والتحقت بالجريدة في اليوم الموالي...

- أين كنت؟

عندما تباغتك امرأة بسؤال «أين كنت؟» تشعر أنك في ورطة لا تعرف كيف تخرج نفسك منها...

سؤال سعاد كان مربكا.. أحسست وكأنها أمسكتني متورطا في مشروع خيانة...

لم تمهلني حتى ألملم بعض الكلمات لأرتّب منها جوابا أردّ به على لهفتها التي صفعتني بها عند مدخل مكتبي، بل استطردت وهي تعبث بارتباكي الفاضح:

ـ غيابك أمس جعلنا نشعر بالقلق. لم تفعلها من قبل.

أجبتها وأنا أستلذّ لهفتها عليّ:

ـ كنت متعبا، بل كنت غير راغب في رؤية أحد.

ـ حتى أنا؟

قالتها بفزع مَن أحسّ أنّ أمنه قد تزعزع.

أجبتها وأنا أحضن فزعها بنظرة دافئة:

ـ أنت لست أحدا من الناس.. أنت أنا بل قد أرغب عن نفسي وأرغب في الجلوس إليك والنظر في وجهك الذي يجاور قلبي. كل الناس أراها غائبة الملامح لا روح ولا حياة فيها، ووحدك من أرى فيها الحياة والأمل.

توردت وجنتاها خجلا من هذا البوح السخي والذي لم تكن مهيأة له هذا الصباح، ثم قالت وقد هدأ فزعها:

- رئيس التحرير يطلبك، وقد سأل عنك مرات عديدة..

استرخى خوفي، وتنفّس ارتباكي الصعداء وأنا أكتشف أن قلقها مصدره سؤال رئيس التحرير عني وليس الخوف من مشروع خيانة.

يا لحماقتي، كيف غاب عني أنّ قلب المرأة يشم رائحة الخيانة على بعد سنوات... سعاد متأكدة أن قلبي تملأه الصحافة، و لم تبق فيه

غير مساحة مهرّبة كانت وستبقى هي سيدتها... ولو حدثت خيانة لوصلت إليها بحدسها قبل أن تستقر عندي..

لكن سعاد، هذه الوردة البهية الجميلة التي طلعت في صحراء العمر تدرك جيدا أن ريح الغدر لا تنبت في مساحتي، وأني لن أتورّط في غير حبها...

هي تعرف أماكن تواجدي، فأنا لا أغادر الجريدة إلا إلى دفء عينيها، ولا أخرج من مكتبي إلا لأدخل إلى حجرات قلبها الآمنة، ولا أنسحب من فوضى هذه الملفات والقضايا التي تنتشر على مكتبي إلا وأتسلل- كطفل صغير- إلى مخدع آمن أحسه بين ظل إبتسامتها التي لا تفارقني حتى وأنا ألوك وحدتي بين جدران متآكلة داخل فندق تخنقك الرطوبة بمجرد أن تدخله.

صافحت تورّدها وخجلها بابتسامة هادئة، وقلت لها:

ـ انتظريني سأعود إليك.. هناك أمر هام أريد أن أطلعك عليه.

أسرعت إلى رئيس التحرير بلهفة المشتاق إلى انتصار آخر، أو إلى تورّط في ألم قضية أخرى، فهو لا يطلبني إلى مكتبه إلاّ لأمر هام...

دخلت مكتبه... استقبلني بابتسامة عريضة تدل على رضاه عني وحبه لي. لم يسألني عن سبب غيابي أمس، وهو الذي يصرّ ـ دائماً ـ على أن الوقت هو الإنسان.. لا شك أن الأمر الذي سيحدثني عنه أعظم من أي تأخر أو غياب..

راح يتطلّع إلى وجهي وكأنه يرى ملامحي لأول مرة، ثم بادرني وهو يشير لي بالجلوس.

- لقد برهنتَ على كفاءتك وجرأتك الصحفية في فترة وجيزة.. الصحفي الناجح هو الذي يتبنّى كل قضية وكأنها قضيته، ويدفع حياته من أجلها وكأنها باتت جزءا منه.

أحسست أنه يمهّد لأمر يتردد في الإفصاح عنه، ومع ذلك لم أشأ أن أردّ على ثنائه حتى بكلمة شكر.. تركته يسترسل في كلامه وكأنه يحدّث نفسه...

- كنت أحلم- دائما- أن أكون على خط النار في أي مكان في العالم يشهد حربا.. عندي رغبة قوية في رصد أحاسيس الظالم والمظلوم لحظة تصطدم فيها قوة الموت بضعف الحياة.. أحب أن أجسّد دور الصحفي الذي يقف على ممرّ الموت من أجل أن يسجل هذا الإنحدار الحضاري، فكلما تطور الإنسان أصبح أكثر استعدادا لأن يمتلك الآخرويسطو على حقوقه. وشعرت بالإحباط لأني لم أحقق رغبتي، لكن إسقاط رغباتنا على الآخرين يمنحنا بعض الراحة ويعيد إلينا حماسنا الذي بدأ يخبو مع تقدم العمر..

ثم ظهرت على وجهه علامات الرضا مثل أب يسعد وهو يعيد صورة تألقه في وجه ولده، واستطرد:

- أريدك أن تكون أنا.. أو أكون أنت.. لا فرق.. أريد أن أمنحك فرصة تقف فيها على خط النار لترصد هذا الانفلات الحضاري.

أجبته بسرعة:

- سأكون مستعدا لأية تغطية إعلامية، وفي أي مكان...

- حتي ولو كانت في العراق؟

سألني وهو ينظر إلى وجهي ليرى وقع المفاجأة على ملامحي.. أخرستني الدهشة وغلبني الصمت، فتاه مني الكلام...

المفاجأة كانت أكبر من تصوري، والإحاطة بها فوق طاقتي.. كانت صور الموت وحدها ترقص أمامي...

أحسّ رئيس التحرير بالإضطراب الذي يتفاعل في داخلي، فقال لي وكأنه يحاول أن يساعدني كي أجد لنفسي مخرجا...

- أدرك أنّ المهمة صعبة خاصة وأنا أعرف علاقتك بسعاد ونيتك في الارتبط بها في المستقبل القريب. لك أن تختار بين الرفض أو القبول، بين أن تكمل نصف دينك وتستقر أو تكمل نصف حلمك وتخوض هذه المغامرة التي ستجعل منك نجما في عالم الصحافة، وقد تعود بعطب في الروح أو في الجسد.

ثم استطرد وقد عادت ابتسامته على استحياء:

- إن اعتذرت لن يتغير رأيي في قدرتك وعبقريتك الصحفية.

غلبتني الحماسة وسيطر عليّ مارد البطولة، فلم أترك لنفسي وقتا للتفكير، وأغلقت كل النوافذ التي يمكن أن تفلت منها لحظة ضعف تتسرب إلى إرادتي، وأعلنت له موافقتي.

ودّعني عند باب مكتبه واضعا يده على كتفي.. أحسست بها تمسح على ضياعي.. بل امتدت لتنزع عني رداء اليتم وتدثرني بحنو ودفء، ثم قال لي وعيناه تحضنان اضطرابي الذي ظهر في نظراتي:

- مازال أمامك وقت للتفكير ومراجعة قرارك.

قلت وأنا أضع يدي على يده التي ما زالت تحط على كتفي وتهدهد حيرتي:

- التفكير- أحيانا- يعطّل قرارات هامة في حياتنا، ويفسد مادة أحلامنا...

وخرجت يسوقني زهوي بقراري إلى سعاد، رأيتها واقفة بجانب مكتبي مولية ظهرها له ومركزة بصرها على الباب، تنتظر أن تعرف الخبر الهام الذي جعل رئيس التحرير يسأل عني بكل هذا الالحاح. لست أدري كيف حملت إليها الخبر الذي نزل عليها كالصاعقة...

قالت لي بكثير من الإنكسار:

– هذا المبنى سيكون مظلما عند غيابك، فوجودك الدائم يزرع فيه الحياة ودفء قلبك يملأ المكان..

أردت أن أستجدي منها مزيدا من البوح والمكاشفة علّها تكون زادي في حرب سأكون شاهداً عليها، و قلت لها:

– و قلبي سيكون مظلما وأنت بعيدة عني.. لكن عزائي أنك مقيمة فيه..

ولأول مرة في تاريخ حبنا، أقترب منها دون أن أترك مسافة أمان وأبحر في عمق عينيها بلا مجاديف لأقول لها بجرأة لم أعهدها في حديثي معها وكأني أردت ان أحصّن قلبها في غيابي:

ـ أحبك كثيرا..

هل أنا من قلتها؟ أم رجل آخر يقف خلف تاريخي وانتمائي، وأطلّ من وراء صمتي ليقولها؟

ـ أحس أنك المرأة الوحيدة التي تطغى بأنوثتها في هذا العالم، ودونك من النساء دمى متحركة لا أنوثة فيها.. أحبك سرا وجهرا.. احبك في ضعفي وقوتي وسيكون عمري مبتورا لو خرجت منه، أو ابتعدت عنك مسافة خطوة واحدة، فلا قيمة للحياة عندما نغادر من نحب أو يغادروننا، ولهذا أنت في قلبي أينما رحلت..

أحسست بحرارة تسري في جسدي، تشبه تلك التي أحسستها ذات ليلة وانا أقرأ من كتاب ألف ليلة وليلة حكاية قمر الزمان والملكة بدور..

هل تشتهيني اللحظة كما أشتهيها؟ أم أنها في حاجة إلى أن أغمض عينيّ وأذهب في نوم عميق لكي تظهر رغبتها نحوي جلية؟

أنا وسعاد في حاجة ـ الآن ـ إلى العفريت دهنش والجنية ميمونة كما في حكايا ألف ليلة وليلة من أجل أن يعبثا بنومي وصحوها، وبصحوي ونومها حتى يتسنّى لكل واحد منا أن يشتهي الآخر دون أن يخدش حياءه.....

ياه.. ما هذه الحماقة التي تغزوني اللحظة؟

اقتربت منها أكثر حيث كانت تقف ملتصقة بمكتبي، لم أستطع ان ألمس شيئا من جسدها.. قدسية المكان وقدسية الروح التي رافقتني وأمسكت بيمين خيبتي لتدخلني رحابة أمل وُلد على يديها منعاني من أن أطيع هواي. لكن إحساس كان يقرص قلبي بحدة ويهمس لي أنها المرة الأخيرة التي ستتقلص المسافة بيني وبينها بهذا الحجم، وبعدها سيفصلني عنها بحار وأنهار وفضاءات، ونار ستحرق حلمنا في اللقاء مرة أخرى وفي وصال رأيته قريبا فبات بعيدا.. بعيدا بُعد بلاد الرافدين.

قلت لها وأنا أتجنب مواجهتها والنظر في وجهها وأسحب نفسي بخفة لأقف إلى جانبها موليا ظهري لمكتبي كأني أحارب رغبتي الملحة في ضمها إلى صدري:

ـ ابتعادي عنك خروج من الجنة بقرار اختياري. لكن لو كان يؤلمك هذا القرار فسأتراجع عنه غير آسف.

قالت وهي تنظر إلى نقطة غير واضحة في فضاء الغرفة الذي يبدو حزينا جدا:

ـ الحب لا يعطّل الأحلام ولا يؤجلها بل يجعلها أكثر قوة واندفاعا.. أحس أن الأمريكان سيأخذون درسا قاسيا في العراق وسيعودون من حيث جاءوا بخيبة كبيرة، وستعود أنت إليّ بقامة طويلة أضطر لأن أنحني أمامها.

قلت وأنا أحاول هذه المرة أن أترك بين جسدينا مسافة أمان حتى تهدأ حدة الحرارة التي تصعد إلى وجهي فتفضحني:

ـ أنا الذي أجد نفسي مجبرا ـ دائما ـ على الانحناء لقلب بحجم الوطن الذي ضاق عليّ يوما.

لكنها لم ترد... اكتفت بإنكسارها الأول وغرقت في حزن أحسسته يسبقني إليها ويلفها بين ذراعيه...

كم أنت بهية في حزنك أيتها الغالية، وجليلة حتى في قمة إنكسارك.. ومع ذلك تظلين وطني الذي أنقله معي ليرافقني حتى إلى مدن الموت.

عندما تحاصرك امرأة من كل الإتجاهات وتجد نفسك- دائما- مشدودا إلى حصارها ساعتها تأكد أنها أصبحت وطنا ومن الصعب أن تغادر تربته.. وسعاد باتت وطني الذي يسندني وأتوكأ عليه، فأحسّ أنني لست ريشة في مهب الريح.

كانت على وشك أن تغادر المكتب، لكنها تراجعت واستدارت نحوي قائلة:

ـ قلت لي أنك تريدني في أمر هام.

قلت وأنا لا زلت حزينا لانكسارها الذي بدا واضحا أمامي:

ـ قرار السفر غيّر مجرى الأحداث، كنت سأتحدث معك قبل لحظات عن إجراءات الخطوبة لأني نويت ان أزور أمي نهاية هذا الأسبوع لتحضر هي وخالي للقاء أبيك، كنت أريد ان أستعجل الخطوبة وعقد القران لأني لم أعد أطيق الحياة بعيدا عنك، لكن الصدفة تغتصب مني الفرحة ـ دائما ـ..

منذ سنوات سبق موت أبي خبر نجاحي في شهادة البكالوريا فلم أقفز فرحا مثل كل طالب سمع بنجاحه، بل بكيت حزنا على أبي الذي رحل

قبل أن يسعد بهذا النجاح وهو الذي كان يعدني بأن يقيم وليمة كبيرة عندما أحقّق له حلمه وأنجح في شهادة البكالوريا.

واليوم يسبق سفري إلى العراق مشروع حياتي وحلمي في الارتباط بك وأنا الذي كنت أنوي أن أقيم لك عرسا يليق بمقامك ويتحدث عنه الناس لأعوام.

نظرت إليّ فرأيت عينين نديتين كزهرتين لامستهما خيوط الشمس فدمعتا في تألق..

لم تقل شيئا..

أحسست في حلقها غصة صنعتها دموع تحاول خنقها حتى تبدو أمامي امرأة عظيمة وهي تودّع حبيبها البطل المقبل على معركة كبيرة وفاصلة.

هل ستظل كما في الأسطورة تغزل من وجعها صبرا جميلا يعينها على انتظار حبيبها البطل؟

(٩)

جواز سفري كان جاهزا منذ أكثر من عام، عملا بنصيحة رئيس التحرير الذي قال لي يوما: «الصحفي قد يصبح على سفر ويمسي على سفر ليغطّي الأحداث المتسارعة في العالم، ولهذا عليه أن يكون جاهزا دائما، ويكون جواز سفره ضمن وثائقه الشخصية التي يحملها في الجيب الداخلي لسترته لأنه قد يسافر على عجل، ولا تكون له فرصة ليعود إلى بيته ويودع عائلته..».

ولهذا كنت جاهزا. وتمّت إجراءات السفر بسهولة وسرعة غريبة كأنها تتعجَّل النهاية... فالنهايات تسبق البدايات وتسوقها إلى مصيرها بإحساس خفي يتسلل إلينا قبل أن نبدأ...

عندما وقفت في المطار لأمارس طقوس الوداع، لم يكن معي إلا رئيس التحرير يشيعني بدمعة صامتة وأبوّة صادقة، وسعاد التي هزمتها دموعها وهي تمدّ يدها لتودعني.. تمنيت حينها لو أن عقارب الساعة تحبس أنفاسها ليظل إضطرابي ممددا على راحتها تهدهده خطوطها، وتمسح على جزعي بأناملها الرقيقة. لكن كان لابد للزمن ألا يتوقف، وكان لا بد ليدها أن تعود إليها منهزمة..

أحسست وأنا أسحب يدي أني تركت في كفها بعض دمي، وأن ملامح القلق التي بدت على وجهها اختصرت شهقة أمي وحسرة أختي..

أحسست وأنا أبتعد عنها بخطوات أنها تقترب مني بخطوات أوسع لتضمني إليها بأمومة طاغية لم أعهدها من قبل، وأنها تشدني إليها بقوة كأنها تريد أن تعطّل ـ بصمتها ودمعها ـ مشروع حلم كبُر وتجبّر.. لكن الحلم تحرّر من حضن الحبيبة ومضى شامخا..

عندما يتجبّر الحلم يصبح قضية... وعندما تعتنقُ قضية تصبح نبضا يمنحك ماء الحياة، أو يغدر بك ليهزمك ويترك بعضك جثة هامدة لا تدري أين تواريها...

وعندما يسيطر عليك حلم ما تسعى إليه، تجعل من مادته طعاما تقتات منه، وماء ترتوي من ينابيعه التي تتفجر فيك، وتكون سعيدا وأنت تقبض عليه حتى ولو رجعت منه ببقايا جسد.

كل الذين سعوا إلى حتفهم بدأوا بحلم صغير، ثم تناسل الحلم وأنجب رؤى ومعتقدات.

الإقتراب من تحقيق الحلم قد يكون أول خطوة نحو النهاية.

حلّقت الطائرة مبحرة نحو مطار لا أدري هل سيستقبلني بباقة ورد من طفلة بهية بالزي العراقي، أم برصاصة من جندي أحمق يرى كل عربي مشروع إرهابي يجب مباغتته؟

عبارة رئيس التحرير تزلزل سمعي وتغرق شراييني ودا دافئا.. «سلامة جسدك أفضل وأغلى من أي تقرير أو تغطية.»

إيه... أيها الأب الذي تسلل إلى عالمي ذات يُتم و دثرني بدفئه... لو تدري أني كنت معطوبا منذ البدء، وأن كل عربي معطوب في روحه و كبريائه وشرفه، وأي عطب يصيب جسده لن يكون أشد مما أصابه...

الطائرة كانت تقطع مسافات أخالها وهمية وهي تسير بسرعة صامتة تبدو كالساكنة الهامدة ولو لا قطع السحاب التي تتغير بسرعة لاعتقدت أنها جاثمة لا تتحرك.. ملتُ قليلا إلى الوراء وذهبت في إغفاءة قصيرة علّني أختصر بها بعض المسافات التي تفصلني عن بغداد.

وفتحت عيني مذعورا على حركة غريبة تحدث بجانبيّ.. التفت فإذا هو هارون الرشيد بلباسه الحريري الذي يتصدره قفطان بنفسجي زاه بلونه، وأكمام ضيقة محلاة بالذهب، وقلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية. هارون الرشيد الذي ملأ الدنيا وشغل الآفاق وجعل بغداد حاضرة العالم، وجاءته وفود من بلاد الهند والصين وأوربا تخطب ودّه، وتطلب صداقته فأحسن الرشيد استقبالهم. وخصّ وفد شارلمان ملك الفرنجة بهدايا قيمة يحملونها إلى ملكهم، وكانت تتكون من حيوانات نادرة منها فيل عظيم اعتبر في أوربا من الغرائب، وأقمشة فاخرة وعطور كأنه يريدهم أن يستنشقوا عطر الحضارة التي تمشي على قدمين من ذهب وتشمخ برأس قادر على أن يبدع ما يذهل العالم. كما أهدى شارلمان هدية أفزعته أول الأمر، وتتمثل في ساعة كبيرة من البرونز المطلي بالذهب مصنوعة في بغداد، وحينما تدق ساعة الظهيرة يخرج

منها اثنا عشر فارسا من اثنتي عشرة نافذة تغلق من خلفهم. وقد تملّك العجب بل الذعر شارلمان وحاشيته، وفرّ من مجلسه لأنه ظن الأمر يتعلق بأمور السحر وبجان يسكن هذه الساعة.. هارون الرشيد هذا الحكيم الذي ظل يغزو عاما ويحج عاما.. يجلس اللحظة إلى جانبي بهيا حالما وشبيها بملوك الأساطير التي تخرج من حكايا ألف ليلة وليلة وهو يخاطب غيمة كان يعتقد أنها ستمطر لكنها خذلته وعبرت دون أن تعطي غيثا، فقال لها متحديا: «أمطري أين شئت فإن خراجك سيعود إليّ» لكن الغيمة التي يخاطبها الآن هي أسفل الطائرة.

نظر إليّ وقال مبتسما: «ما بال السحاب عندكم يمر تحت أقدامكم، أنتم تنحنون لكي تروه، ونحن كنا نرفع رؤوسنا لكي نراه؟ التحدي يكون لمن هو فوق رؤوسنا وليس لمن يحبو تحت أقدامنا.. نحن نتحدى القوي الذي لا ينكسر بسهولة وليس الضعيف الذي هو قابل للانكسار من أول ما تقع عليه أعيننا.

كنت سعيدا وهارون الرشيد سيكون رفيقي ودليلي في شوارع بغداد التي لا ندري على أي وجه ستصبح.. هارون الرشيد الآتي من أيام كانت لنا، إلى أيام تسللت من بين أيدينا لتصبح مجرد قواعد عسكرية أجنبية تراقب أحلامنا وتدوس على ما تبقى من شرفنا..

ورحت أصلح من هندامي وأضبط ربطة عنقي وأنا إلى جانب هذا الزي العربي البهي والآتي من زمن الأساطير المرصعة بالذهب والياقوت. وابتسمت وأنا أتخيّل نفسي بقفطان حريري وقلنسوة. سأكون شبيها

بهارون الرشيد وسيعتقدون أني ولده ومن حقي أن أرث هيبته التي سأدخل بها بغداد..

التفتّ إلى يساري لأرى الحجاج مكشّرا عن أنيابه فهو لا يبتسم إلا مكشرا.. تفرست في وجهه فإذا هو عظيم الهيبة، حسن الفراسة وبملامح قاسية لا تشبه أحدا إلا نفسه. كان يحكّ شفتيه بأصبعه ويعبث بشعر لحيته، ثم قال لي وهو يخرج سيفه من غمده:

ـ سمعت أن العراق تعيش فتنة كبيرة تكاد تعصف بها، والفتنة لا يصلح لها إلا سيف الحجاج، فإنّ للسطان سيفا وإنّ للشيطان طيفا وأنا أجمع بين سيف السلطان وطيف الشيطان، وسأضرب رقبة كل من يريد أن يزرع الفتنة في العراق كما فعلت ذلك منذ قرون.. أثناء الفتنة لا تنفع الحكمة بل قطع الرقاب وحده يقصّر عمر الفتنة.

ثم شهر سيفه حتى كاد يلامس سقف الطائرة وكأنه في صحراء لا سقف يحدها ولاجوانب تقف أمام شيطان غضبه وقال:

ـ إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.. وإني لأرى الدم يترقرق بين العمائم واللحي..

أجبته وأنا أتحسّس عنقي التي أحسستها على حدّ سيفه:

ـ إنها أكبر من الفتنة بل هو خراب سيأتي على إرثنا الثقافي والحضاري وسيعبث بما تبقّى من شموخنا.

قال بصوت غاضب وهو لازال يقبض على سيفه:

ـ ومن ذا الذي يجرؤ على أن يمس حضارتنا التي أضاءت الكون؟

قلت وقد استرخى خوفي ليصبح حزنا:

ـ شيطان أمريكا.

سمعت له قهقهة عظيمة أعادتني إلى رعبي الأول وهو يقول متهجيا الاسم:

ـ أم. ري. كا.. ومن تكون هذه الأمريكا؟ لم نكن نسمع لها صوتا عندما كنا نهوي على إمبراطورتي الروم والفرس ونعيد ترتيب خارطة العالم لنسود الأمم ونتحكّم في بوصلة الحضارة.

ثم استطرد وهو يبتسم بخبث لايعرفه إلا هو:

ـ لاتخش شيئا، سيكون شيطان الحجاج أكبر من شيطان هذه الأمريكا.

وعدت إلى نومي مطمئنا إلى حكمة هارون الرشيد وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي.. أغمضت عيني على ابتسامة وأنا أتفطّن إلى أنّ اسمي يتقاطع مع الحجاج وليس مع الرشيد.. نمت مطمئنا إلى أنّ هارون الرشيد سيرافقني وسيحمي ذاكرتنا ويقف دون العبث بمكتبة بغداد التي عبث بها التتار من قبل، هذه المكتبة التي كان هو أول من أسسها

وازدهرت في عهد ولده المأمون الذي اشترط على ملك الروم في معاهداته وبعد انتصاراته أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية، وصارت مكتبة بغداد لا يُخيل كمّ العلم الذي بداخلها.. نمت على ثقة أن سيف الحجاج سيقطع رأس كل فتنة..

ولم أستيقظ إلا على صوت ناعم وأنامل رقيقة تلمس كتفي:

ـ انهظ يا سيدي، وصلنا بسلامة إلى بغداد.

رحت ألتفت إلى يميني ويساري وأتحسّس المكانين بيديّ.

نظرت إليّ المضيفة وقالت مبتسمة:

ـ كل الذين كانوا معك يتأهبون للنزول إلا أنت.. لقد كنت تغط في نوم عميق جعلك لا تحس بما يدور حولك.

رحت أجول ببصري بين الركاب الواقفين في رواق الطائرة أبحث عن قفطان بنفسجي ولون زاه، وعن سيف في يد رجل بملامح قاسية. وابتسمت في سري وأنا أدرك أنها كانت أضغاث أحلام وأني سأنزل بغداد من غير حكمة تقودني أوسيف يحميني..

كم يكون الإنسان طاعنا في اليتم عندما تعوزه الحكمة والقوة فيصبح طعاما شهيا على مائدة اللئام!!!

وصلنا..

لم أجد صورة الحجاج ولاصورة هارون الرشيد... بل رأيت مدينة تتمدد داخل خيبة ساكنة.. مدينة تشبه المقبرة التي يزورها الغرباء ولا يستنشقون غير رائحة الموت.

المدن تشبه الناس وتفاصيل البشر.. هناك مدينة تستقبلك في المطار كما يستقبل الكريم ضيفه ويهلّل له وهو مازال في الساحة الخارجية لداره، ويحضنه ليشم في صدره رائحة الأخ الذي ظل مجاورا لروحه.

وهناك مدينة تلقاك عابسة متجهمة، فترغب لو أنّك تعود أدراجك مع أول طائرة تتجه إلى وطنك، كالبخيل الذي لا يفتح باب داره إلا بعد أن يجمع علامات ثرائه في غرفة سرية ويستقبل هذا الزائر مفرغا من رائحة الطعام...

بغداد كانت على غير عادتها.. أحسست كأنها الكريم الذي يريد أن يمنحك كل ما عنده لكنه يجد نفسه فارغ اليدين والقلب والصدر، فلا يزيد على أن يهديك ابتسامة فيها رائحة الموت الرحيم..

كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساء عندما وصلت إلى الفندق الذي يحضن المراسلين الصحفيين كما تحضن الأم أطفالا غرباء دفع بهم القدر إلى فوهة بركان يُنتظر أن يثور بين لحظة وأخرى...

كانت إنعام أول وجه قابلته وأنا ألج بهو الفندق، استقبلتني بإبتسامة عريضة دافئة... أحسست حرارتها تلامس مساحات خوفي وقلقي، وتطلق حمائم الآمان في فضاءات فارغة...

بادرتني بلهجة مصرية نفذت إلى قلبي واختصرت ما بيني وبينها من مسافات مع المصافحة الأولى:

ـ الحمد لله على سلامتك، أزايك يا بيه؟

أخرستني الدهشة و لم أدر كيف أرد عليها..

من الناس- ودون سابق معرفة- من يباغت قلبك بمشاعر دافئة لا تملك إلا أن تنحني أمامها، أو تسجد لصدقها لتكون أسيرا لها العمر كله..

تبعثرت حروفي وضاع مني كل الكلام الذي يُقال في موقف كهذا، فأجبتها بكثير من التحفظ و الإرتباك:

شكرا...

هل استطاعت هذه الكلمة أن تختصر لها كل الإرتباك والدهشة التي في نفسي..

شكرا..

هذه الحروف المبتورة، هل تعبّر لها عن كل الفوضى التي أحسها في داخلي وأنا أقف على هذا الوجه الأسمر الذي يرسم أمامي تاريخ بلد كنت ـ دائما ـ أحنّ إليه وأحس أنّ فيه شيئا مني.. عندما كنت أتحدث مع سعاد عن البلدان العربية ورغبتي الكبيرة في زيارتها الواحدة تلو الأخرى لأقف على نقاط التقاطع والتآلف بينها، أقول لها: «لكل بلد رائحة خاصة يستقبلك بها في المطار تجعلك تحس أنك غادرت وطنك إلى أرض أخرى إلاّ مصر، أحس أن لها رائحة تشبه رائحة تراب وطني، وفيها من تقاسيم بلدي ما يجعل الجزائري يشعر أنّه عبر من مدينة إلى أخرى، وليس من بلد إلى بلد..

شكرا..

هذه الكلمة المبتورة لا يمكن أن تفي حق من أمسك بيمين دهشتنا في أرض لانعرف فيها أحدا، ولا نشعر بالألفة مع أحد..

إنعام أول وجه صافحني وابتسم لنظراتي الحائرة في بهو الفندق الذي كان يعجّ بالناس من مختلف البلدان والأجناس، ساعتها لم أكن أعلم أني قابلت امرأة بحجم أرض أحببتها.

قالت لي وابتسامتها الهادئة تزيد من تغلغلها في قلبي:

ـ أنا إنعام من مصر، وأكاد أجزم أنك من الجزائر.

ابتسمت لذكائها وفطنتها، وقلت لها:

ـ صدق حدسك، أنا يوسف من الجزائر، جئت لأغطي الأحداث التي تشهدها العراق وما ستكون عليه في الأيام القادمة.

قالت لي وهي تنظر إلى حقيبتي الصغيرة السوداء التي تتدلى من كتفي الأيمن، ثم إلى حقيبتي الكبيرة التي أحملها بيدي اليسرى:

ـ أكملْ إجراءات الإقامة في الفندق، وبعدها أعرّفك على زملائك الذين سيكونون إلى جوارك على خط النار.

وبقيت إلى جانبي صامتة إلى أن أنهيت كل الاجراءات، وبعدها سارت بي إلى ركن في البهو حيث يجلس مجموعة من الشباب يتبادلون حديثا لم أتبين منه سوى كلمة صدام حسين التي توقفوا عندها وهم يرون إنعام. بادرتهم دون أن يسألوا وهي تنظر إليّ:

ـ هذا صديق جديد جاء ليجاورنا خط النار.

وراحت تقدمهم لي الواحد تلو الاخر:

ـ منصور مراسل جريدة عربية تصدر في لندن، ناصر صحفي يعمل في قناة فضائية إخبارية، عمار فلسطيني ومصور حر، إلهام من تونس وآخرون سيلتحقون بنا بعد لحظات وتتعرف عليهم.

قلت وأنا أحاول أن أجد كلاما أعبر من خلاله إلى قلوبهم:

ـ وأنا يوسف، صحفي من الجزائر.

صافحتهم جميعا بحرارة، ووجدت نفسي أشد على يد عمار كأنه صديق قديم افتقدته في زحمة الأيام وأعبّر له بهذه المصافحة الحارة عن شوقي له ومخافة أن يضيع مني مرة أخرى، ثم قلت لهم مازحا:

ـ الأكيد أننا سنكون أسرة واحدة، وعلينا أن نختار من ستكون له سلطة الأب ومن سيكون لها حنان الأم وسعة صدرها لحماقاتنا، ومن سيكون لها دفء الأخت الكبرى ودلال الأخت الصغرى.

ابتسموا جميعا لهذه الفكرة التي افتتحت بها علاقتي بهم وجلستي الأولى معهم.

قالت إلهام وهي تبتسم مرحبة بي:

ـ سنكون بحاجة لبعضنا البعض لأننا لا ندري ما تخبئه لنا الأيام المقبلة في بغداد، ولاندري ما سيكون عليه الأمر.

قال ناصر:

ـ أحسّ أن المقام لن يطول بنا هنا، فصدام حسين يقاوم بعناد وسيحسم الأمر لصالحه في وقت قصير.

ردّ منصور:

ـ أما أنا فلست متفائلا، لم نعد نملك تلك القدرة على المقاومة حتى النصر أو الموت.

قالت إنعام وهي تنظر إليّ:

ـ سيكون لنا متسع من الوقت لنخوض في هذا الحديث. الآن، دعوا أخانا يوسف يستريح قليلا من عناء السفر.

ووقف عمار وهو يمسك بيدي قائلا:

ـ أنا سأرافقك إلى غرفتك.

حمل عني الحقيبة الكبيرة ومشى إلى جانبي.

عندما كنا نسير في الرواق المؤدي إلى غرفتي بالطابق الأول، قلت له:

ـ كنت أتمنى أن نلتقي في مناسبة أحسن من هذه، لكن قدر العرب ألا يلتقوا إلا على خط النار ليدافعوا عن أنفسهم.. هل تصدّق، رغم أنني لا أهتم كثيرا بالرياضة ولكن تعجبني المقولة التي يرددونها ليصنعوا النصر «أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم» وأعداؤنا يشغلوننا دائما بالدفاع حتى لانفكر في الهجوم.

عندما وصلنا إلى باب الغرفة، قال لي وهو ينظر إلى عيني كأنه يقبض على حلم قديم:

ـ كنت ـ دائما ـ أتوق لأن ألتقي بجزائري وأجلس إليه.

قلت وأنا أخرج مفتاح الغرفة من جيبي:

ـ نحن ـ أيضا في الجزائر ـ نكنّ حبا استثائيا للفلسطينيين ونحس أننا مسؤولون عن تحرير كل شبر في فلسطين.

قال لي وقد بدأ الحزن يظهر على وجهه:

ـ الأمر عندي يختلف عمّا تعتقده، فأبي ـ رحمه الله ـ اشتغل في الجزائر سنوات بعد الاستقلال، كان يعمل مدرسا في ثانوية بالشرق الجزائري، وقد أحب فتاة جزائرية وتعلّق بها كثيرا.. هي أيضا تعلقت به وتمت الخطوبة، حيث رحبت به العائلة وفتحت له بيتها ووجد فيها بديلا عن أسرته التي خلفها في رام الله..

قاطعته مهللا:

ـ تعني أنّ أمك جزائرية؟

ردّ وقد بدا صوته أكثر وجعا:

ـ كان يمكن أن يكون ذلك، لكنّ القدر سار في اتجاه مغاير عندما قرّر والدي إتمام الزواج والعودة بعروسه إلى فلسطين، فأمها ثارت وقرّرت فسخ الخطوبة لأنها لا تطيق فراق ابنتها الوحيدة وهي أغلى ما يربطها بزوجها الشهيد.

ثم استطرد وهو يأخذ مني المفتاح ويشرع لي باب الغرفة ليترك مفتاحها متدليا من القفل:

ـ القصة مؤلمة جدا، لكن هذا ليس مقامها ولا وقتها، ستكون لنا جلسة أخرى وأطلعك على نهايتها، فالأيام هنا ستمضي بنا عسيرة ولن نجد ما نخفّف به عن أنفسنا سوى أن نجترّ ماضينا ونلوك أوجاعنا.

نزعت المفتاح من القفل وألقيت بحقيبتيّ الصغيرة على سرير منفرد أنيق، والتفتّ إلى عمار قائلا وأنا آخذ منه حقيبتي الكبيرة:

ـ شكرا لك صديقي سأستريح قليلا ثم أعود إليكم.

وافترقنا لنصبح على لقاء آخر، وتبعتها لقاءات كثيرة مع المراسلين والمصورين من مختلف الدول العربية.

وشيئا فشيئا بدأت أؤمن أن الموت -أيضا- يصنع ألفة كما تصنعها النزهة والاستجمام ورحلات السياحة.. بل الموت يعطي عمرا أطول للألفة، لأن كل واحد يرى نفسه مسجى في عيون الآخرين.

وبدأنا نشعر أننا أسرة واحدة... بل توحدت فصيلة دمنا لتتعانق أرواحنا...

لا أحد منا تجرأ على طرح سؤال على الآخر.. «ما الذي جاء بك إلى بلد أقيمت فيه مصانع كثيرة لتعليب الموت، وقريبا ستبدأ بالإنتاج والتصدير».

لا أحد منا حاول أن يفهم الدافع الحقيقي الذي جعل كل واحد يغادر دفء الأحبة وأحضان الأهل ليرتمي بين أنياب مصير مجهول الملامح...

احتمالات الموت كاحتمالات الضياع كالأسر.. لكن وسط هذه الإحتمالات القاتلة كان شعاع أمل يتسرّب من ثقوب خفية في داخل كل منا، فيسمح لنا أن نتبادل ابتسامة ولو كانت باهتة...

(١٠)

الساعة العاشرة صباحا بتوقيت خط التوتر إلذى يقسم بغداد إلى نصفين: نصف يؤمن بالمقاومة وبأن مدينة الرشيد ستظل شامخة وستقف في وجه كل هولاكو مهما كانت جنسيته ولونه وانتماؤه، سواء كان حفيد جنكيز خان أو كان حفيد رعاة البقر، ونصف سكنه الخوف واستوطن في جيوبه الهلع، وبات يؤمن أن القوات الأمريكية التي ترابط في الجنوب تزحف نحو العاصمة بغداد وستصل لتحقق منطق القوة الذي يحكم العالم.

المقاهي الثقافية ودور العرض القديمة في شارع الرشيد خفت صوتها.. الناس يتحدثون بحذر شديد ويهمسون لبعضهم البعض وكأنهم يخافون رقيبا يتلصص على نبضات قلوبهم ويحصي زلات ألسنتهم.. في داخلهم رغبة في التخلص من حاكم كتم أنفاسهم بحجة صيانة كرامتهم وحمايتهم من أي تدخل أجنبي وهولاكو جديد قد يقتل أكثر مما قتله هذا السفاح الذي داس على أكثر من ثماني مائة ألف رقبة ما بين طفل وامرأة وشيخ، وعلى يديه أفلت الخلافة العباسية التي دامت خمسة قرون، لكن إلى جانب هذه الرغبة في التحرر من الخوف، هناك خوف بلون آخر.. خوف من فجيعة تأتي بعد أن يتدخل أجنبي بين لحمهم وعظمهم ويصبح حارسا على نبضات أحلامهم التي ظلت خافتة.. الغموض يحجب ما سيكون عليه الحال في مدينة لا تنام.

نهارا..

كنا نجوب شوارع بغداد، نرصد حالة الترقب ونلامس صمتا رهيبا يتمدد على الطرقات الأنيقة، والأرصفة التي تقوم عليها الأسواق الشعبية التي يباع فيها كل شيء..

الحياة هاهنا تحبس أنفاسها وتصعد أدراج الغيب علّها تأتي بالخبر اليقين..

في هذا العصر، الهدهد لا ينطق ولا يأتي لنا بأخبار، لا من سبأ ولا من البيت الأبيض..

الهدهد لا يأتي بخبر بلقيس التي تسجد وقومها للشمس على أنها الأقوى في الكون، ولا بخبر بوش الذي ينحني لرغبة تدمير كل ما له علاقة بالحضارات العريقة التي تصفع انتماءه إلى عرق مبتور. الفضائيات وحدها تنعق بأخبار لا لون ولا رائحة لها، وترقص على أشلاء جثث بدأت تظهر في الأفق لتعيد تشكيل خرائط باتت مهترئة.

كنا نقطع الشوارع ونتلمّس حرارة أنفاس متقطعة، ونرقب من طرف خفي جيشا متعبا ومرهقا كمن يعيش لحظة احتضار تبلغ فيها الروح الحلقوم، ثم تعاود الرجوع إلى ما كانت عليه من قبل، فيعود الجسد إلى سابق عهده واسترخائه وكأنه يتعلق بخيط رفيع بالحياة التي يتمنى أن يعود إليها ولو كانت حزمة من خراب.

قالت إنعام التي كانت تقف بيني وبين عمار على الرصيف المقابل لجامع المرادية الذي يقف شامخا بتاريخه وبهائه على الجهة اليسرى عند مدخل شارع الرشيد، وقد شدّنا إليه بقبة نصف كروية مفلطحة ومذبّبة قليلا زُينت من الخارج بزخارف بسيطة من الكاشان وإلى جانبها ست قباب بسيطة وصغيرة ومفلطحة:

ـ آه، تمنيت لو أني زرت بغداد في وقت آخر غير هذا الوقت العصيب الذي نعيشه، وتمنيت أن أزور حارة المربعة التي يسكنها الكثير من المصريين والذين كان لهم الأثر الكبير في تطوير صناعة النحاس، وقاموا بفتح أولى محلات تقطيع الزجاج. لكن عيبنا أننا نتهافت على قضاء إجازاتنا في أوربا وأمريكا، ولا نفكر في دولة عربية إلا إذا أوشكت على نهايتها فنهرع إليها لنقيس نبضاتها الأخيرة ونكون شهودا على موتها إلسريري، كالابن العاق الذي تلهيه الدنيا عن وجه أمه ولا يدرك أهمية وجودها في حياته إلا في لحظاتها الأخيرة حيث يحس أنه أصبح مفرغا من كل شيء جميل، وأنها وحدها من كانت تسنده ولو بعجزها ووهنها.

بلعتُ ريقي بصعوبة وأنا أحس أنها تقصدني، وتقصد عقوقي الذي ظل يؤرقني وأصرّعليه، رغم أنها لا تعرف أني لم أزر أمي منذ ما يقارب عامين عندما كنت مضطرا، لأني كنت حينها في حاجة لشهادة ميلاد أصلية من بلديتي لاستخراج جواز سفر يجعلني جاهزا للحياة والموت، حتى قبل أن أسافر لم يمهلني الوقت لكي أودعها وأنظر في

وجهها، بل اكتفيت بأن أرسلت لها مع مصطفى خبر سفري ومبلغا من المال وطلبت دعواتها لي بالتوفيق. ولهذا لم أرد على إنعام التي كان صوتها ينطوي على حسرة كبيرة، بل تركتُ الأمر لعمار الذي قال وهو يجول ببصره في هذا البناء المعماري الراقي الذي لا يشبه غير وجه بغداد:

ـ لا أتصور أن كل هذا الإرث التاريخي وهذه الحضارة ستدوسهما الدبابات الأمركية وتدكّهما ليصبحا نسيا منسيا، لا أتصور أن كل هذه الفسيفساء التي أبدعتها يد الفنان العربي على مر العصور ستعصف بها طائرات الحماقة.

التفت إليّ ثم إلى إنعام، ورفع بصره مستطردا:

ـ انظرا إلى هذه البنايات، إلى هذا النمط المعماري البغدادي الذي يتميز بتناغم متناسق بين الناحية الوظيفية والناحية الجمالية، فقد راعى المعمار العراقي عند تشييد الدار الظروف المناخية وجعل النوافذ المطلة على الخارج قليلة الفتحات ومقاربة لنوافذ الجانب الآخر من الدور، كما جعل الفسحات المكشوفة متجهة لوسط الدار ليوفر جوا مظللا، وقد استخدم الخشب للحد من تقلبات درجة الحرارة داخل الدار.. منذ أن وصلت إلى بغداد وأنا أرصد كل شيء بالكاميرا، لا أكاد أمرّ بشارع إلا أخذت له صورا شتى.. للبنايات.. للأسواق الشعبية.. لكل التميز التاريخي، كأني أخشى أن تصبح أطلالا غائبة الملامح، فأجد في أرشيفي ما يشهد على هذه العبقرية في فن المعمار.

أجبت وأنا أنظر إلى حيث مدّ عمار بصره:

ـ فعلا إنها عبقرية المعمار العراقي، ولا أعتقد أنه توجد مدينة في العالم بكل هذا التألق الحضاري.

ثم استطردت وأنا لازلت أشخص ببصري في هذه البنايات العتيقة الموصدة على ترقب يسكن كل العراقيين:

ـ لماذا لا نملك من القوة ما يمكّننا من حماية هذا الإرث الحضاري الذي يعبر من عصر إلى آخر ليُشهد الآخرعلى أننا كنا ننتج الحضارة ولم نكن نستهلكها بهذا الشكل المهين الذي نحن عليه اليوم؟

ردت إنعام بسرعة وكأن الإجابة كانت على طرف لسانها:

ـ لأن الحاكم العربي ما زال ينظر إلى شعبه على أنه معتوه وسفيه ولا يستطيع أن ينسج ما يلبسه ولا أن ينتج ما يأكله، فينصّب نفسه وصيا عليه، ويعبث بأمواله هو وعائلته وحاشيته ويرمون له فتات موائدهم حتى لا يقتلهم الجوع ويجدون أنفسهم حكّاما بدون رعية يمارسون عليهم وصايتهم وسلطتهم.

قال عمار وكأنه ينكأ جرحا غائرا:

ـ فلسطين اغتصبت بمعاهدة وخيانة، فهل جاء الدور على العراق لتضيع منا بمعاهدة وخيانة أخرى.

قالت إنعام وهي تلامس جرحا نكأه عمار:

ـ الخيانات والفتن ظلت تصنع تاريخنا الأسود، هل كنا سننهزم في حرب ٦٧ لولا هذه الخيانة التي تعيش في بيوتنا وتنام على أسرتنا وتتدثر بما نتدثر به نحن، فلا نتفطّن لها إلا وهي تقلب تاريخنا. لولا الخيانة ما عشنا هذه المهانة.. لست أدري لماذا أصبحنا أكثر جاهزية للخيانة وأقلّ استعدادا للوفاء.

قال عمار وكأنه يريد أن يقطع علينا حبل الوجع الذي جاء كلّ منا يجرّه من خيبة في بلده ليلفّه حول عنقه في بلد السلام، ويشنق انتماءه الذي ورّطه في خيبة تلازمه كظله:

ـ أنا سأظل هنا إلى أن أصلي الظهر في جامع الأحمدية أو أي جامع من الجوامع التي يزخر بها شارع الرشيد، وقبلها سأمرّ على بعض المكتبات القديمة في هذا الشارع.

ثم وضع يده على كتفي وقال لي:

ـ أما أنت فستعود بإنعام إلى الفندق، ليس من اللائق أن نتركها تسير لوحدها.

قلت وأنا أنظر إلى وجهها الذي أشرق بابتسامة أضاءت المكان:

ـ سأكون سعيدا وأنا أرافق امرأة من الزمن الفرعوني.

وانسحب عمار ليتركني منفردا بامرأة لم يمض على لقائي بها سوى أيام لا تاتي على أصابع اليد الواحدة سامحك الله يا صاحبي، أي ورطة هذه التي وضعتني فيها»

وابتعد عنا عمار.. وصرنا يتيمين متجاورين في بلد السلام..

لم أدقق في تفاصيل وجهها منذ أن وصلت إلى الفندق، لأني كنت أحرص أن أكون في المناطق التي يتواجد بها الجيش، خاصة الجيش الجمهوري الذي كان يقوده عديّ والذي أُوكلت له مهمة حماية المطار والدفاع في حالة الهجوم الأمريكي.. كنت أتقصّى الأخبار عن الجيش الأمريكي الذي يزحف نحو العاصمة بغداد، وأتبادل هذه الأخبار مع زملائي الصحفيين من مختلف الدول العربية، وخاصة مع عمار وإنعام، ثم أرسل التقرير بكل التفاصيل إلى الجريدة التي أعمل بها بالجزائر.. مدير الفندق سخّر لنا كل الوسائل التي تساعدنا على أن تصل الأخبار إلى بلداننا في حينها..

الآن.. وأنا انظر إليها، أتعثر بوجهها الصافي وعينيها البنيتين الغارقتين في حنان أنا في حاجة إليه، في بلد فقدتُ كل السفن التي تعود بي إلى صدر أمّ تركتها تبكي وحيدها ولا تدري متى رجوعه، وامرأة ملأتُ رئتي من آخر شهقة لها وأنا أودعها في المطار، وارتويت من دمعها الذي سكبته في حضوري بما يكفي لأن تظل معتصمة عند بوابة قلبي في غيابها..

نظرتْ إليّ.. ابتسمتْ لي كأنها سعيدة بهذه الحماية التي سأوفرها لها، فكشفتْ عن أسنان بيضاء عاجية كأنها صنوان مصقول. ابتسامتها الآسرة زادت من ارتباكي.

يا أللهِ.. كم هي جميلة وشامخة بجسد ممتلئ في غير بدانة.

هل أنا محظوظ أن أكون وحدي مع هذه الفاتنة الآتية من الزمن الفرعوني؟

لم أشعر بالزهو وأنا أسير إلى جانب امرأة جميلة تطلّ من رسومات ساذجة تعود إلى ذلك العهد البعيد، في شارع ما زال يتعلق بقميص هارون الرشيد ويقدّه من دبره علّه يلتفت إلى بؤسه ويخلصه من دمار آت، أو ليعبّر له عن عشق أسطوري.. لم أشعر بالزهو لأني أحس أننا نمشي على أرض سيكون أديمها من أجسادنا، وستقول الأجيال التي تأتي بعدنا ما قاله أبو العلا المعري في زهده وقلّة إقباله على الحياة:

خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

رغم أنّ شارع الرشيد كان يعج بالمارة الذين يقطعونه ذهابا وأيابا في حركة متعاكسة إلا أنني حرصت أن أترك بيني وبين إنعام ما يكفي من مساحة لتقف فوقها سعاد ولو على أطراف أصابعها، وتعرف أني لم أخنها، ولا يمكن لأي امرأة في العالم أن تزاحمها على عرش قلبي ولو كانت من سلالة كليوباترة بجمالها الأسطوري الذي ظلّ يحتفظ بنظارته

إلى آخر أيام عمرها، ولم تكن في حاجة إلى أن يصلح العطّار ما أفسد الدهر.

عندما تسير إلى جانب امرأة طاغية في الجمال في مدينة طاعنة في التاريخ، لا تعرف هل تسكت إجلالا لقدسية المكان؟ أم تتحدث حتى تجعل المرأة تحس بأن لجمالها تأثيرا يجعل الحجر يتأوه ويقول يا ألله !!

هل تسكت لتسمع همس التاريخ بحكايا شعوب وحضارات ظلت تنبض بالحياة؟ أم تتحدث لتقرّب المسافة بينك وبينها وتعيد الحياة إلى نبضها؟!

السكوت ورطة كبيرة.. والكلام ورطة أكبر..

قالت وكأنها أدركت ارتباكي وحيرتي بين ورطتين:

ـ يسموننا السلطة الرابعة.. إنهم يسخرون منا بهذه النكتة التي يدغدغون بها سذاجتنا، لأن أصحاب السلطة يملكون من القوة ما يحمون بها أنفسهم إذا تعرّضوا لأي أذى، بل يملكون القوة التي يحمون بها حماقاتهم، أما الصحفي فيملك الجرأة ولايملك القوة التي تحمي هذه الجرعة الزائدة من الجرأة.. ونحن في طريقنا لتقصّي الحقيقة، قد ننتهي برصاصة طائشة أو تحت عجلة تدهسنا قضاء وقدرا، فيضحك العالم لسذاجتنا لأننا لم ننتبه ونحن نقطع الطريق..

ووجدت في حديث إنعام ما شجعني على الكلام وأنا أتذكّر قافلة من شهداء الحقيقة في بلدي.. تذكرت عمر أرتيلان الذي دفع حياته

ثمنا لكلمة صدق قالها غير آبه بالنار التي كانت تلتهم المكان والزمان داخل جغرافية بلد الشهداء، عمر الذي أنهكته الفتنة التي عصفت ببلده فخاطب السلم الغائب في لحظة ضعف يعيشها رجل يحب وطنه «أيها السلم تجل» كان آخر مقال له.. صباحا، لم يتجل السلم الذي كان يتوق إليه، بل تجلّى الغدر في أبهى صوره وأنهي حياة صحفي برصاص أحمق..

تذكرت حكيم تعكوشت المنشط الإذاعي الذي ملك قلوب المستمعين بحرارته وصدقه، وهو يطلّ بصوته الآسر من إذاعة سيرتا بقسنطينة.. تذكرت اسماعيل يفصح أحد نجوم الثامنة في التلفزيون الجزائري والذي خرج من بيته متجها نحو عمله فاعترضه من أمروا بقتله، ليس لذنب اقترفه بل لأنه أخذ جرعة زائدة في حبه للحقيقة وللوطن..

تذكرت رشيدة حمادي التي كانت شجاعة وجريئة، قدمت تقارير كان معظم الصحفيين يرفضون الخوض فيها لخطورتها على حياتهم، فاغتيلت رفقة أختها وهما ذاهبتان إلى مركز التلفزيون.

فالجرأة قد تمنحنا الحياة وقد تعجّل بنهايتنا.. ماذا لو ترك القاتل فرصة أخيرة للمذبوح كي يقول كلمة حب ويغادر؟ هل كان سيقولها لامرأة نبتت في شرايينه فكانت بحجم وطن؟ أم سيقولها لوطن تاهت ملامحه في لحظة طيش وتهور؟ أم سيقولها لمن يستعدّ لذبحه ليحقن بها دماء الذين سيلحقون به في زمن الفتنة؟!!

لكن لا وقت لكلمة حب نقولها لمن عانقوا أرواحنا ولا لمن ذبحونا من الوريد إلى الوريد.. الفتنة اتسعت أكثر لتلتهم المتألقين بالجملة.. عندما تنفتح شهية الوطن على أبنائه يتخيّر الطيبين والمتألقين والذين تنبض قلوبهم بحبه وتلهج ألسنتهم بذكره. فالموت أيضا يسرع إلى الطيبين ويترك اللئام إلى أرذل العمر لكي لا يعلموا بعد علم شيئا..... قلت لإنعام وأنا أستدرك شرودي عنها، فالمرأة الجميلة تشعر بالإهانة إن غفلت عنها والذكية تتألم كثيرا إن شرد عنها رجل تجالسه، وإنعام جميلة جدا وذكية جدا فلا تملك إلا أن تكون حاضرا معها بعقلك وقلبك:

ـ عندما تقوم حرب أو فتنة في أي بلد، تبدأ بالتهام الصحفيين حتى تفتح شهيتها للقادمين بعدهم.

صمتت وقد تبدّل وجهها وظهر الحزن جليا في عينيها الجميلتين اللتين أصبحتا أقلّ هدوء وأكثر إثارة، ثم قالت:

ـ هذه الشهية تفتحت على زوجي..

صمتت وحشرجة في صوتها خنقت كلامها..

وصمتّ احتراما لقدسية حزنها على زوجها..

بلعتْ غصتها. ولاحظتُ أنّ سيرها أصبح بطيئا وكأن همّا كبيرا نزل بها فأثقل خطاها ثم قالت وهي بالكاد تجر جسدها:

ـ كان إبراهيم صحفيا مرموقا، تزوجته عن قناعة بجرأته وقدرته على تحدي بارونات الفساد في مصر، لكن ما كنت أدري أن جرأته ستجعلني أرملة بعد سبعة شهور من زواجنا..

أبديت تعاطفا واضحا معها وأنا ألاحظ أن عينيها أصبحتا نديتين جاهزتين لأن تذرفا دمعا حارقا سيحيلني على موقف لست جاهزا له وسط زحمة الشارع وزحمة الأحداث:

ـ ما يؤلم حقا أن كل عربي أصبح معطوبا في روحه وجسده، ليس بفعل حرب خاضها مع العدو وإنما هو معطوب فتنة أو فساد في بلده.. فتنة تأخذ منا الذين نحبهم، وتسلمنا ليُتْم يسير بنا إلى إحباط يتغلغل في داخلنا ليصبح وطنا لا نغادره إلاّ إلى القبر..

وفجاة رأيتها تحبس خطواتها عند قوس من الأقواس التي تمتد على طول شارع الرشيد وتسند ظهرها إلى عمود أنيق بزخرفته العربية.. وقفت أمامها موليا ظهري إلى أي خطر قد يصيبها في مدينة ينفتح قبرها شيئا فشيئا. وفتحتْ أمامي دفتر عمرها لسبب لا أعرفه:

ـ كان صحفيا جريئا فتح ملفات الفساد في مصر واستطاع أن يحصل على معلومات وأدلة أربكت أكبر المسؤولين والشخصيات المتورطة في قضايا الفساد. وكانت قضية الأجبان الفاسدة التي دخلت السوق وأهلكت الكثير سببا في سخط المسؤولين عليه.. أول إنذار لم يخفه ولم يربكه حيث تلقى رسالة تهديد من أطراف مجهولة، كنا حينها نحضر

لزواجنا وكنت أشجعه دون خوف من أن يضيع مني يوما لأني كنت أؤمن أن الصحافة لها سلطتها التي تحمي بها المنتسبين إليها. لكن جرأته بدأت تتجبّر وفتح ملف وضع اليد على أملاك الدولة والمتاجرة بها ليجد نفسه ذات مساء تحت عجلة سيارة سوداء داكنة النوافذ.. دهسته وفرّت هاربة لتترك على جثته ختما «قضاء وقدر» ولأجد نفسي بالقضاء والقدر نفسيهما أرملة لم تحفظ بعد ملامح زوجها، ولا تفاصيل ما يخبئه لها من أحلام وعدها بتحقيقها عندما يمتلك جريدة حرة... كم أحبني إبراهيم، وكم.....

صمتت وهي تبلع ريق هزيمة مبكرة أحالتها على تقاعد عاطفي مبكر، ثم استطردت وكأنها تريد أن تقطع الطريق على أي إحساس قد يطل برأس الرغبة من صدري أو من صدر أي رجل آخر:

ـ قررت بعدها ألاّ أتزوج مرة أخرى لأن ابراهيم ممدد في قلبي، ولامكان لرجل آخر يريد العبور إلى تفاصيل حياتي.. كل التفاصيل أغلقتها على إبراهيم.

ـ في الوفاء حياة لا يدركها الذين يمارسون الخيانة عن قناعة.

نظرت إليّ وابتسمت لتكشف مرة أخرى عن أسنان ناصعة البياض، ثم قالت:

ـ هذا الكلام لا يقوله إلا من كان الوفاء شريعته.. أحترم كثيرا الذي يظلّ على وفائه لمن يحب رغم كل المغريات.

ثم استطردت وهي تربكني بجملة وضعتني بين عارضتين:

ـ المحبون وحدهم من يكون في حديثهم رقة، ومن فاصلة إلى أخرى إصرار على الوفاء، وأنا أحس أنك واحد منهم.. أكاد أرى على ملامح وجهك أثر امرأة جميلة كانت آخر من ودّعك في المطار وشدّت على قلبك بحرارة.

ابتسمت لذكائها وانحنى قلبي لحضورها البهي الذي يزيح الستائر ويفتح النوافذ ويتغلغل إلى ممراتي السرية ليجعلني أشعر بخذر لذيذ وشهي..

واحترت بين أن أحدثها عن سعاد وعن وفائي لحضورها المقيم، أم أصمت احتراما لأنوثتها التي ترفض أن تشاركها امرأة في الحديث إلى رجل يسير إلى جانبها حتى ولو كانت على يقين أنها عابرة وأنّ الحبيبة هي المقيمة.

لكنّ إنعام ـ وبحكمتها ـ حسمت الأمر وهي تهمس بصوت ضعيف وحزين:

ـ عندما يكون وفاؤنا لحبيب يمشي على الأرض، نكون أكثر قابلية للحياة وأكثر إقبالا على زينتها، لكن عندما يكون الوفاء لحبيب رأيناه وهم ينزلون به شيئا فشيئا تحت الأرض ويهيلون عليه التراب الذي يحول بيننا وبين ضمّه، حينها نكون أكثر قابليّة للموت وأكثر زهدا في

كل ما يتّصل بزينة الحياة الدنيا وبكل مغرياتها.. صدّقني يوسف، على كثرة الرجال الذين يحيطون بي أراهم جميعا دمى متحركة تموت معها كل رغبة يمكن أن تحسها امرأة تجاه رجل، ابراهيم رحل وأخذ معه كل الأحلام حتى المؤجّلة.

أحسست أن وجع الذكرى أثقلها وأنها لم تعد قادرة على المشي، فأنين الذكرى قد يشلّ الحركة أكثر من أيّ مرض. ولهذا كان لا بد من سيارة أجرة توصلنا إلى الفندق.. كانت الحركة قد بدأت تخفّ شيئا فشيئا في الشوارع تحسبا لأي طارئ يأتي فجاة، وخشيت أن نجد صعوبة في أن نعثرعلى سائق يوصلنا إلى الفندق، لكن الحظ كان إلى جانبنا عندما لمحت سيارة تقترب منا.. أشرت لها فتوقفت. وابتسم لنا السائق بتعاطف وهو يدرك أننا غريبان لينطلق بنا بعد أن أعطيته اسم الفندق، وينطلق معه لسانه ليحدثنا عن شارع الرشيد الذي كان أكثر ازدحاما من الآن وأنّه الوجه الحضاري لبغداد..

كنا صامتين نعبر معه من مكان إلى آخر نتلمّس وجه شارع أخذ اسم هارون الرشيد الذي في عهده وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوجها، حتى سمّي عهده بالعصر الذهبي..

حدثنا السائق العراقي عن شارع الورّاقين وعن المكتبات العريقة التي تزخر بأمهات الكتب. وحدثنا عن حلاق الملوك والبشوات والذي بلغ من الكبر عتيا، ومع ذلك مازال يتذكّر كل الملوك والبشوات وحتى الفنانين الذين مرّوا بمحله، ويشهد على ذلك صورهم التي لا زالت

تزين جدرانه والتي يعتبرها جزءا من ذاكرة شارع الرشيد وذاكرة بغداد، لأن من بين الذين مروا بمحله آخر ملوك العراق فيصل الثاني والعاهل الأردني الراحل الملك حسين والزعيم العراقي عبد الكريم قاسم.

وعندما حدثنا عن أشهر محلات بيع الزبيب في شارع الرشيد لصاحبها الحاج «زبالة» انفلتت مني ابتسامة استغراب، والتفتّ إلى إنعام فوجدتها أيضا تبتسم لغرابة الاسم: قال لنا وهو ما زال يحتفظ بهدوئه في سياقة سيارته:

ـ لا تستغربا الاسم، فله حكاية.. أمّ الحاج زبالة أنجبت كثيرا من الأولاد، لكنهم ماتوا بسبب المرض أو لأسباب أخرى وظل هذا يؤلمها وتمنّت لو تستطيع أن تحتفظ ولو بولد واحد، فاقترح عليها النسوة عندما تُرزق بولد أن تقول إذا سألها أحد عن المولود «هذا زبالة» حتى تبعد عنه عين الحسد التي التهمت أولادها. وكان أن عاش هذا الزبالة وعمّر وأخذ شهرة واسعة ولصق به هذا الاسم لكنه في الحقيقة اسمه عبد الغفور، وقد تخصّص بصناعة شربت الزبيب المميز بنكهته الخاصة والتي تذوقها الملوك والزعماء والمثقفون على مر العصور.

كان السائق يتحدث بحسرة رافقتنا إلى أن وصلنا إلى الفندق، وألم ودّعنا به وهو ينزل من السيارة ويفتح الباب من أجل أن تنزل إنعام. وعندما مددت إليه يدي لأسلمه أجرة السيارة شدّ عليها بحرارة وأغلق على النقود في يدي وهو يقول:

ـ أنتم ضيوفنا على الرأس والعين، ولا نرجو منكم إلا أن تدعوا للعراق بالخير.. ربي يستر مما سيأتي.

قالت إنعام وهي تؤكّد على جاهزيتها للتضحية:

ـ نحن هنا من أجل بغداد وليس من أجل شيء آخر وسنفديها بأرواحنا.

وغادرَنا السائق على أمل، وغادرناه على قلق بدأ يتسلّل إلى نفوسنا ممّا رأيناه من فتور في شارع الرشيد..

ودخلت أنا وإنعام الفندق كيتيمين وقفا على جدار آيل للسقوط تحته كنز أثري سينقذهما من فقر حضاري إن وجدا صالحا يهدمه ويقيمه من جديد ليبعد عنه عيون المارينز الذين هم على مشارف عاصمة العباسيين.. دخلنا وكلّ منّا يتحسّس شعورا غريبا بدأ يطلّ من صدره وينظر في ملامح وجهه ويبتسم في كبرياء وهو يوقّع ميلاد ألفة لا عهد له بها..

دخلنا.. وكل منا يحس أنّ الآخر أصبح بعض دمه..

(١١)

ليلا..

كنا نقتسم ملح الوجع ونكتة الألم، وأرق الإنتظار في غرفتي المطلة على الشارع الرئيسي، أو في غرفة عمار بالفندق الذي كان يجمع صحفيين ومصورين من مختلف الأجناس أتوا يترقّبون سقوط بغداد، ويشهدون نهاية أسطورة صدام وتطاوله على من نصّبوا أنفسهم أوصياء على العالم، ويحق لهم أن يعاقبوا من شق عصا الطاعة..

عمار.. شاب في منتهى الوجع، متألق بحكايا وطن يجمع نوره في يمين القلب ويرحل به من مطار إلى آخر ومن قارة إلى أخرى لرصد ترف العالم وهو يرقص على أشلاء شعب تمزّق بين الشتات والملاجئ والخيام التي تعبث بها أهواء الأقوياء وتحركها رغبات النصف العلوي من الكرة الأرضية..

عمار.. شاب يتحرك على صورة زوجة في المعتقل عبثوا من خلالها بما تبقّى من الشرف الوهمي للقبيلة..

عمار.. شاب يتحرّك بصورة ولد وُلد في المعتقل، ثم قُذف به خارج صدر أمه بعد يوم من ولادته عاريا إلاّ من يُتم إجباري..

عمار.. شاب يقترب من العقد الرابع لكن الإحساس بالألم رسم على ملامحه تضاريس لمدينة تبدو غارقة في القدم.. عيناه الغارقتان في

محجريها تنبهانك بنظرة جارحة.. كان يتحدث عن المقاومة ويتلهف عليها كما الرغيف والماء والهواء.. يبدو ثائرا بشكل فاضح- على هذا الإرث الثقيل الذي خلّفه الأباء..

كان يقول لنا بكثير من النرفزة:

ـ نحن لم نصنع النكسة، بل ورثناها كما ورثنا ملامحنا.. نحن نشبه ولدا ظلّ يعتقد أن أباه خلّف له ثروة كبيرة، لكن عندما تقدّم به العمر نحو الخيبة اكتشف أنه لم يورّثه سوى نكبات وخيبات سيظل يسدّدها بتقسيط غير مريح وبمقاومة لا تنتهي.. لكن ما تبنيه المقاومة تهدمه الخيانات الرسمية وغير الرسمية...

قال لي مرة وهو ينفرد بي في غرفته:

ـ إسرائيل لم تعد حفنة من اليهود نرمي بها في البحر، والعرب ما عادوا مع فلسطين ظالمة أو مظلومة، كما قال الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين. إسرائيل بات لها كيان داخل كياننا وهيكل داخل هيكلنا الذي يتناقص.. أصبحت مجاورة ولها حق الجوار حتى الصحافة العربية غيّرت من الإطار الذي كانت تضعها فيه.. لم تعد العدو الصهيوني ولا المغتصب بل أصبحت إسرائيل، لها حكومة تتحدث عن إنجازاتها وتغطي اجتماعاتها وانتخاباتها كما تغطي نشاطات أي حكومة عربية... الفضائيات العربية تنقل لنا دماءنا وهي تسيح على أراضينا ثم تغطي اجتماع الحكومة الإسرائيلية.. العرب لم يعد يهمّهم أن تكون فلسطين

ظالمة او مظلومةٌ شغلوهم بهمهم الداخلي عن همهم القومي.. فجأة وجدنا أنفسنا أيتاما في مأدبة اللئام بعد أن نفض العرب أيديهم من قضيتنا..

ـ كم أنت ثائر يا عمار!!

جملة تعجبية انفرطت من عقد تعلقي به والذي كان يشدني إليه بقوة، قلتها وأنا أنظر إلى وجهه الذي لم يستقر على لون، وأتوغّل في عينيه الغائرتين في محجريهما وهما تنتفضان غضبا مباركا...

كان واقفا مسندا ظهره إلى خزانة ملابسه وبيده سيجارة يداعب بها اضطرابه وعصبيته الفاضحة.. لكن وصفي له بأنه ثائر جعله يسحب نفسه نحوي ويجلس إلى جانبي وقد أحسّ أني أصبحت مجاورا لجرحه.

قال لي وكأنه يعرّفني بنفسه وهويته:

ـ من وجد نفسه ينزل من بطن أمه داخل خيمة منصوبة على أنقاض وطن كبير يسكنه الغرباء، لا يمكن إلاّ أن يكون ثائرا...

ورأيته يضع الكاميرا التي كانت تتدلى على صدره كما يضع الفارس سلاحه في لحظة استرخاء.. أو في لحظة هزيمة ثم مدّ يده إلى جيب خفي في سترته وأخرج منه صورة ناولني أياها...

ـ هل تعرف صورة من؟!!

أخذت منه الصورة وقد استبد بي الفضول.

كانت يده ترتجف كطائر مذبوح وهو يناولني أياها... صورة طفل صغير يبدو في عامه الأول يظهر غير قادر على الإعتماد على نفسه في الوقوف، ولهذا امتدت يد من خلفه لتسنده.. أكيد أنها ليست يد أمه لأنها كانت تبدو خشنة تغيب عنها كل ملامح النعومة التي تظهر على يد امرأة...

كان الطفل يبتسم لفراغ وهو لا يدري لمن يهدي ابتسامته، للمصور أم للذي يمسك بيده أم لرجل يحنُّ لوجهه؟ الأطفال كالشمس لا تستثني من ابتسامتها أحدا حتى ولو كان سفاحا يسعى إلى حجب نورها عن الأرض..

قال بكثير من المرارة التي تخرج مع حروف لم يعد يعرف كيف يرتبها كما لم يحسن ترتيب حياة بيته وعائلته:

ـ هذه صورة ولدي...

تعثرت الحروف على لساني، ولم أعرف أي كلام أقوله له في موقف مربك كهذا.. بل لا أعرف نوع الموقف.. فرح؟! أم شجن؟! أم نبش في ذاكرة غائرة في اليُتم؟!

هل كان يُريني الصورة لأقول له «مبروك»؟! أم لحرقة في نفسه؟!

وقبل أن أفلح في تسمية الموقف وترتيب الكلمات وجدته يستعيدها مني ويعيد النظر إليها كحلم بعيد يربض هناك في طرف خفي..

بعد صمت وتأمل جاء صوته باهتا كمن يحدّث نفسه:

- هي صورة ولدي الذي وُلد في المعتقل، وهذه اليد التي تسنده هي لأخي الذي تكفّل بتربيته.

ثم وقف واتجه نحو النافذة.. شرعها.

كانت الشمس تميل نحو الغروب وتوشك أن ترتمي بين ذراعي مدينة جميلة غارقة في التيه، ثم سمعت لأنفاسه صوتا يشبه الزفير وكأنه فقد القدرة على التنفس ويريد أن يستعين بهواء بديل آتٍ من شوارع بغداد علَّه يعيد إليه بعض الحياة...

إيه يا صديقي..

أيها الهارب من خراب إلى خراب..

إن الخيبة التي تحسها في نفسك لا تقلّ عن الخيبة التي تتمدّد على أرصفة مدينة تشبه شهرزاد.. امرأة تغزل كل ليلة حكاية تمنحها الحياة وتستيقظ صباحا على فاجعة موتها المؤجل وتتمنى لو سبق أجلُها الصبح حتى لا تعيش فجيعة انتظار حتْف يتأخر.. شهرزاد التي سلّمت نفسها

للموت لتنقذ ما تبقىّ من جمال مدينة تغرق في وسوسة ملك قتلته الخيانة، فنفض عنه غبار قبره ونهض عاريا إلا من رغبة في الإنتقام..

هنا.. لا أثر لامرأة تسلّم نفسها للموت لتنقذ ما تبقّى من جمال المدينة..

هنا.. لا أثر لفاتنة تؤجل موتها بحكايا السندباد الذي يخرج من مغامرة بمغامرة لتكبح رغبة الانتقام عند ملك وجد غريبا في غرفة زوجته الجميلة، فقرّر أن يمحو كل أثر للنساء الجميلات في مملكته، وأن يكون شاهدا على هذا الاغتيال، وأن يكون ـ أيضا ـ آخر من يُزف له هذا الجمال ليعبث به ثم يرميه إلى الجلاّد..

أشعل عمار سيجارة خيبته بنار أُحسها تلتهب بين جنبيه، وكأنه يريد أن يسبح بأوجاعه في دخان يتعالى ويتجبّر، ثم يتلاشى شيئا فشيئا ليخلّف حكاية انكسار ممتد راح يحدثني عنه:

– سلمى.. لست أدري من منا سعى للآخر أو أيّنا رأى قضيته على وجه صاحبه.. التقيتها على خراب وافترقنا على خراب.. رأيتها وأنا أصوّر غارة إسرائيلية على مناطق آهلة بالسكان.. كانت جاثمة تبكي.. تصلّي.. تتعبّد في محراب حزنها. بيتها هوى بمن فيه، بينما كانت هي بعيدة عنه لأسباب ساقها إليها القدر حتى يورّطها في انكسارات متتالية، ساعتها ـ نسيت الكاميرا.. لم أصوّر شيئا.. أحسست أن الفاجعة أكبر وأعمق من أن نحصرها في صورة صامتة نرمي بها إلى

الصحف أو إلى الفضائيات ، وأنّ مصيبة سلمى في أهلها أوسع من أن تعبُر حياتي دون أن تترك على ملامحها أثرا ولو كان داميا..لست أدري – حينها – ما هي كلمات العزاء التي رفعتُ بها رأسها عن جثث أهلها.. بل لا عزاء عندما ننتهي.. لمن نقدّم واجب العزاء عندما يمتد الفناء إلى كل أفراد العائلة حتى الأحياء منهم ؟!! أمها، أبوها وإخوتها تحوّلوا إلى جثث متناثرة تحت أنقاض بيت هوى فجأة.. وهي تحولت إلى كومة حزن تبدو معه كالميتة.. فلمن أقدم العزاء ؟ كلهم انتهوا.. مَن أنهاه الدمار، ومَن أفناه الحزن!!

هذا الوجه الذي شوّهه الحزن، أصبح بعض دمي ومن مسؤوليتي.. الشعور بالمسؤولية سبق الإحساس بالحب وأنا أحاول أن أبعدها عن الدخان الذي يملأ المكان وأحضن ارتعاشتها دون أن أعرف اسمها ولا من تكون..... وتزوجنا على حب.. على خراب.. على فجائع.. لا فرق. لم نقم فرحا، فالأفراح ظلت تُؤجل في حياتنا من موسم إلى آخر ومن شتات إلى شتات.. كانت هي من غزة، وكنت أنا من رام الله.. وعبرنا على دماء المسافتين.. أقمنا مأدبة عشاء مختصرة حضرها المقربون مني وأشلاء المقربون منها !! لم تُزف إليّ بفستان أبيض ككل عروس.. كانت تلبس الحداد حزنا على عائلة انقرضت في عصر تتناسل فيه البشرية طبيعيا واصطناعيا، بين جدران رحم أو داخل أنبوب!!

عندما اختليت بها بعد أن تفرّق الأهل ـ لم تبتسم خجلا وأنا أحضن يديها المرتجفتين كطائر مذبوح، ولم تتورّد وجنتاها حياء لتثبت لي أنّي

أول رجل تقْصُر المسافة بينه وبينها بهذا الشكل، بل خبّأت رأسها في صدري لأجد نفسي متورّطا في دمعها الجارح..

منذ الليلة الأولى لم أختل بها ولم نكن وحدنا، بل كنت أنا وهي وفجيعة وطن يتسلّل من خيبتنا وأشلاء أهلها التي احتلّت قلبها شبرا شبرا، فكنت أراها بعضا منهم وأقرب إليهم مني وهم يزاحموننا الطعام والفراش، فكانت تلتفت إليهم أكثر مما تلتفت إليّ وتحضن صوّرهم أكثر مما تحضن حضوري إلى جانبها!!

من الليلة الأولى عرفت أنّ ما بيننا لم يكن زواجا ولا حبا، بل هو تزاوج بين جسدين من صلب وطن يتدحرج، وتقارب بين بقايا امرأة وشبح رجل يظهر حينا ويختفي في كثير من الأحيان.

عشت معها شهرا، حاولت خلاله أن ألملم ما تناثر من صور بهائها، وأعيد ترتيب ابتسامة تاهت على ملامح وجهها الجميل.. لكن – عبثا – فالحزن قد تمكّن منها، والرغبة في الإنتقام سيطرت عليها وطوّقت كل مساحات قلبها، فلم يعد هناك أمل في تسرّب شعاع نور يضيء بعض جوانبها.

ظللت شهرا ساجدا في محراب حزنها، ثم سافرت لأطارد مواقع النار بكاميرا تلازمني كظلي... عندما كنت أودّعها رأيت نظراتها جاثمة نحو ركام أمل منحتها أياه – تماما – كما رأيتها أول مرة ذاهلة أمام ما تناثر من أجساد أهلها..

قلت لها وأنا أحاول ترميم أمل تصدّع، وانهار: «سأستقر في أي بلد عربي ثم أدعوك للالتحاق بي».

لم تجبني... وكأنها كانت تخطط لأمل من فصيلة أخرى !!

بعد شهر اتصلت بي تخبرني أنها حامل.. لم يكن لدي الوقت الكافي لأسعد بخبر حملها وأتدثر به، فقد وصلني خبر اعتقالها بتهمة الإنضمام إلى جماعة مسلحة خططت لانفجارات استهدفت مناطق آهلة بالإسرائيليين.. اعتقلوها وهم على يقين أنها تنتقم لعائلتها المذبوحة.....

صمت عمار فجأة وكأنه يلتقط أنفاس حسرته على ما ضاع منه، ثم استطرد:

ـ تصوّر يا صاحبي، سلمى وضعت ولدي في المعتقل في شهره السابع، لست أدري أهو الذي استعجل الخروج هروبا من أنين أمه التي كانت تتعرّض لتعذيب نفسي وجسدي بشع، أم هم الذين أرادوا أن يكملوا المجزرة ويُسقطوا الجنين، فتشبّث برحم أمه حتى الشهر السابع.. لا أدري كيف كانت وضعيتها وهي تضعه، وما لون الجدران التي احتوت صرخته الأولى، وما هوية تلك اليد التي استقبلته وهو يلج إلى الحياة ؟

كنت ملتحما مع حزن عمار، أعبر معه من فجيعة إلى أخرى ولم أشأ أن أقطع عليه ترتيل همه، لكنه التفت إليّ وسألني بعصبية وكأنني متورّط في مأساة ولده:

ـ أليس ظلما أن يولد ابنك داخل زنزانة باردة مقرفة، ويسقط عاريا إلا من فجيعته في أمٍّ لا تملك ما تدثره به غير أنينها؟!!

عبرتُ على توريطه لي في تفاصيل مأساته، وكنت سأسأله عن مصير ولده، هل سمحوا له أن ينعم بحضن أمه ولو لأيام ويرتوي بلبنها، أم رموا به خارج المعتقل بعد ولادته، لكنه أضاف وكأنما قرأ ما في نفسي:

– الولد حضنه أخي وزوجته لأنهما لم ينجبا... انتزعته الوحوش من حضن أمه بعد يوم من ولادته، بل هي لم تحضنه ولم تره، كانت في غيبوبة عندما أخذوه منها.....

لك الله أيها المارد الثائر..

لك الله أيها المذبوح من الشتات إلى الشتات..أيها العابر بهمّك لكل القارات..

كم يلزمك من العمر لكي تنسى كل هذه الجراحات التي تتناسل وتفرخ !!

كم يلزمك من عمر إضافي لتنسى ملامح زوجة تصارع جنون الإسرائيليين داخل المعتقل، وولدٍ رأى النور داخل زنزانة ليُطلق سراحه مفرغا من منابع الحنان!!

كم يلزمك من التيه لتنسى أنك كنت مجرد ظِلّ زوج يطارد أرصفة النار وشوارع الفناء، وأنك فشلت ـ من الليلة الأولى ـ أن تحضن وجع زوجتك وتقربها إلى صدرك بما يكفي لتنسى فكرة الانتقام !!!

وكم بقي لك من احتياطي عمرك لتنسى أننا – جميعا – تورّطنا في يُتم ولدك بالصمت حينا.. بالتجاهل حينا آخر وبالخيانة في كثير من الأحيان !!

كم أحس – اللحظة – أني مسؤول عن تضميد جراحاتك ومواساتك في زوجة داخل المعتقل وولدٍ لم تغتسل يوما ببهاء ابتسامته !!

اقتربت منه فأوجعني يُتْمُه التاريخي وأنا أحضنه.. أحسست دمعة حارة خرساء تنحدر من عيني هزيمته لتتوزع في شراييني وتجعلني أحس بانتمائه لي..

يا ألله.. كم هي موجعة دموع الرجال !!

إنّ العالم يعتدل بدموع امرأة، ويفقد توازنه بدمعة واحدة من عين رجل..

لست أدري كم مرّ من الوقت ورأسه على صدري وأنا أمسح على شعره كيتيم أحسّ أنه ريشة في مهب الريح.. وفجأة سحب رأسه من صدري كمن تذكّر سرا يريد أن يبوح به، ثم قال لي وهو ينظر إليّ بعينين نديتين:

ـ أنا لا أنام يا يوسف، كلما أغمضت عيني أرى كابوسا يخنقني ويجعلني أقف مفزوعا غير راغب في النوم مرة أخرى حتى لا يتكرّر الكابوس.. أراني داخل زنزانة سوداء خانقة، أقف إلى الحائط مقيد اليدين والرجلين غير معصوب العينين، وأرى ثلاثة من الجنود الإسرائيليين يجرّدون سلمى من ملابسها إلى أن تصبح عارية إلا من صراخها ورغبتها في الانتقام ممن جرّدها من أهلها قبل ثيابها.. أراهم يطرحونها أرضا أمام عيني، ويبدأون.....

وسكت عمار.

لم يكمل صورة الكابوس، ربما لفضاعته. فليس من السهل على المرء أن يجامع رجل زوجته أمام عينيه ولو كان في المنام، وربما من أجل هذا الاحترام الذي أراه في عينيه كلما تحدّث إليّ، لكني أكملت في مخيلتي ما تمزّق من الصورة في اعترافه.. المشهد فظيع جدا ومقزز.. وتخيلت نفسي مكانه، لو أنّ رجلا لمس شعرة واحدة من سعاد سأقطع كل أنامله سواء التي لمست أو التي كانت شاهدة، ولو عبث بشرفها فلن يكفيني دمه، بل سيكون دمه ودم أهله وعشيرته وكل من فيه شيء من دمه..

وجدت أن كل الكلام الذي سأقول لعمار سيبدو ياهتا، لأن الشرف غير قابل للعزاء، ولهذا سرت به إلى خارج الغرفة التي أصبح جوها خانقا بفعل دخان السجائر التي تتعاقب على شفتيه وهمِّه، وبآهات وذكريات حارقة توزّعت في كل الزوايا..

كنا نهم بالخروج عندما سمعنا أصواتا تتعالى خارج الفندق وهي تهتف بحياة الرئيس الذي سيثأر لكرامتنا التي أكلها الصدأ..

اتجهنا نحو البهو الفسيح للفندق وفي نيتي أن أطلب فنجانين من القهوة، لعل التوتّر الذي لا زمنا تخفُّ حدته.. لكن وجودها في أريكة منعزلة أربكني وجعلني لا أدري أأسير إليها أم أظل إلى جانب عمار الذي بدأ يستعيد بعض توازنه، لكنها قطعت حيرتي وهي تتجه نحونا تسبقها ابتسامتها العريضة التي تصافح وجوهنا بمحبة كبيرة.. بل تصافح قلبي بدفء مسكر يتسلل إلى شراييني ويسري مع دمي..

لم أذكر يوما أنّ إنعام دخلت غرفة أحد من الصحفيين أو المصورين في الفندق. تفضّل- دائما- أن يكون التلاقي والمناقشة وتبادل أوجاعنا العربية في هذا البهو الفسيح وكأنها تقول لنا: «هزائمنا وانكساراتنا وفضائحنا مكشوفة، فلماذا نهمس بها داخل غرف مغلقة ؟!!»

الآن

وهي تتجه نحونا.. أحسست أن العالم كله يتحرك نحوي، وأنها تطرق على بابي بتاريخها الفرعوني، فكل عربي يحمل تاريخه لائحة على ملامحه..

عندما أراها تقفز إلى ذهني صورة سعاد فأضع الصورتين على خطين متوازيين...

وأنا أجلس إلى سعاد.. كنت أحس بنوع من الضعف يجتاحني.. ضعف العاشق الذي يفقد توازنه أمام امرأة صنعت تاريخه.. ضعف رجل استقبلته امرأة في مكتبة الجامعة لتصبح مرشده ورفيقه وسنده، حتى وصلت به إلى خط النار لتتركه وحيدا إلا من ملامحها التي سافرت معه.. امرأة عندما أكون معها أرى نفسي صحفيا يحتمي بقلم وفكرة..

لكن إنعام تجعلني أحس بالقوة.. عندما أجلس إلى ملامحها الحزينة أتمنى لو أنّي كنت مقاتلا لأنزع عنها هذا الغبن الذي تحمله معها أينما حلّت.. هذا الغبن الذي جعلها تغادر وطنها وعائلتها بحثا عن نصر مؤجل، أو عن ثأر لزوجها وأبيها عجزت عنه في بلدها..

كم هو موجع أن تجد نفسك تقفز بين ضفتي امرأتين..

امرأة تصنع ضعفك الإنساني الذي تشتهيه وتحنّ إليه لأنه يُخرجك من سجن العقل، ويعود بك إلى رحابة الفطرة الأولى بكل عفويتها وصفائها ونقائها.. مثل هذه المرأة تريدها زوجة حتى تغتسل في مرافئ عينيها من كل أخبار الدم التي تُروِّج لها الفضائيات.

وامرأة تصنع فجائعك الإنسانية التي تهرب منها.. إرثها التاريخي وملامحها الواعية بكل ما يدور حولها وتجبُّر حزنها تجتمع عليك لتدمّر كيانك وتلغي تاريخك لتكون هي تاريخك كله..مثل هذه المرأة تحتفظ بحبها محنطا في تابوت مفتوح، ولا تفكر بها زوجة لأنك لن تستطيع

لمسها حتى ولو جمعتكما غرفة مغلقة في جزيرة نائية.. وكيف للإنسان أن يقبض على فجائعه !!

سعاد.. لا أملك إلا أن أفكّر فيها زوجه تهدأ عند روحها الطيبة أنفاسي اللاهثة في ممرات عمر هارب..

إنعام.. لا أملك أن أفكر فيها زوجة لأنها ستشتت ما تبقى في الروح من هدوء وسكينة..

(١٢)

الإنتظار يجعلك بطلا في مصارعة الوقت الذي يهزمك في كل مواجهة، وقلق الإرتقاب يجعل منك سيد الحكي..

الإنتظار بطالة عاطفية تنحت من فراغك متسكعا في أروقة الذاكرة تقطعها جيئة وذهابا.. إنها فرصة لإعادة تعبئة ذاكرة مثقوبة، تبحث عن حكايا تملأ بها رصيدها الذي أوشك على الإندثار.

طالت أيام الترقب..

لا حرب.. ولا سلم

لا انتصار.. ولا هزيمة

بل تهديد ووعيد ووعد بالإنتصار الذي سيجعل من بلاد الرافدين مقبرة لحماقة أمريكا اللاتاريخ التي تجرأت على العراق التاريخ..

كل هذا كان حاضرا في خطابات الرئيس الحماسية التي كان يبثها التلفزيون العراقي وتُنقل طازجة عبر الفضائيات العربية... بغداد أيضا تعيش حالة ترقب واستعداد لحرب طويلة وأهلها يحفرون الخنادق داخل البيوت مع جلب أجهزة لحفر آبار الماء داخل البيوت وعند كل منعطف طريق وبين الأزقة والشوارع خشية انقطاع الماء

عندما تطول الحرب، فالماء سلاح قوي يهزمنا به العدو أكثر مما تهزمنا أسلحته، والخنادق تحمينا عندما نضرب العدو ونرتدّ إليها آمنين..

الأهالي كانوا يتوقعون حربا طويلة ويستعدون لها بكل الحيل التي يملكونها دفاعا عن وطن يشبه التاريخ، بل هو التاريخ في أبهى صوره..

أما نحن فلم نكن نملك إلا أن نكون عبيدا لسطوة الترقب الذي جعل منا أبطالا في الحكي.. رحنا نسرد خيباتنا لبعضنا البعض وكأننا نهمس بصوت خفي أنّ العرب نسخة متكررة وبائسة من الإنكسار.

كلما رأيت إنعام تجلس في ذلك الركن المنعزل من بهو الفندق أخطو نحوها..

أحس- في كل مرة- أن عينيها الغارقتين في الحزن توجّهان لي دعوة غير رسمية لحضور معارض انكسارها في وطنها.

قالت لي يوما وهي تبتسم لسجودي في محراب حزها الساحر:

- عندما أراك أحس تاريخي كله حاضرا..

لم أسألها عن هذا التاريخ الذي تراه حاضرا في وجودي، لكنها أجابت عن سؤال خفي قرأته في صمتي، كان ذلك ذات أمسية جلست وأياها في ذاك الركن المنعزل من الفندق والذي يقوم فيه عمود يكاد يخفي من خلفه:

- وحده تاريخ أبي يجعل الخيبة تتورط في دمي.. قبل نكسة ٦٧ كان ضابطا في الجيش.. عمري- حينها- سبع سنوات.. كم كنا نهابه لأنه لم يكن يبتسم لأحد.. عمله الدائم مع السلاح والأوامر والمواقع الساخنة ومجاروته لخطوط النار جعلوه يعتقد أن الإبتسامة عبث وحجة يلجأ إليها الضعفاء ليحجبوا عجزهم وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم.. عندما يدخل إلى البيت نحبس أنفاسنا لكي لا يتعثر بها فيحاسبنا عليها.. كلامه معنا كان أوامر يعطيها لكل واحد منا حسب سنه وجنسه.. كان أبا ببدلة رسمية، وكنت أعتقده زوجا ببدلة رسمية أيضا!! إلى أن دخلت غرفة نومه ذات يوم- ودون استئذان- فرأيته وأمي يجلسان على كرسيين متجاورين وهو يبتسم لها ويتحدث إليها بلين ممسكا بيدها. حينها أحسست الصورة الرسمية تتكسّر في داخلي ومشاعر جديدة تنمو وتغيّر علاقتي بأبي. أصبحت لا أجد حرجا في الجلوس إلى جانبه والحديث معه تمردا على زيه العسكري، بل كنت أتعمّد أن أنتظر عودته لأستقبله عند الباب بقبلات حارة كان يبتسم لها ابتهاجا بمشاعر أبوّة خفية، وكان أخوتي يستغربون هذا التغير المفاجئ في علاقتي بأبي وقدرتي على إحداث هرج في البيت دون أن يزجرني أو يصرخ في وجهي، وكانوا يجهلون أني وحدي من رأى أبي عاريا من زيّه العسكري..

وعدت يوما من المدرسة متلهفة على مشاعر دافئة بدأت تنمو، لأجد أبي منزويا في ركن من الصالون وأمي إلى جانبه.. كان يبكي!

أبي يبكي.!

أحسست أن أبا الهول وكل جثث الفراعنة المحنطة تبكي..أحسست أنّ النيل فاض لأمر جلل، وأنّ الدموع التي يسكبها أبي بعض من غضبه.. وأنا أرى أبي يذرف دمعا عزيزا- أحسست أنّ كل الأهرامات اقتربت من بعضها البعض واجتمعت لتصبح هرما واحدا تهدّم فوق رؤوسنا..

أبي يبكي.. !!

لم نستوعب تلك الدموع الحارقة التي سكبها في حضرة أمي وفي حضرتنا جميعا، لم نستوعب حجم الخسارة التي حررت دموع أبي وجعلته يبكي بهذه الحرارة التي حبستنا أمامها.

وعرفت بعدها أنها الهزيمة التي جاءت من رحم الخيانة.. عرفت أن الإحساس بالهزيمة- وحده- يمتد إلى عيون الرجال ويسحب ذاك الغشاء الوهمي ليجعلها تمطر!

نكسة حزيران جعلت أبي يبكي ويعزل نفسه عن عمله وعن الناس وحتى عن نفسه، وتحوّلنا نحن إلى أشباح تتحرك داخل البيت، لا نتحدث إلا همسا، ولا نمشي إلا سكونا، ولا تعرف الإبتسامة طريقها إلى وجوهنا. فالنكسة في بيتنا..

قلت لها محاولا التخفيف من حزن ظهر جليا على ملامح وجهها الجميل:

ـ ولكن العرب ثأروا لهزيمتهم وحققوا انتصارا على اسرائيل بعد أقل من عقد من الزمن.

قالت وهي تستسلم لانكسار بدا جليا في صوتها:

ـ الانتصار الذي جاء بعد سنوات لم يعده إلى سابق قوته وثقته بنفسه.. الهزيمة والإنتصار كالتشهير بأعراض الناس ثم الإعتذار عنه.. التشهير يكون في الصفحة الأولى من الجريدة وبالبنط العريض فيتلهّف الناس على قراءته، لكن محاولة التكفير عنه والإعتذار عمّا سبّبه من أضرار نفسية يكون في صفحة داخلية مغمورة وبخط غير مقروء، فلا ينتبه إليه أحد..

الهزيمة وجع واضح، أما الإنتصار فهو ومضة خافتة تأتي وتزول..

الهزيمة لها قدرة عجيبة على التناسل والتوريث واستعمار الذات، آما النصر فعادة ما يكون عقيما ينقطع نسله بموت صاحبه!!

• • •

والتقيت إنعام عند هذا البوح السخي.. أحسست أني أراها لأول مرة مع أننا التقينا منذ وصولي إلى بغداد وكان بيننا حديث موصول خلق ألفة ومودة..

التقينا.. جزائري مفجوع، ومصرية طاعنة في الوجع!!

جزائري قادم من وطن أتت الفتنة على الأبيض والأخضر اللذين يشكلان لون علمه ولم تترك غير الأحمر ينزف بنجمة تهوي، وهلال يتناقص ليترك مساحة واسعة لدمٍ موجع..

ومصرية هربت من وطن شوهته النكسة التي أحنت ظهورنا سنين عديدة حتى تقوست، ولم يفلح أي انتصار في ترتيب جمال تناثر عقده..

التقينا.. رجل يحمل في يمين قلبه تأوهات وطن تاه بين عَرقه ودمه، وامرأة آتية من خيبتها في وطن تورّط في دم زوجها كما تورّط في انكسار أبيها حتى الموت..

التقينا عند مدخل شريان أرض تقاوم من أجل ألاّ يكتب التاريخ يوما « ليلة سقوط بغداد «.

آه.. أيتها المرأة التي نبتت من خيبتي.. معك- رغم كل سحابات الحزن والشجن التي تظلل سماءنا- أحس بألفة العالم.. تعيدني أنفاسك إلى بكارة الإحساس النقي ونضارة الرؤيا..

إنك معي دائما، أحملك وردة في عروة القلب ونسمة في فضاء الروح.. أستحضرك في كل لحظة توق ونبضة حنين..

أيتها المتورطة في دمي.. دليني كيف أمسح عن محياك الجميل هذه الغيمة التي أراها مقيمة عندك ؟

كيف أغسل قلبك من كل هذا القنوط ؟ وكيف أعيد إلى شفتيك تلك الإبتسامة التي يُشرق بها وجودي، ويتهلّل وجه الدنيا في عيني ؟!!

حاولت أن أجد لونا أو اسما أو قالبا لهذه العلاقة التي تربطني بإنعام.. الأكيد أنها ليست صداقة، فأنا القروي العالق بتربة قريته لم أؤمن يوما بالصداقة بين الرجل والمرأة حتى وأنا أدخل الجامعة التي يصبح فيها هذا الكائن الأنثوي الرقيق جزءا من حياة الرجل، يجده ملتصقا به في المدرج الجامعي وفي المطعم وفي تفاصيل حياته الصغيرة والكبيرة..

رواسبي الريفية التي تسبق أغراضي إلى حقيبة سفري تجعلني أعتقد أن الصداقة بين الرجل والمرأة مفتوحة على كل النوايا التي تبدأ طيّبة وتنتهي خبيثة، وأنا لم أحمل لإنعام إلا نوايا طيبة منذ صافحت وجهها الصافي وعينيها الغارقتين في حنان آسر .

لم أكن أراها جسدا أنثويا رقيقا يتحرك أمام رغبات رجل، بل أجدها روحا ترفرف وتحط على غصن طريّ مازال شامخا في غابات تيبّسي وجفافي..

من حين لآخر أجد نفسي أضع يدي على صدري وأتحسّس هذا الإحساس الجديد الذي ينمو بداخلي.. إنه يتناسل بقوة غريبة، وأخاف

أن يصبح عملاقا يصعب عليَّ السيطرة عليه.. هو يختلف عن أي شعور جاورني ما فات من عمري..

أحب سعاد، ولا أتصور نفسي أتنفس في عالم تغيب عنه، ولهذا حملت طيفها معي حتى ليجاورني عند خط النار..

أحب أختي مريم وأحسها قريبة من نبضي رغم بعدها عني..

فما هذا الذي أحسه ؟!!

إنه الإحساس بالإنتماء.. إحساس اختصرته هي في جمل متقطعة، كأنها تلخّص لي درسا في تاريخ العلاقات الإنسانية : « ما بيننا صداقة كان أو أخوة والذي أحسب أنه من البديهيات التي لا تحتاج إثباتا أو سياجا واقيا.. أعتقد أن ما بيننا أقوى من الصداقة، وأعمق من الأخوة وأسمى من الحب ذاته.. أنا أسمّيه انتماء.. مثلما ينتمي الإنسان إلى وطن وأهل وعشيرة تجعله يُسند رأسه لمهجع آمن، ويعتقد أنه بسلام وطمأنينة.. كذلك ينتمي إنسان إلى إنسان آخر فيحس أن العالم أكثر أمنا وجمالا.. أنا أنتمي إلى جغرافية وجعك، وأنت تنتمي إلى تاريخي يُتمي».

كم كنت بارعة في تصوير إحساس عجزت أن أقبض على جوهره !!

نعم... أحس أني انتمي إليك، وأنك تنتمين إليَّ فكرا وإحساسا ووجدانا..

معك.. أحس أني أتخطى حدود العقل، وأفلت عن مساره المرسوم ليخلّي مكانه للروح.. خروجنا عن أحكام العقل الجائرة هو خروج مشروع مثل خروج الشعوب المغلوبة على أمرها على حكامها الطغاة..

هو خروج من سجن العقل وعودة إلى رحابة الفطرة الأولى بكل نقائها وبساطتها وعفويتها..

لم أكن أجد حرجا أن أحدثها عن سعاد.. وعن حبي لها وشوقي لرؤيتها، وتفاصيل صغيرة عالقة بالقلب.. حدثتها حتى عن هذا السفر الذي أجّل خطبتنا الرسمية، وعن رغبتي في أن أعود سريعا لأجل أن يجمعنا بيت واحد..

ولم تكن هي ترى أي حرج في الحديث عن زوجها الصحفي الذي صدمته سيارة مجهولة بعد أن فتح ملفات الفساد والرشوة التي انتشرت في كثير من الشركات والمصانع..وتذكرني دائما بأنه الرجل الوحيد الذي أعاد إليها توازنها وصالحها على الحياة بعد وفاة أبيها، ولهذا عاهدت نفسها على الوفاء له بأن لا تكون زوجة لغيره..

كنا نتحدث عن جغرافية أوجاعنا أكثر ما نتحدث عن حرب قادمة، وكأننا كنا نجهل سرائرنا وذواتنا حتى إذا التقينا ونظر كل منا في وجه الآخر عرف ذاته.

إنه نوع فريد من الحب.. الحب السامي المكتفي بذاته، المنزّه عن الأنانية والأثرة أو غريزة التملّك، لذا فهو يتعايش بسماحة ورضا مع ما هو

كائن، ويقنع بما تيسّر من ماء وهواء وضياء ليتنفس ويزهر ويزدهر.. لا يزاحم حب أحد، ولا يتجاوز حدود أحد، حب واثق من نفسه..

كل صباح.. وهي تعبر الرواق وتنقر على بلاطه الرخامي، أحسها تنقر على بوابة قلبي، وتعبر من غير اكتراث إلى ممراته السرية التي لم يعبر إليها أحد قبلها..

الأساطير تغري البطل- دائما- بباب مغلق يحذره الناس من فتحه، لأنه قد يُفتح على مجهول يبتلعه.. ويبقى الباب مقفلا حتى يظهر ذلك البطل الذي لا يعرف الخوف ولا التردد، فيقتحمه، ويكتشف كم هو مليء بالنور !!

كنت أرى مقبض الباب يتحرك ببطء دافئ يسري في أوصالي، وأجد الباب يُفتح بهدوء عال على وجهها المشرق بلون الوطن، وهي تهمس بصوت ندي ينزل على قلب يُشرف على الهلاك، فتحيّيه بغيث مبارك يُنبت حرثه ويحيي زرعه الذي يئس من طلعه «صباح الخير».

أنتبه من حلم موؤود فلا أرى أثرا لوجهها المشرق.. بل بابا مقفلا على كل الخراب الذي يتمدد في داخلي وينام آمنا.. خراب أوطان تطاردنا بنكساتها حتى في فراش دافئ..

أنتبه.. أسحب يدي اليمنى نحو صدري، وأتحسّس هذا الشعور الطاغي الذي ينمو نحو امرأة التقيتها على خط النار..

لم أجرؤ أن أهمس لنفسي أني أحببتها.. وأي حب هذا الذي يولد على خط النار ؟!!

أي حب هذا الذي يتكوّن في رحم موت مؤجل ؟!!

الأكيد أنه سيكون مشوّها، وسينجب مشاعر بإعاقات مختلفة !!

أصبحت ألازمها في خروجها ودخولها، وكانت هي ترتاح لذلك.. ملامح الرضا التي كانت تظهر على وجهها تهمس لي بصوت يتحرك في دمي ويغذي إحساسي الذي يتجبّر يوما بعد آخر « العالم أكثر أمنا وأمانا وأنت فيه».

وكنت أرد عليها بصمت يصل إلى سرها كلمات دافئة «وعالمي أكثر اضطرابا وأنت تعبثين باستقراره وأمنه، ومع ذلك أشتهي وجودك فيه».

يا امرأة عصفت بهدوئي وقلبت تاريخي !!

يا امرأة عبثت بخرائط جغرافيتي.. ألا تعلمين أن القلوب كالأمم، منها القوية التي تحمل أسباب ضعفها، والضعيفة التي تحمل أسباب قوتها.. ومنها التي تراوح مكانها لا قوة ولا ضعف.!!!

عندما أخلو إلى نفسي في غرفتي بالفندق، أستلقي على سريري، وأتحسّس موضع سعاد في قلبي فأجده كما هو: بهيا، شامخا ومتألقا، ولم

تتزحزح عنه صورتها قيد أنملة، وإلى جانبها أجد صورة إنعام وهي تتطلّع إليّ بعينيها الغارقتين في حزن تاريخي، وابتسامتها الأسطورية التي تحاصرني بها أينما حلّت..

هل يمكن أن يتجاور حب امرأتين في قلب رجل واحد دون عراك أو صدام؟

هل يمكن للرجل أن يجمع في صدره بين صورتين لامرأتين برائحتي حب مختلفتين دون أن تختلط رائحة الأولى بالثانية أو تزاحمها ؟

هل يمكن أن يلتقي وجهان مشرقان في كف رجل واحد دون أن يخمش أحدهما الاخر ويتهمه باختراق حدوده الامنة ؟

سعاد وإنعام يتجاوران في قلبي في سلام ووئام، بل ويتعانقان أحيانا في تلاحم لا أفهمه، ولا أعرف سر هذا السلام بينهما.

(١٣)

الأيام ـ على قلّتها ـ تتمدد على وجودنا بالعراق وتحيلنا من بيان إلى آخر، ومن خطاب ملتهب إلى خطاب ثائر..

كنا نشعر بكثير من الحماسة وعودة الأمل عندما كان الرئيس العراقي يعد العرب بالنصر وإعادة تصنيع العزة العربية، ويتوعّد بالهزيمة التي تزلزل أسطورة أمريكا.. نظرية الهرم الحضاري التي تحدّث عنها ابن خلدون ستأتي على أمريكا في بلاد الرافدين.. ابن خلدون يرى أنه لا توجد حضارة عمّرت، حتى الحضارة الإسلامية.. الحضارة كالهرم تبني نفسها من قاعدة، ثم تبدأ في الصعود والهيمنة، وعندما تصل إلى قمة الهرم تبدأ في الإنحدار لتهوي وتقوم على أنقاضها حضارة أخرى..

هي ذي حضارة أمريكا وصلت إلى قمة الهيمنة والسيطرة وستهوي هنا في بلاد الرافدين..

هنا.. سنثأر من هذا الشرطي المتجبّر الذي حبس أنفاسنا وتدخّل في ترتيب بيوتنا، وظلّ يرانا مجرد براميل للنفط يستنزف ما فيها ثم يدحرجها لتهوي إلى الجحيم. كل عربي برميل ممتلئ سرعان ما يُفرغ وينتهي إلى مزبلة لا اسم ولا شاهد لها..

هنا.. سنثأر من هذا الشرطي الذي يملك قدرة خفية على أن يندسّ بين جلدنا وعظمنا ليفجّرنا فقرا أو ذلا أو إرهابا..

هنا.. سنقتل نظرة الآخر إلينا.. نظرة تقول أنّ العربي إما أن يكون رشاشا معبئا بالسلاح فاجْتبْهُ أو أَبِدْهُ أينما كان، أو يكون برميلا معبئا بالنفط فاستنفذهُ حتى آخر قطرة فيهِ ثم دعه يتدحرج إلى الهاوية.. ولكنه لا يمكن أن يكون إنسانا !! العربي ظلّ ولا يزال طفلا صغيرا لا يحسن تسيير أموره ويحتاج إلى وصيّ يدبّر له شؤونه.. العربي سفيه ورث مالا كثيرا ولا بد له من قوي وعاقل يسيّر ماله مدى الحياة !!

هنا.. سنثأر من هذا الآخر الذي ظلّ يضرب المشرق بالشرق، والمغرب بالمغرب ويصفّق للمنتصر ليحوّله مشروع منهزم عندما يضربه بالآخر.

هنا.. سنرمي بوسادة الخنوع ولحاف الإستسلام في نهر الرافدين، بل سنرمي بسنوات الإستسلام ونغتسل كما التائب من ذنبه !!

ولكم شعرنا بالعزة والعنفوان عندما عرض علينا التلفزيون العراقي صور صدام وهو يجول شوارع بغداد في الرصافة، رأيناه وهو يسلك شارع فلسطين وعدد كبير من المواطنين قرب الجامعة المستنصرية يصفق له ويحيّيه، كان يرتدي ملابس مدنيّة وكأنه يقول لنا إننا في نزهة ولسنا في حرب، وهؤلاء الذين جاؤوا إلى ديارنا لن نزيد على أن نحفر لهم قبورا، وحفّار القبور لا يحتاج إلى ملابس رسمية أو عسكرية،

يكفي ما ستر من الثياب، ويكفي فأسا لا يحتاج إلى عضلات مفتولة ولا إلى جهد كبير كي يشق حفرة يُنزل فيها من انتهى أجله. وأمريكا انتهى أجلها منذ الإنزال العسكري لها في العراق، وحان رميها في حفرة حتى تكون عبرة لمن تسوّل له نفسه أن يدوس مهد الحضارات ويدنّس ملامحها التي ظّلت متألقة وفاتنة..

خروج صدام المفاجئ ونبرة التحدي التي لم نسمعها منه بل قرأناها في ملامحه، أخرجتنا من عنق الزجاجة وجعلتنا نحس أنّ المعركة لا تعدو أن تكون فسحة للجيش العراقي واستعراضا مبرمجا لقواته الجوية والبرية، وأنّ المطار سيكون المقبرة الأولى للمارينز..

شعرنا بقلق شديد عندما وصلتنا اخبار تتحدث عن وصول الدبابات الأمريكية إلى قلب بغداد خصوصا القصر الجمهوري والمواقع السيادية في العراق، لكن وزير الإعلام العراقي عقد مؤتمرا صحفيا كذّب كل هذه الأخبار واعتبرها مجرد إشاعات تريد أن تنال من عزيمة الجيش العراقي الذي لا ينهزم.. الندوة الصحفية كانت مختصرة جدا، ولهذا لم يفلح الصحّاف في تبديد مخاوفنا خاصة وانّ الأخبار تشير إلى أن الدبابات الأمريكية تتخذ لها مواقع عند جسر الجمهورية الذي يربط كرخ بغداد برصافتها..

ومع هذا القلق الذي كان يعضّ على أمننا ويجعله يئنّ حينا، كانت الأحلام غير المشروعة تتمشّى في أجسادنا وعقولنا وتسلمنا إلى نشوة لم نشعر بها منذ زمن بعيد، ونتجاهل كل الأخبار التي تشوّه الرغبة في الانتصار.

وفجأة حبس الزمن أنفاسه..

سقطت بغداد!

تهاوت أحلام الشموخ..

تناثر عقد الرجاء الذي كنا نتجمّل به..

وسخرت منا سمكة أفريل لأننا صدقنا وعود حاكم عربي..

• • •

لا ندري أي زلزال ضرب الأرض!!

أي صاعقة نزلت من السماء فأحرقت رؤى كانت تتهادى على حبل الأمل والرجاء !!

بل، أي طوفان جرفته محيطات العالم، ومسح على حلم كنا نهدهده صغيرا، ونأمل أن يكبر !!

فتحنا أعيننا ذات فجيعة على انقطاع في الراديو والتلفزيون، وانتشار رهيب للدبابات الأمريكية في المساحات الكبرى لبغداد وشوارعها.. وعرفنا بعد ساعات أن بغداد سقطت دون مقاومة، وأن المطار كان

خاليا من قوات الحرس الجمهوري والجيش العراقي، وعامرا بأقدام المارينز التي تسير على صدى كبرياء كاذب !!

هكذا تهاوى كبرياؤنا أمس.. وهكذا يهوي اليوم.. وهكذا نهوي كالذباب غدا..

من قال أن الحكومات تصنع المقاومة أو ترغب فيها أو تسعى إليها؟!!

حتى الشعوب التي كانت تصنعها أنهكها الرغيف الحافي والدم المباح، وأصبحت غارقة إما في عرقها وهي تسعى لكسب قوتها، أو سابحة في دمها وهي تدافع عن حقها المشروع في الحياة.

كان فطورا موجعا هذا الذي قدمته لنا الآلية الأمريكية..

لم تمهلنا حتى نرفع جفوننا من نوم ثقيل، أو نغيّر ملابس النوم لنستقبل الهزيمة بملابس رسمية، بل اقتحمت عزتنا ونحن عراة، كما تضبط شرطة الآداب نساء ورجالا يمارسون الدعارة فتسحبهم على وجوههم دون أن تترك لهم فرصة ستر عوراتهم وفضيحتهم!!

أجهشت على غفلتنا وهي تهمس ليقظتنا المتأخرة: «لا يُسلب حق إلا وأهله نائمون»

هرعنا جميعا إلى غرفة عمار وكأننا نهرب بالغصة إلى الغصة، وبالفجيعة إلى الفجيعة، وبالخيبة إلى الخيبة.. وقفنا في شرفة غرفته نتزاحم على شبر

معلق لنتفرج على مدينة تهوي بتاريخها وجغرافيتها وتسير إلى مصير مجهول.

قال منصور بكلمات بائسة:

ـ كان أملنا في المقاومة كبيرا..

أجبته كمن يتماسك أمام مصاب جلل:

ـ لا ندري بالضبط ماذا حدث، قد تكون خطة من القيادة العراقية.. أكيد سيطبقون على هذه الآليات الزاحفة..

قال منصور وهو يغادر الشرفة ويسحبنا بيأسه إلى داخل الغرفة لنهوي بأجسادنا ومرارتنا في أماكن متناثرة.. بعضنا جلس على حافة السرير، والبعض ظل واقفا بينما جلست أنا على الكرسي الذي يجلس عليه عمار كل يوم وهو يكتب يوميات فجائعه في بغداد لكي يوثقها بالصور، كما حدثني يوما:

– لا شيء سيحدث.. إنها النهاية، فقد تعوّدنا ألا نفكر فيما ضاع منا لأنه لن يعود، بل نفكر كيف سنحافظ على ما تبقّى في خرائطنا من أمتار لأجسامنا التي ستنتهي بمذبحة أو مجزرة أو انفجار أو اغتيال سافر معلّب يأتينا من الداخل أو من الخارج..

قلت وأنا أتراجع عن أمل كان يراودني في أن يكون ما حدث خطة مدروسة:

- صدقت يا صاحبي.. كل عربي مشروع مقتول.. كل عربي يحمل قبرا مفتوحا ويتحرّك به أينما ذهب ويتوقّع أن يقع فيه بين اللحظة والأخرى.. قبر قد ندفن فيه بعض أجسادنا أو نصفها.. ونكون محظوظين وهو يضم الجسد كاملا، ساعتها لن نكون شهودا على أحلام مشوّهة ومعاقة..

ردّ عمار بعد صمت طويل وكأن كلماتي نكأت جرحه المكشوف:

ـ نحن أكثر الأجيال وجعا.. بدأنا نقتات من رائحة الرصاص ونحن في بطون أمهاتنا، وعندما فتحنا أعيننا كان لا بد أن نصرخ، ليس فرحا بالميلاد بل رفضا للقهر والظلم واستعدادا للمقاومة التي تدرّجت معنا في مقاعد الدراسة.. نحن جيل عاشرنا الخوف من الآتي، حتى ونحن نحبّ ونتزوج ونختلي بزوجاتنا كان لا بد أن يكون الإحساس بالقهر ثالثنا.. بل يسبقنا إلى فراشنا ويتخذ له وسادة ثالثة !!

كل منّا كان يعبّر عن صدمته بلغة وطنه وحجم فجيعته فيه.. اقتسم حديث الهزيمة عمار وناصر ومنصور وإلهام وصحفيون آخرون وجدوا في غرفة عمار مساحة مهرّبة من زمن الخزي.....

انتبهت من صدمتي..

إنعام ليست بيننا.. ماذا فعلت بها صدمة الإستسلام وهي الهاربة بخيبتها من زمن الإنحناء إلى زمن اعتقدته شامخا.

تركت أصحابي في الغرفة ملتفين حول مائدة الانكسار يتقاسمون وجع هزيمة مبكرة خرّبت ما بقي من الرجاء في مدينة السلام.

أسرعت إلى ذاك الركن المنعزل في بهو الفندق.. ذاك المعبد المُهرب من زمن سخي تعودّت أن تجلس فيه كلما أرادت أن تختلي بنفسها، أو رغبت في الحديث إليّ. كانت تقول لي: «لا أريد أن أشغلك بالبحث عني، ستجدني هنا كلما أحسست أنك تريد أن تغتسل من أوجاعك، وحدسك سينبئك أني أيضا أريد أن أغتسل من أوجاعي وسيقودك إليّ..».

خطواتي كانت تسابق الثواني لعلّني أنقذها من السقوط في هاوية الإحساس بالهزيمة والانكسار، وهي التي تجلس على شفا حفرة منها.. سقوطها سيكون سهلا ولا يحتاج إلاّ إلى نفخ واهن من شبح يأتي من خلفها، وهي التي اكتملت عندها كل عناصر النهاية منذ النكسة..

أفزعني المكان وهو يصرخ بفراغ رهيب.. فراغ مزلزل سمح للخرافة أن تسيطر على اعتقادي..

هل عصفت بها رياح السقوط.. فالمدن الوفية تحضن أبناءها الطيبين وهي تهوي حتى تجنّبهم مغبة التورّط في خيبة كبيرة!!

هرعت إلى غرفتها..

الإرتباك كان يسبقني إليها..

مجرد التفكير في الدخول إلى غرفتها يعصف بهدوئي ويربكني.

لم أفعلها من قبل. ولهذا وقعت في حيرة من أمري.

هل سأطرق بابها ثم أنادي عليها حتى تتهيأ لملاقاتي؟! أم أنادي عليها ثم أطرق الباب حتى لا أخدش صمتها الذي تغرق فيه؟!! أم أنادي عليها وأطرق الباب في آن واحد ؟!!

ماذا لو دخلت ووجدت أنها لا زالت نائمة ؟!!

هل سأوقظها على فجيعة السقوط؟ أم سأسحب الغطاء على صدرها وكتفيها الباردتين، وأنحني لأطبع على جبينها قبلة دافئة كأب يرى أن ابنته أصبحت وحيدة ويتيمة حتى في حضوره؟!!

هل سأرجع أدراجي إلى حين يقظتها؟ أم سأجلس عند سريرها أحرس هدوءها وأمنها، وأدفع عنها أي خطر يحدق بها حتى ولو كان نبأ سقوط بغداد؟ !

وتهاوى ارتباكي عند بابها الذي كان مفتوحا على انكسارها!!

رأيتها جالسة على سريرها مثل ملكة انهزمت وداسوا على تاج ملكها.. كانت تميل برأسها إلى الخلف وهي تسنده إلى وسادة لم تعد خالية.. بل عامرة بكل فراغات هذا العالم..

أحسّت بخطواتي تقترب منها، لكنها لم تحرك ساكنا. اقتربت منها أكثر فرفعت بصرها وهي تلتفت إلى لهفتي عليها..

كانت تبكي.. دموعها صامتة كأقسى ما يكون الصمت، وحارقة كأشد ما تكون الحرقة على أمل ضائع هو آخر ما يربطنا بالحياة..

يا أللّه.. كم هي موجعة هذه الدموع التي نذرفها على وطن تكسّر!!

كم هي حارقة تلك الدرر الغالية التي نسكبها على أرض كانت شامخة، لكنها ترنّحت وهوت دون مقاومة تُذكر !!

كم هي قاتلة هذه الآه التي تخلّفها نخلة ظلت تتناسل كبرياء، لكنها انحنت ومالت منكسرة !!

وكم هي جليلة دموع امرأة لا تبكي زوجا ولا ولدا.. بل وطنا !!

عندما تخرج دموع المرأة عن إطارها المألوف، تكون هروبا من ضعف تورّطت فيه..

إنها تبكي.. قلبي يئنّ لدمعها.

آه.. كم هي حارقة دموعك أيتها المتسللة إلى دمي !!

تخيلتها عبد الله الأحمر.. وكنتُ أمه التي تجلده بحقيقة ضعفه:

ـ هل تدركين ما أمرّ من الهزيمة؟!!

أجابت بصوت يشبه النحيب:

ـ الخيانة.. الخيانة التي لازمتنا منذ ولادتنا.. الآن فقط وجدت تفسيرا للدمع الذي كان يذرفه أبي عند النكسة.. لم يبك الهزيمة لأنها نهاية منطقية كالنصر، ولكنه بكى موجوعا بالخيانة.

ـ لماذا ننكسر دائما بهذه السهولة ؟

ـ لأن الخيانة أقرب إلى دمنا من الوفاء.

ـ لماذا نعجز دائما عن الدفاع عن أحلامنا ونتركها تهوي أمام حسرتنا ؟

ـ لأننا لم نملك أمرنا يوما، ونسير خلف حماقات حكامنا كقطيع غنم.

ثم اعتدلت في جلستها وكأنها انتبهت لحضوري الأول في غرفتها.. وقفت أمامي لكن دمعها ظل جبّارا لم تقو على مقاومته حتى وهي تقف على بعد خطوة مني..

وقفت أنظر إلى وجهها الذي يبلله الدمع.. هذا اللون من الدمع لا يحتاج إلى أنامل رقيقة تمسح حرقته.. بل يحتاج إلى صدر موجع – مثله – يهوي عليه بكل تاريخه المنكسر وجغرافيته الموؤودة، وانتمائه الذي أصبح كرة ثلج فانية..

المسافة بيننا تقلصت.. لست أدري أأنا الذي اقتربت منها، أم هي التي سعت إلى صدر اعتقدته آمنا.

أنفاسي أصبحت قريبة جدا من أنفاسها.. حرّكت شفتاها كأنها تنوي أن تبوح لي بسر يتعلق بمدينة لم تعد آمنة، لكن الكلمات كنتُ أحسها

تنتحر عند غصة في حلقها... لم أفاجأ وهي تهوي بوجعها على صدري لتقتل كل إحساس غير بريء نما في قلبي نحوها.. أحسستها أختا آتية من زمن اليتم تتحسّس وجه أخ دافئ في زمن الصقيع !!

قفزت إلى ذهني صورة أختي مريم وهي تدفن رأسها في صدري وتبكي في أخر فراق..

الفجائع كالأم الولود، تنجب لك أخا أو أختا عند كل خيبة !!

دموع إنعام كانت حارة وموجعة وهي تنزل على كل حقول السراب التي نبتت فيها أفراحي ومواجعي.. ورأسها الذي هوى على صدري كان عمرا إضافيا لهمّ حملته معي من الجزائر إلى بلاد الرافدين

عندما تبكي على صدرك امرأة بحجم القلب، تعْبُرُ على المحطات التي تعثرتَ فيها في كل مراحل عمرك وتنهض متكئا على عصا الرجاء حينا، ومستندا إلى شجرة طاعنة في اليتم حينا آخر، ومشوّه الحواس والمشاعر في كثير من الأحيان..

وعندما تبكي على صدرك امرأة بحجم الوطن، تفتح كل مدن الخراب التي حاولتَ أن تُحْكِم قفلها حتى يعبُر إلى وجهك ضوء ولو كان شاحبا..

لكن.. عندما تبكي على صدرك امرأة بحجم انتمائك الفجائعي، فإنها تعرّي يُتمك التاريخي وتجعلك تبدو كما ولدتك الصدمة في وطن ظل حافيا !!!

بكت إنعام على كتفي بدموع صامتة لاصراخ فيها ولانحيب، لكنّ حرارتها وصلت إلى صدري..

ووجدت نفسي أمدّ يدي إلى رأسها وأمسح على شعرها الناعم لأجعلها أكثر تعايشا مع الهزيمة.

(١٤)

وانقشع ضباب الحيرة بعد حين لتتجلى الحقيقة مفزعة، واكتشفنا أنها النهاية التي تجرّ معها نهايات أخرى.. وخرجا جميعا نصور لحظات السقوط ونقيس نبض فجيعة أكلت من أملنا..

الساعة الرابعة عصرا.. سماء بغداد حزينة جدا، لكنها لا تمطر، فالدمع يخفف بعض الوجع، وهي لا تريد أن تشفى من وجعها..

أرض بغداد تئن لكن أنينها لا يسمعه إلا القريبون من قلبها..

قلب بغداد ينزف دما وهو ينظر بعيني الحسرة إلى حضارة أصبحت عند قدمي الحماقة تركلها متى تشاء..

الساعة الرابعة عصرا..

لا أثر للسلطات العراقية في الشوارع، ولا حول الفندق الذي خرجنا منه.. بعض الدبابات الأمريكية بدأت بالوصول إلى ساحة الفردوس من عدة اتجاهات وطوّقت المكان.

عشرات العراقيين تسلّقوا تمثال الرئيس صدام حسين وحاولوا إسقاطه، ليتأكدوا من أن هذا الغول الذي كانوا يخيفهم ويجعلهم ينامون بعيون مفتوحة أصبح في متناول أيديهم ويعبثون به كما يشاؤون، لكنهم فشلوا

في أن يصيبوا شيئا منه. ورأينا رافعة أمريكية تتقدم من ساحة الفردوس صوب التمثال وقبل أن تهوي به صعد جندي أمريكي وغطى وجه تمثال الرئيس بالعلم الأمريكي.

تألمنا جميعا لهذه الجرأة التي سحبت منا آخر جرعة للكبرياء كنا نحتفظ بها للرمق الأخير، لكن هذا التصرف أثار احتجاج الحاضرين ودفع بهم إلى استبداله بالعلم العراقي..

وهوى التمثال.. وهوت بغداد..

كل الصحفيين كانوا منشغلين بتصوير تمثال الرئيس وهو يهوي ساجدا أمام خيبته، منحنيا عند قدمي أرض تئن.. الصحافة العالمية كانت حاضرة لتصور كل مراحل سقوط التمثال والهستيريا التي أصابت العراقيين وجعلتهم يضحكون وعيونهم دامعة، ويرقصون فرحا وقلوبهم تنزف..

كنت وحدي- الذي لم يقف طويلا أمام سقوط التمثال بل ركزت على صورة تؤرخ لهزيمة ممتدة فينا، هذه الهزيمة التي ظلت تتناسل حد التشبع.. كانت صورة جندي أمريكي يعتلي دبابته الجاثمة في ساحة الفردوس، وهو يلوك بين أسنانه قطعة «علك» ثم ينفخ منها بالونة تكبر حتى تغطي وجهه وتفرقع في الهواء، ويعيد «العلك» ليلوكه مرة أخرى وينفخ منه بالونة اخرى، وكأنه يقول لصاحبه الذي يجلس إلى جانبه «ليس أسهل من أن تدوس عربيا وتهزمه لأنه مهزوم في أصله، ويحمل أسباب نهايته وفنائه.. ».

أحسستُ وكأنه يوجّه لنا خطابا بأنه قادر على أن يحتل بيوتنا وجيوب قلوبنا، ويعرّي عورة كبريائنا.. قادر على أن يطيح بحكّام كنا نعتقدهم في بروج عالية، ويمنحنا إمكانية العبث بوجوههم التي ظلت شامخة تنظر إلينا كمواطنين لا حق لها إلاّ في الإنحناء... العربي قطعة «علك» يلوكها بين أسنانه، يصنع منها بالونة متى شاء، ويفرقعها متى شاء.....

التمثال كان يهوي أمام غضب أحمق...

لم يكن يعنيني هذا التمثال الذي هوى، فكثير من الزعماء في العالم انتهوا أو أنهوا حياتهم بطريقة مأساوية، وقليل منهم من يكون موته بعد مرض.. حتى المرض يفسّره عامة الناس بأنه لعنة أصابته بسبب ظلمه وتجبّره، حتى لو كان غيره من العامة من أصابه من المرض ما هو أشد منه.

لم يكن يهمّني هذا الذي بصق الناس على ملامح وجهه، «وبال» بعضهم على صورته كأحقر شعور للتعبير عن الانفلات والانقلاب والانتقام.. كل ما يهمني هو ساحة الفردوس التي أصبحت مزبلة للتاريخ وهي تكشف عن عيوبنا، وتعرّي شعبا يرسم الخطوط الأولى لجغرافية نهايته.. ساعتها قفزت إلى ذهني صورة غرناطة وهي تهوي كآخر مدينة في جنة الأندلس...

الليلة التي سبقت الإستسلام كانت أطول ليلة تمرُّ على بشر تجمَّعت بيمينه كل أخطاء آبائه كإرث أصبح هو وصيا عليه.. الأندلس اقتُطعت

من جسد الأمة قطعة بعد الأخرى ليأتي هو ويسلّم القطعة الأخيرة عن طوع يشبه الكراهية، أو عن كراهية تشبه الطوع وليكون شاهدا على قبر كان مفتوحا..

كان يبكي نفسه، ولم يكن يبكي عرشه الذي أصبح مهترئا حين دخلت عليه أمه وصفعته بحقيقة ضعفه: «إنك تبكي بكاء النساء على ملك لم تحافظ عليه حفاظ الرجال..»

الصفعة كانت هناك.. ليلة سقوط غرناطة..

هنا.. ليلة سقوط بغداد..

هنا.. في ساحة الفردوس، لم يجدوا أما حكيمة تعلّمهم فن البكاء وتؤنّبهم على ضياع وطن كان شامخا حتى اللحظة الأخيرة، بل تاهوا في حقدهم وتورّطوا في رغبة الإنتقام من ضعف سكنهم طويلا..

هنا.. في ساحة الفردوس، وسط هذا الركام الباهت لم أنس إنعام، كنت أتحسّس صورتها ونبضها الذي أصبح بعض دمي ومن نسبي..

ورأيتها هناك إلى جانب عمار تقف عند قدمي التمثال الذي هوى حافيا، وكأنها مهندسة تعاين عمارة تصدّعت وهوت على من فيها لأن المواد التي قامت عليها مغشوشة، وكان عمار مصورها الذي يلتقط صور انهيار العمارة من كل الجهات والزوايا حتى يكون التقرير كاملا.

تقدمت منهما قائلا:

ـ يكفي ما شربنا اليوم من خيبة، فالمدينة ستغرق في خراب أكبر يجعلنا نشرب حتى الثمالة.

عندما رجعنا إلى الفندق كانت الهزيمة تحفر على وجوهنا أكثر من التعب..

قالت إنعام بكثير من السخرية الممزوجة بملح الفجيعة:

ـ ترسّخ في اعتقادنا أن حكّامنا ملوك يستحيل الإطاحة بهم، لكن في فلسفة غيرنا ليس أسهل من أن تطيح بحاكم عربي وتجعله كرة يتقاذفها حقد الشعوب التي كتمت أنفاسها زمنا طويلا.. حكام يتناسلون- فقط- ليجعلوا الحكم في أولادهم...

لم يرد عليها أحد..

الصدمة أخرست ألسنتنا. وانشغلنا بإرسال تقارير وصور إلى مختلف وسائل الإعلام التي نمثّلها.. تقارير الموت أهون بكثير من تقارير الهزيمة، وصورة الإحتضار أقلّ ذلاّ من صورة الانكسار..

كل واحد منا حاول أن يرسم الهزيمة بلون يتناسب وتوجهات جريدته أو الجهة الإعلامية التي يمثلها.. كنا ننقل هذا الصمت المرعب الذي صحب الإستسلام المريب لمدينة كانت تبدو شامخة..

بغداد.. أيها الجرح الذي انفتح في جدار خيبتنا !!

بغداد.. يا عزة ورثناها مع ملامحنا فهوت، وهوت معها كل تفاصيلنا الجميلة لتتلقفنا الأرصفة الباردة أجسادا بلا ملامح !!

بغداد.. هل مازال في احتياط عمرنا ما يكفي لنعيد لك بعض التألق ؟!!

بغداد.. صمتك لم يدم طويلا..

سرعان ما أصبحنا نسمع رصاصة هنا، وأخرى هناك.. وتناسل الرصاص ليصبح طلقات مدافع تدمّر بقايا أمل يقتات من صبر خفي..

وانفتحت المدينة على خراب غير مبرمج.. ودبّت الفوضى، وداهم اللصوص المصارف الحكومية والأهلية، واستباح آخرون مؤسسات الدولة وأفرغوها من محتوياتها، فيما لزم السكان بيوتهم في انتظار انجلاء الموقف.

(١٥)

ـ أين كنتِ؟

لست أدري من منحني شرعية السؤال والصراخ ـ بكل هذا الغضب ـ في وجه امرأة لم يمض على لقائي بها سوى أيام مقتطعة من عمري الذي حبسه التوقيت البغدادي على خط غير مستو.

ـ لماذا تأخرت؟

لست أدري من منحني الحق في أن أحاسب امرأة على تأخرها في الشارع ولا يربطني بها سوى أيام جمعتنا عند خط الترقب ثم خط النار؟

• • •

لم أستيقظ مبكرا هذا الصباح، هاجرني النوم إلى وقت متأخر من الليل.. في الساعات الأولى كنت منشغلا بكتابة تقرير مطوّل عن السقوط المفاجئ لبغداد، وعن الصمت المريب الذي رافق السقوط، ثم نطق الصمت رصاصا وانفجارات مفتوحة على خراب..

كتبت تقريرا عن الأيام التي سبقت الانهيار التام.. كتبت عن الإنزال الأمريكي في مطار صدام الدولي، وعن امتناع الحرس الجمهوري من

التوجه للقتال في المطار مما دفع الرئيس صدام حسين إلى قيادة إحدى كتائب الحرس بنفسه مستقلا الدبابة الأولى التي هاجمت القوات الأمركية في المطار مستعينا بالفدائيين والمتطوّعين من العرب، حيث تمكّن من قتل العشرات رغم أنّ طيران الجيش امتنع عن توفير غطاء جوي له، لقد تمكّن من تدمير كل ما كان موجودا من القطع العسكرية والأسلحة والبشر، والتقطت أمريكا أنفاسها وسحبت جرحاها ونجت من ذلك الجحيم بواسطة طائراتها التي حلّقت في السماء..

كتبت عن لغز ثلثي الجيش الذي فرّ إلى وجهة غير معلومة.. كتبت عن اختفاء الجيش العراقي فجأة وسقوط بغداد دون مقاومة كما تسقط فتاة قاصر في أيدي أوغاد يشوّهون ملامحها ويطعنون ما تبقىّ من عمرها. هل كان الانهيار بسبب خيانة بعض قادة الجيش؟ أو خيانة المقرّبين من الرئيس؟ أم أنّ تخاذل صدام هو الذي جعل السقوط سريعا..

كتبت عن تلك المرارة التي لمستها في قلوب العراقيين لأن قرية صغيرة في جنوب العراق تُسمى «أم قصر» ظلت تقاوم الاحتلال مدة أسبوعين، في حين لم تقاوم بغداد أبدا..

وكتبت عن تمثال صدام حسين الذي هوى، وعن صورته التي «بال» عليها أحدهم وداسها آخر برجليه، بينما راح آخر يضرب صورة صدام بنعله، ويتعمّد أن يكون الضرب على خده ليشفي غليله.. كل ذلك كان يحدث أمام المارينز ليقولوا لهم لقد أحسنتم عملا، وأمام كل المصورين العرب والأجانب..

كتابة هذا التقرير أتعبت جسدي ونفسيتي، وكنت سأخلد إلى النوم علّني أريح أعصابي التي احترقت مع تقرير عن سقوط مخز، لكني سمعت نقرا خفيفا على الباب.. كان عمار.. أنقذني من أرق كان سيهزم رغبتي في النوم.

قال لي كمن يعتذر عن ذنب:

ـ أتمنّى ألاّ يكون حضوري في وقت غير مناسب.

قلت وأنا أقف مصافحا له في حرارة كأنّي لم ألتق به دهرا:

ـ كنت في حاجة إلى صديق لكي يعينني على هذا الأرق.

جلس على حافة السرير، وجلست إلى جانبه.. دائما أجلس خيبتي إلى خيبته.. أتحاشى مواجهة عينيه.

وضعت يدي على كتفه كإعلان صريح لكل الحب الذي أحمله له، ثم قلت له وأنا أبتسم لوجه لا يشبه إلا عمار، الرجل الذي فقد كل شيء، فثار على كل شيء:

ـ إن الأرواح تتآلف. منذ اللقاء الأول أحسست أنك من أهلي وبعض دمي.

ابتسم تلك الابتسامة التي تعرّي ماضيا قديما وقال:

ـ كنت ألوم أبي كثيرا في سري ـ لأنه أحبّ فتاة جزائرية، وحمل ذكراها إلى قبره في رام الله. وكنت أستغرب كيف ملكت عليه قلبه ولم تترك ولو شبرا لأمي التي عاشرته بالمعروف ومنحته ولدا. لكن عندما التقيت بك عرفت أنّ الجزائري يحمل من الطيبة ما يكفي لأن يحضن كل من حوله.. الجزائري له قدرة عجيبة على التغلغل في القلب ومن الصعب أن تنساه ولو التقيت بعده أجناسا من البشر.

قلت له وأنا أمسح على جبهتي وأتذكر أول يوم التقيته فيه:

ـ أخبرتني في أول يوم أن أباك أحب فتاة جزائرية عندما كان يعمل مدرسا بإحدى ثانويات الشرق الجزائري..

أجاب وكأنه يسترسل في حديث بدأه منذ لحظات، وقطعه ليأخذ نفسا قصيرا ثم يكمل:

ـ كان ذلك في النصف الثاني من الستينات، حيث تعلّق قلبه بزينب.. ابنة شهيد ووحيدة أمها التي كانت ترى أن زوجة الشهيد ليست أرملة ولا يمكنها أن تعاشر رجلا آخر لأنها ما زالت على ذمة زوجها.. أمها التي رحّبت بأبي وفتحت له بيتها وقلبها، وتمّت الخطوبة التي جعلت أبي يطير فرحا، لكنّ الفرحة التي طارت به وجعلته يحلّق في سماء الأمل أوقعته أرضا لأنه لم يكن يرغب في الاستقرار بالجزائر، كان يريد أن يتمّم الزواج ويعود إلى فلسطين.. أمها رفضت واعتبرت هجرة ابنتها خيانة لأبيها الشهيد.

ـ حب بهذا الحجم كان يُلزم أباك أن يعيد الكرة مرة ومرتين.

ـ رفْض أمها كان غير قابل للمراجعة.. زينب انهارت، ولصغر سنها وقلة تجربتها في الحياة اقترحت على أبي أن يتزوجا ويضعا أمها أمام الأمر الواقع، لكن أبي كان يبلغ من العمر ما جعله حكيما وضحّى بحبه دون أن يخدش شرف امرأة أحبها، أو يتسبّب لها في فضيحة بين أهلها وجيرانها.. وقرّر أن يرحل وهو يعدها بأنه سيعود بعد مدة تكون أمها قد راجعت نفسها وعرفت حجم الحب الذي يجمعهما، وطلب منها ـ فقط ـ أن تبقى وفية له.. عاد إلى رام الله، مكث هناك ما يقارب عامين، وهو متأكد أنها لن تتزوج، أولا لأنها تحبه وكانت ترى الدنيا بعينيه. وثانيا، لأنها صغيرة، ولن يضرّها أن تنتظره عامين أو أكثر.. لكن الصدمة التي كانت تنتظره عند عودته جعلته يدخل إلى قبره ويواري التراب على قلبه الذي لم يحب امرأة أخرى بعد زينب.

ـ وجدها تزوجت؟

ـ بل ماتت..

ضربت رأسي بيدي غير قادر على تحمل صدمة النهاية وقلت:

ـ يا ألله، كم هي موجعة هذه النهاية، ويجوز لأبيك بعدها أن يكمل بقية حياته ممدّدا داخل قبر.

ـ ألمّ بها مرض خبيث فتك بجسدها الصغير.. الحزن على فقدان من نحب يجعلنا أكثر جاهزية للمرض والموت، وزينب أحبّت أبي حدّ

الموت، فعاد يحمل جنازة حبه.. رغم أنه تزوج من أمي بعد مدة إلا أنّ حزنا مفترسا ظل يسكن عينيه، ويطلّ من تفاصيل وجهه. وكان أغلب وقته صامتا يقرأ أو يكتب، أو شاردا لا يدري ما يدور حوله..

قاطعته وأنا أستغرب هذه التفاصيل الدقيقة عن ماضي أبيه ووجعه الخفي الذي لا يمكن أن يتحدث به إنسان إلا مع نفسه:

ـ من أين عرفت كل هذه التفاصيل؟ لا يمكن لأب أن يبوح لولده بكل ما يؤلمه، خاصة إذا كان حبا لغير أمه.

أجاب وهو يبتسم كمن يبرّر جريمة تلصّص على ماضي أبيه:

ـ بعد وفاته أصبحت وحيدا لأن أمي سبقته إلى الموت بأربعة أعوام، كنت أتجنّب الدخول إلى غرفته حتى أتحاشى فراغها الذي يجعلني أحس أني يتيم كأشد ما يكون اليتم ووحيد كأقسى ما تكون الوحدة، لكني قرّرت يوما أن أتصدق بملابسه التي كان ينتقيها بعناية فيبدو فيها أنيقا، وعندما كنت أخرجها من خزانته سقط كتاب على الأرض، انحنيت لآخذه فوجدته مسودة لكتاب بعنوان «قبر مفتوح» فتحت الصفحة الأولى، فقرأت إهداء مثيرا: «إلى زينب.. كنت الحياة.. وكنت القبر..» وبدأت قراءة هذه المذكرات.. أحسستها حقا مشروعا وأنّها من متاع أبي وعليّ أن أرثها بكل تفاصيلها ولو كانت مؤلمة، ولو كشفت لي نهايتها أنّ أبي نسبني إلى امرأة أحبها وجعلني أحمل اسم أبيها الشهيد، ولم ينسبني إلى أمي التي أنجبتني.. قرأت في مذكراته أنّه منحني اسم الشهيد عمار الذي خلّف المرأة التي أحبّ..

وراح عمار يحدثني عن هذه المذكرات بكثير من التفصيل، كنت أتطلّع إلى وجهه وأحس أني أقلّبها معه صفحة صفحة.. فلسطيني ترك قلبه في الجزائر، وعندما عاد ليستردّه وجده جثة هامده، فعاد بتجويف مفتوح على كل الخراب الممكن..

لم يغادر عمار غرفتي إلا وهو يقلّب الصفحة الأخيرة على حبّ يشبه ذاك الذي نقرأه في الحكايات والأساطير، حب انفتح على قبر عندما لم يعد ممكنا للحبيبين أن يلتقيا.. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما وضعت رأسي على الوسادة وذهبت في نوم هزمته أخيرا، بعد أن غلبني بشوقي لبلدي ولسعاد ولعينيها اللتين كانتا على استعداد دائم لأن تحضناني. طيفها نام معي تلك الليلة وجاور روحي كأني أعتذر لها عن مشروع خيانة كان يمكن أن يعبث بتاريخ حبي لها. احتضنت وسادتي وتركت رأسي يهوي على السرير دون متكئ، وكأني كنت في حاجة لأن أحضن ولو وسادة متهالكة لأحسّ ببعض التوازن والدفء.....

عندما نهضت صباحا، شعرت بثقل في عيني رغم أن الساعة قاربت العاشرة.. خرجت من غرفتي فوجدت الرواق خاليا والغرف موصدة على صمت، مررت على غرفة إنعام، كانت هي الأخرى موصدة.. هي تحب أن تستيقظ باكرا، قالت لي يوما: «عندما أستيقظ باكرا أحسّ ان العالم أكثر نقاء، فأستمتع بهذا النقاء قبل أن يستيقظ الآخرون ويعبثون بكل هذا الصفاء».

اكتفيت بفنجان قهوة، وخرجت أتحسّس خراب الأمكنة بعد السقوط المهين لبغداد.. التقيت عمار وإلهام في ساحة الفردوس يرصدان حجم الخراب الذي لحق بمدينة السلام التي هوت من غير إنذار سابق. سألتهما عن إنعام فأجاب عمار:

ـ لم أرها وأنا أخرج من الفندق، اعتقدت أنها نائمة.

ـ هي غير موجودة في غرفتها.

أجبيته وأنا أنقّل بصري بين الدبابات الأمريكية التي تدوس على آخر ما تبقّى لنا من شرف القبيلة.

قالت إلهام وقد بدأ القلق يظهر على ملامحها:

ـ إلى أين يمكن أن تذهب وصوت الرصاص أصبح يفاجئ الناس من حين لآخر؟

قلت وأنا أنظر إلى أقدام المارينز التي تقطع ساحة الفردوس وأدعو عليها بالشلل كأمّ قلّت حيلتها ولم تعد تملك إلا الدعاء على عدو عبث بشرف بيتها:

ـ الخروج لم يعد آمنا، والابتعاد عن الفندق أصبح مغامرة غير محسوبة العواقب.

قال عمار وهو يخفي الكاميرا داخل حقيبة جلدية سوداء ويحكم غلقها:

ـ علينا أن نبحث عنها، لا يمكن أن تبتعد عن ساحة الفردوس.

وبدأنا رحلة البحث عن أخت ضاعت في مدينة السلام، كنا نتعثّر من حين لآخر في صور صدام التي هوت على الأرض ونتجنب أن ندوسها بأقدامنا حتى لا نشترك في انتقام مشين.. كنّا نسمع صوت الرصاص غير بعيد عنا فتهتز قلوبنا فزعا من أن يكون قبرنا هنا. وبدأ صوت الرصاص يقترب منا أكثر. قالت إلهام وقد تبدّلت ملامحها:

ـ علينا أن نعود إلى الفندق، المدينة تشهد انزلاقا أمنيا خطيرا.

قلت لها وأنا لا زلت أقلّب بصري هنا وهناك علّني ألمح طيفها ولو من بعيد فيهدأ هذا القلق الذي يكاد يمزق صدري ويفضحني:

ـ كيف نعود من غير إنعام، كل واحد منا مسؤول عن الآخر إذا حدث له مكروه.

قال عمار وهو يحاول أن يحيي في نفسه أملا بأنها بخير:

ـ قد تكون رجعت إلى الفندق في غيابنا، لا فائدة من انتظارنا هنا.

وسلكنا طريق الفندق ونحن لا زلنا نجول ببصرنا هنا وهناك علّها تطلع لنا من مكان ما فتقضي على الخوف الذي يسكننا.. وصلنا إلى الفندق.. لم تكن موجودة بالبهو ولا بذلك الركن المنعزل الذي كانت تحب أن تجلس فيه. عندما سألنا عنها في الاستقبال، قال لنا شاب وسيم

جاهز للابتسامة وهو يقف باستمرار ليستقبل الوافدين إلى الفندق والخارجين منه:

ـ سلّمتني المفتاح الساعة الثامنة صباحا، ولم تعد لاسترجاعه.

وسقطت في ارتباك أفقدني توازني.. لا يمكن أن تظلّ طول هذه المدة في شوارع مدينة مفتوحة على الموت..

يا ألله، هل حدث لها مكروه ؟

لن أسامح نفسي لو حدث لها ذلك، بل سأجلدها لأني لست أمينا على الذين أحبهم، لم أكن أمينا على أختي وأنا أتركها تكابد يتمها وحسرتها على أب خرج ولم يعد.. لم أكن أمينا على أمي وأنا أسلمها إلى حزن أفقدها رغبتها في الحياة بعد أن فجعوها في زوجها الذي كانت ترى الحياة بعينيه وتقيس نبضها بدقات قلبه، فأفاقت ذات صباح وهم يقدمون لها كيسا أسود من البلاستيك ويجلدونها بحقيقة مرعبة «هذا رأس زوجك».. لم أكن أمينا على سعاد وأنا أمسك قلبها بيدي كل هذه السنين وأتركها تنتظر فارسا لن يأتي على جواد أبيض، بل سيصل إليها ممتطيا خيبته.. والآن ضاعت مني إنعام بكل تاريخها الذي أصبح بعض تاريخي.. في لحظة أحسست أن العالم سيصبح مفرغا إن رحلت منه إنعام ولن يملأه كل الذين يحيطون بي مهما كان حبهم لي.. سأصبح وحيدا كأقسى ما تكون الوحدة، وحزينا كأشد ما يكون الحزن..

أسرعت إلى الباب الخارجي للفندق، لكن عمار أمسك ذراعي بقوة وقال:

ـ إلى أين؟

ـ أحس أن إنعام في خطر، ويجب أن أسابق الزمن لأنقذها.

ـ صوت الرصاص قريب جدا من الفندق، انتظر حتى يبتعد قليلا ثم نعاود البحث عنها.

قلت له وأنا أحاول أن أحبس دمعا يكاد يغلبني، لكني هزمته فارتدّ حزنا هزمني:

ـ لن أسامح نفسي إن حدث لها مكروه..

ـ ولا أحد منا سيسامح نفسه لأن إنعام مسؤوليتنا جميعا، لكن أملي كبير بأنها بخير.

ثم استطرد وهو يشد على ذراعي مرة أخرى ويسحبني إلى أريكة في البهو الكبير فأجلسني عليها، وجلس هو إلى جانبي:

ـ سننتظر بعض الوقت، ثم نعاود الخروج للبحث عنها.

أطرقت وأنا أضع رأسي بين يدي وكأني أريد أن أمسك بصورتها الجميلة التي استقبلتني أول يوم وصلت بغداد.. كانت ملامحها صافية

كأشد ما يكون الصفاء وصادقة كأبعد ما يكون الصدق، لم تكن رقما أُضيف إلى قائمة الأحبة الذي يشكّلون جغرافية حياتي، بل كانت هي الخارطة التي تحيط بكل حدودي.. لم تكن ورقة من تاريخي أقلّبها وأعبر إلى الصفحة التي تليها، بل كانت هي كل تاريخي..

ـ هل تحبها؟

نقر عمار على قلبي بسؤال جعلني أحس بضعف لم أعشه من قبل.. ثم سمعته بستطرد:

ـ أعرف أنها تكبرك سنا، لكن الحب يعبر على كل الفوارق بين المتحابين.

رفعت رأسي إليه وقلت بصوت أقرب إلى النجوى:

ـ هل تعرف ما أكبر من الحب يا صاحبي؟ إنه الانتماء.. عندما تفقد شخصا تحبه يكون مجرد فقْد قد يجد من يملأ فراغه ذات يوم، لكن عندما يضيع منك شخص تنتمي إليه، تحسّ أنك أصبحت مفرغا من الحب ذاته، وأنك غير قادر على التواصل مع العالم بشكل منطقي..

وذهبنا في صمت نرقب اللحظة التي ستأتي.. تخيلت البهو الفسيح قفرا موحشا وسمعت الذئاب تعوي في أرجائه، هذه الأصوات المرعبة سمعتها من قبل، وهذه الرائحة النتنة التي تغطي المكان خبرتها في مكان آخر، إنها الذئاب التي كانت تعوي وهي تفترس ما تبقّى من جثة أبي

والتي وصل صوتها إلى داري بقريتي النائية بالجزائر، وهذه الرائحة النتنة هي التي نعت لي أبي قبل أن يصل إلينا رأسه في كيس للقمامة.. تصورت أنهم قد يدخلون علينا بين اللحظة والأخرى بإنعام وهي جثة هامدة.. تخيلت أنهم قد يدخلون علينا بها وهي أشلاء لملموها من أماكن مختلفة بعد أن مزّق الرصاص جسدها..

ماذا لو عادوا برأسها فقط؟

هل سأكون قد قطعت المسافة بين الجزائر وبغداد ـ فقط ـ لأُفجع في رأس امرأة أنتمي إليها، كما فُجعت في رأس أبي؟ هل سأتكوّر عند رأسها المفصول كما تكوّرت عند رأس أبي وأدخل مغارة الدم لأخرج منها مفرغا من الحب؟ أم سأملك الجرأة لأنظر في ملامحها اليتيمة، واعتذر لها لأني عجزت عن حمايتها؟

كان يجب أن أظل عند باب غرفتها أرقب دخولها وخروجها وأرافقها أينما ذهبت لأستحق شرف الانتماء إليها.

ورحت أدقق النظر في كل ما تقع عليه عيناي في هذه المساحة المفتوحة على صمت الموت ورهبة النهاية التي ترغمنا على أن نضع النقطة قبل أن ننهي الجملة الأخيرة التي نريد أن نقولها للذين نحبهم.. شهقة الموت تنسخ نقطا متتابعة لنعيش بحسرة جملة مبتورة.

الموت هو النقطة التي لا تقول بعدها شيئا لأن كل الذين تعلّمت من أجلهم البيان وحفظت الشعر واحترف قلبك فن الرقص على إيقاع

خطواتهم، رحلوا، فقدوا القدرة على أن يسمعوك ويمنحوك عمرا إضافيا..

وعدت ببصري إلى عمار الذي لازال يجلس مجاورا قلقي، وأفزعني أن رأيت إلى جانبه كيسا أسود يشبه ذاك الذي حوى رأس أبي ذات عشرية أصبحت فيها رؤوس الناس تُقطع وترمى في القمامة كأدنى ما يمكن أن تصل إليه الانسانية من السفاهة.. رأيت رأس إنعام يطل من فتحة صغيرة في الكيس ليبصق على ضعفنا وعدم قدرتنا على حماية من نحب.. حدّقت في الكيس جيدا، بدا لي أقل حجما.. رأس إنعام أصغر من رأس أبي ولن يحتاج إلى كيس كبير، يكفيه كيس صغير يشبه ذاك الذي يعود به الفقير من السوق وهو يحمل ما قدر عليه جيبه.. مسحت غشاوة كادت تحجب عني المكان ثم دققت النظر أكثر.. تنفست الصعداء وأنا أكتشف أنها الحقيبة الجلدية السوداء التي يحمل فيها عمار كاميرا يعري بها حجمنا الذي ينقص يوما بعد آخر..

نهضت مسرعا.. لحق بي عمار يتبع صمته صمتي وحرقته حرقتي وإصراره على الخروج إصراري على أن أقتفي أثرها ولو بين أنقاض مدينة تصدّعت وهوت..

وفجأة رأيتها أمامي !!

لا أدري إن كانت ملاكا جميلا نزل من السماء أم جنية ساحرة طلعت من الأرض.. لا يهمّ، فالأرض سخية، والسماء أكثر سخاء.

ـ أين كنت؟

لم تجب، وكأنها تلميذ يبرر لاستاذه ذنبه بصمته.

ـ لماذا تأخرت؟

ورأيتها أمامي كطفلة صغيرة شهية، ترتجف خوفا من غضب أبيها لأنها تأخرت خارج البيت.

كنت أريد أن أصفعها.. أن أشدّها من شعرها وأجرّها إلى غرفتها وأعاقبها بعدم الخروج لأيام.. كنت أريد أن أحضنها، أن أشدّها إلى صدري حتى يهدأ هذا الخوف الذي جعلها تقف واجمة تنتظر العقوبة التي سألحقها بها.

كيف يعاقب الرجل المرأة التي يحب عندما تعبث بمناطقه الآمنة وتخرّب هدوءه ؟

هل يصفعها ليعلّمها أن للحب جغرافية وتاريخا وحدودا، وعليها أن تحترم كل هذا باتفاقية حب لم يشهد عليها إلا قلبان التقيا عند خط النار وعقدا معاهدة وفاء ليموتا معا أو ينجوا معا ؟ أم يشدها إليه ويحضنها ليحسّ أنها لا زالت قريبة منه وبأنه لم يفقدها، وأنّ كل الحروب في العالم ستضع أوزارها عند طيبتها، وكل الدول العظمى ستقضي لأجل عينيها ـ على أسلحة الدمار الشامل التي تهدد العالم ؟

ورأيتها تسير نحو محرابها في الفندق. كانت منهارة إلى درجة أنها كانت تجرّ جسدها بقدمين متعبتين.. جلستْ، فجلسنا كأننا نتبع أميرة جلّلها الحزن.. انفجرت باكية.. للمرة الثانية أتورّط في دمعها..

قالت بصوت متهدج:

ـ ما رأيته كان فظيعا.. مدينة السلام تحترق، والمكتبات العريقة عبثوا بها كما يعبث سفيه بدرر وجواهر لا يميزها عن الحجارة.. النيران التهمت المتحف العراقي الذي زرناه قبل أيام والذي يضم مخطوطات أثرية، ألسنة النار كانت على بعد خطوات من الدبابات الأمريكية التي كانت تقف غير بعيدة عن بناية المتحف، ورأيت شيخا جليلا يتقدم منهم ويطلب التدخل لإنقاذ ما تبقى من ذاكرة بغداد، لكنه رجع خائبا لأن مهمتهم العبث بالذاكرة وليس حمايتها.. كنت سأهلك لولا أنّ الله ساق لي رجلا عراقيا طيبا عرف أني صحفية مصرية، أخذني إلى بيته فوجدت الآمان مع زوجته وأولاده، إلى أن هدأت الحماقة في الشارع فعاد بي إلى الفندق بسيارته.

قال عمار وهو يمسح على فزعها:

ـ كنا قلقين جدا لغيابك، لكن استريحي الآن وسنعرف منك لا حقا ما حدث لك.

ـ سأرافقك إلى غرفتك، إنك بحاجة لأن تستريحي.

قلت لها ذلك وسبقتها إلى مكتب الاستقبال لآخذ مفتاح غرفتي ومفتاح غرفتها. سألني ذاك الشاب العراقي الجاهز للابتسام عن واجب:

ـ أتمنى أن تكون الصحفية المصرية بخير؟

قلت وأنا آخذ منه المفتاحين وأبدو مثله جاهزا للابتسام، لكن عن حب:

ـ الحمد لله، هي بخير.

ـ انتبهوا لأنفسكم، المدينة لم تعد آمنة.

قلت وأنا لا زلت على ابتسامتي الجاهزة:

ـ إننا نحسن التعامل مع اللاأمن لأنه واقعنا، أما الأمن فإنه الاستثناء الذي لا يتكرّر دائما. هل عشت الأمان قبل اليوم؟ أو كنت تقف على مساحة من الحرية تجعلك تحس أنك حر في بلدك تقول ما يراه منطقك، وتجهر برأيك دون أن تخشى من يقطع عليك طريقك إلى البيت في وضح النهار، ويأخذك إلى السجن ليسوقك إلى النهاية التي يرى أنك تستحقها ؟

سحب الشاب ابتسامته الجاهزة عن واجب كإشارة إلى أنه فهم ما أرمي إليه، وسحبت ابتسامتي الجاهزة عن حب وأنا أغادره.

وعدت إلى إنعام فوجدتها كما تركتها وكأنها فقدت القدرة على الحركة، التفتّ إلى عمار وقلت له:

ـ سأرافق إنعام إلى غرفتها، وأستريح أنا أيضا في غرفتي بعض الوقت.

ـ نلتقي مساء إن شاء الله.

ومشت إلى جانبي على خوف، ومشيت قريبا منها على رغبة في أن أكون إلى جانبها دائما، وبألا خروج لها بعد اليوم إلا برفقتي..

كانت صامتة.. الصمت وحده يبرّر حماقتنا تجاه من نحب.

عندما وصلنا إلى غرفتها توقفتْ، وكأنها تضع نقطة للمكان الذي يجب أن أقف عنده. أدخلتُ المفتاح في قفل الباب، ثم أدرته وأنا أقول لها بكل الصدق الذي أحسه جسرا أعبر من خلاله من ضفافي إلى ضفافها:

ـ أتمنى أن تكوني أكثر راحة الآن.

رفعت عينيها إلى وجهي فصدمني ذاك الانكسار الذي تعثرتُ بشظاياه، وقالت:

ـ أعتذر عن كل القلق الذي سببته لك.

ـ وأنا أعتذر عن صراخي في وجهك، كانت حماقة لن أغفرها لنفسي.

ـ بل كانت صدرا آمنا كنت في حاجة إليه بعد الرعب الذي عشته. كان الرصاص قريبا جدا من قدمي اللتين تترصدان حجم الخسارة التي

لحقت بالحضارة الإنسانية وأنا أرى الكتب النفيسة تملأ الشوارع.. رجال ملثمون اقتحموا بعض المكتبات وأفرغوها من كل ما يمكن أن يصنع تاريخنا وتاريخ الإنسانية.. أحسست أن التاريخ يعيد نفسه، وأنّ ذاكرتنا أصبحت رمادا أسود لا أتبين منه شيئا.. التتار حوّلوا نهر دجلة إلى اللون الأسود وجعلوا ملايين المجلدات الضخمة ممرا يعبرون فوقه من ضفة إلى أخرى، واليوم وجدت نفسي شاهدا على آلاف الكتب الثمينة وهي ترمى في الشارع وتضرم فيها النار لتتحول إلى رماد نعبر فوقه إلى يتمنا التاريخي.

ثم استطردت وهي تهرب إليّ من هذا اليتم:

ـ لماذا يقتلون ذاكرتنا مرة بالغرق ومرة بالحرق ؟

قلت لها وأنا أسحب المفتاح من قفل الباب:

ـ لأنهم يعرفون أننا أقوياء بتاريخنا وبذاكرتنا، وضعفاء بحاضرنا.

أخذت المفتاح مني ونظرت إليّ بضعف المحب الذي أحسّ أنه أخطأ في حق حبيبه خطأ كبيرا كاد يكلفه حياته:

ـ صدقني يوسف، ما كنت أنوي أن أبتعد كثيرا، لكن حجم الخسارة هو الذي كان يقودني في حركة لا إرادية، وفجأة تقطّعت بي السبل والدخان يحجب عني الأفق وطريق العودة.. لم أكن أهتم بحياتي وبما سيحدث لي بقدر ما كنت حزينة للقلق الذي سأسبّبه لك بغيابي

المفاجئ والأحمق.. لم أكن أهتم بعدد الدقائق التي تمنح لي عمرا إضافيا بين رصاصة وأخرى بقدر ما كنت خائفة أن تخرج للبحث عني فتصيبك رصاصة حمقاء تجعلني أعيش بذنب سعاد مدى الحياة، لقد جرّبت من قبل إحساس امرأة تفقد رجلا تحبه ولا ترى الحياة خارج حدود صدره.

ثم استطردت وهي تشرع باب غرفتها:

ـ في كل مرة أقف وإياك بين أبي وزوجي وأقيس المسافة التي تفصلنا عنهما فأجدك أقرب إلى وجه أبي منك إلى صدر زوجي، رغم أنك أصغر مني وأنا أكبرك بكثير من الخيبات.

ـ وأنت طفلتي التي لن أنجب لها أختا.

ـ معك استعدت الإحساس بالأمان الذي فقدته منذ ان قتلت النكسة أبي ودهست الحماقة زوجي..

ـ ومعك أحسست أني قد أُكمل مشروع شاعر توقّف منذ سنين.....

ـ ستجلس هذه الليلة لتكتب لي أول قصيدة أوشح بها تاريخي الذي كان عامرا بالخيبات، أخمّن أنك ستبدأ بالعتاب..

ـ بل سأبدأ بالاعتذار لعينين لم أكن أمينا على صفائهما.

ـ بين العتاب والاعتذار مساحة صدق لا تكون إلا للذين نحبهم ونخاف فجيعة فقدهم.

ـ أو للذين ننتمي إليهم.....

وافترقنا على جمل متداخلة، لم نكن نعرف أن القدر سيقف عندها لتكون حياتنا التي جلسنا لنشطّب على كل الحروف داخل مربع الكلمات السهمية لنصل إلى كلمة السر.

(١٦)

الخروج من الفندق بات مغامرة نحو الموت المستتر أو المكشوف.. ومع ذلك كنا نقتطع من حرصنا دقائق للمغامرة، ثم نعود لنطلّ على انكسارنا من شرفات غرفنا..

كنا نقف، نراقب عن بعد ـ هذا الشلال القذر الذي زحف على مدينة كانت تحيا في حضن التاريخ..

الحسرة كانت تأكل من حماستنا ونحن نشاهد المارينز بسيطر على بغداد، ويرتب نفسه ليستقر هنا طويلا، وقبل هذا لا بد أن يخرّب أمن المدينة حتى يكون له حجة البقاء وحمايتها..

هذا الصباح..

جلسنا في بهو الفندق نتقاسم ملح الهزيمة ونعزي أنفسنا في عاصمة السلام التي سقطت دون مقاومة، وفرّ صدام إلى مكان مجهول.

كنت أجلس على أريكة تتسع لثلاثة وكأني تعمدت أن أفعل ذلك لأجاور الذين أحبهم. كان عمار يجلس إلى يساري، وإنعام إلى يميني ليسهل عليّ مراقبتها وتتبع خطواتها حتى لا أعيش فجيعة فقدها مرة أخرى، لكن هذه المرة كنت أجلس لصيقا بها.. لم أترك بيني وبينها مسافة أمان تقف فيها سعاد بابتسامتها البهية. لم أكن أفكر في هذه

المسافة بقدر ما كنت حريصا على أن تكون إنعام قريبة مني جدا لأمنعها من حماقة أخري تورطني في دمها.

وعلى أريكة تتسع لاثنين جلس منصور وإلهام، بينما هوى ناصر بجسده على أريكة يتيمة. وفي أماكن متفرقة من البهو جلس صحفيون ومصورون من بلدان عديدة.. كنا كمن يقيم صلاة الغائب على شهيد لا نعرف قبره، او كمن يحضر عزاء قتيل غاب أهله وحضر المعزون..

قالت إنعام وهي تنقّل بصرها بين الحاضرين:

ـ أحس أننا محاصرون داخل هذا الفندق، وأصبحنا غير قادرين على مواجهة الحقيقة.

وصمتنا جميعا وكأننا نعترف بعجزنا وضعفنا.

لكن عمار تمرّد على ضعفنا وضعفه، وصرخ بملء الوجع الذي يسكنه:

– لا يمكن أن نبعث لشعوبنا صورا عن الموت من شرفة غرفة بالفندق، لا بد أن نلتقطها حية ونلامس رعشتها لتكون صادقة.

كم كنت متلهفا على حتفك أيها الرجل القضية !!!

أيها الرجل الذي يهرِّب موته من قبر إلى قبر..

أيها البارود الذي لم يعد يدري أين ومتى سينفجر..

الإصرار على التحدي كان توأما لك ورفيقا لعمرك..

الإنسان الذي يولد في وطن يتقاسمه مع الغرباء، ويلازمه صوت الرصاص في منامه ويقظته، ويقاسمه اللعب مع أترابه ويرافقه حتى في طريقه إلى مدرسته، يكون الموت عنده لعبة يتسلّى بها في أوقات امتلائه..

وكانت انتفاضة عمار الشرارة التي قذفت بنا إلى شارع الموت..

للموت أيضا شارع نعبره، قد يكون طويلا فيتمدّد عليه الأمل في الحياة، وقد يكون قصيرا فيختصر أحلامنا في خطوة أو خطوتين..

قد يكون عامرا بالناس فلا نحسّ بغربة النهاية، وقد يكون مقفرا فيسلمنا من وحشة الحياة إلى يُتم القبر..

عندما كنا نخرج، كان كل واحد منا يحدّق في وجه الآخر كأنه يعانقه بصمت ليقول له بحرقة وفجيعة مودّع لحبيبه: « وداعا أيها الرفيق !! «

وعندما نعود مساء، نتفقّد بعضنا البعض، ونتبادل ابتسامة باهتة ونحن نقف على اكتمال عددنا..

كلّ منا كان يتوجّع وجعا خفيا لبقاء الآخر حيا، لأنه سيعيش حرقة وداع آخر..

كم هو مؤلم أن تودّع حبيبا تكون واثقا من عدم رجوعه حيا، فتستعدّ لتربية نفسك على غيابه من حياتك، لكنه يعود في آخر النهار وهو يحمل كفنه على كتفه ويهمس لك بمحبة: « استعد لفجيعة وداع آخر !!».

كم هو مؤلم أن يتقاذفك حبيب بين وداع قاتل ولقاء تتجدد معه فجيعة الفراق..

كنت دائما أحرص على أن أكون أنا وعمار وإنعام في خط واحد تحسبا لأي موت مباغت..

كنا نتوق أن نموت بالجملة لا بالتقسيط، فلا طاقة لأحدنا على فجيعة فراق الآخر..

رغبتنا في الموت بالجملة هي التي جعلت الآخر يقتلنا بالجملة، ويحفر لنا مقابر جماعية يُجاور فيها الأحياء الأموات !!

لون هذا اليوم كان يختلف عن سائر الأيام التي عشناها في بغداد..

المدينة تغرق داخل دخان كثيف، وتمارس انتحارها على الطريقة العصرية.. صوت الرصاص يطارد حمائم السلام التي تحطّ فوق المآذن، ودوي المدافع يعلِّب الموت ليقذفه طعاما جاهزا للأطفال والنساء.

قالت إلهام وهي تردّ على غضب عمار:

ـ يجب ألاّ نخرج حتى ينجلي وجه المدينة.

لكن عمار وقف كثور هيّجه لون أحمر.. قد يكون لون دمه الذي كان متلهفا عليه، وقال وهو ينظر إليّ وكأنه يدعوني لأن أكون شاهدا على دمه:

- ستكون تقاريرنا جافة وصورنا ميتة لو لم نلامس هذا الخراب الذي يتمدد على الأرصفة وينتشر في الشوارع.. حتى نحن لسنا بمنأى عن الموت، فالبارحة قصفت المدافع الجهة الخلفية للفندق، ولا ندري ماذا يحدث اليوم.

إيه.. أيها الرفيق..

دائما تسبق موتك بخطوات..

دائما تسعى إلى حتفك سريعا، ولا تنتظره أن يأتيك بطيئا..

وأطعناك في سعيك إلى حتفك..

لم يستطع أحدنا أن يجمح غضبه.. وخرجنا يتقدمنا عمار إلى الباب الخارجي، وكنت أتبعه رفقة إنعام.. وأدركنا آخرون.....

وفاجأتنا صاعقة لا ندري من أين نزلت..

وتبعتها صواعق أخرى زلزلت الفندق وأضاعت أجسامنا وإدراكنا و...

ولا أدري ماذا حدث بعدها...

• • •

عندما فتحت عيني كان الضباب يغشى ما أمامي...

اعتقدت حينها أننا في شارع من شوارع بغداد نصارع زحمة الدخان، فكثيرا ما كان الدخان يغيّبنا عن بعضنا البعض، ويجعلنا لا نعرف كيف نصل إلى وجه من يقف إلى جانبنا...

لكن شيئا فشيئا بدأت الحقيقة تتجلى.. وميَّزتُ صورة إنعام.. ورجلا آخر بلباس أبيض يقف قريبا مني ..

أردت أن أستفسر عن الأمر فجاء السؤال كلمة .. قلبا كنت أتمناه أن يحضنني وجرحي الذي لا أدري كيف انفتح:

- إنعام.....

ما إن سمعت صوتي حتى هرعت إليّ، وقرَّبت فجيعتها من فجيعتي:

- يوسف، أنت بخير.. حمدا لله على سلامتك..

ومن بين ركام حيرتي طلعت جملتها الأولى التي ألقتني عند مشارف قلبها الجميل وعينيها الصافيتين وهي تستقبلني أول مرة عند باب الفندق بلهجتها المصرية المتميزة «حمدا لله على سلامتك».

بين السلامة الأولى ، والسلامة الأخيرة مسافة قبر..

وبين الفرحة بسلامة الجسد وعودة الروح زلّة وجع..

من ابتسامتها الباهتة، ومن بياض يلفّ كل ما يحيط بي فهمت أن الصواريخ قصفت الفندق، وأنني في المستشفى بسبب لك..

جلت ببصري ـ الذي عاد لتوّه إلى وعيه – كل أنحاء الغرفة كأني أبحث عن غال أضعته أو أضاعني.. تذكرت أني كنت أجلس في بهو الفندق، الشمس عن يميني والقمر عن يساري.. الشمس حاضرة أمامي الآن، لكن القمر غائب..

سألت إنعام بفزع:

– أين عمار ؟ لا أراه معك.. كنا معا آخر مرة.

نكست رأسها خيبة وألما.. تسابقت الدموع إلى وجنتيها من خلف نظارة سوداء كانت تغطي عينيها الجمليتين. وتحرّك لسانها ليقول مأساتنا في بلد السلام:

– عمار.. إنه.....

وكان صمتها المتعثر سفيرا لكلمات تعذّر عليها الحضور.. استعصى عليها أن تقول أنه «قُتِل».

ومتى كان حيا لنقول انه قُتِل !!

متى كان ينبض بالحياة ليصبح مقتولا !!

متى كانت له صورة تمشي فوق الأرض ليصبح جسدا ممددا داخل قبر !!

متى كان عامرا بالحياة ليصبح مفرغا منها !!

عمار.. مقتول منذ الولادة الأولى، منذ كان نبتة في رحم أرض لا حق له في ترابها ولا هوائها..

عمار.. مقتول منذ أن خرج من وطنه عاريا إلا من فجيعته وكاميرا يعلقها على صدره ليصوّر بها سقطات عصر مجنون..

عمار.. مقتول منذ أن تزوج سلمى قضية وتركها بعد شهر لتكمل حياتها في معتقل أحمر..

عمار.. مقتول منذ أن عرف أن زوجته وضعت ابنه داخل المعتقل وأنه سقط على بلاط بارد، لتتلقفه أياد أتقنت الإجرام ثم أسلمته إلى أخيه عاريا إلا من خيبة ستلازمه في كل مراحل حياته..

عمار.. مقتول منذ أن هاجمه كابوس اغتصاب زوجته وهو يقف مقيد اليدين والرجلين، غير معصوب العينين.

عمار.. مقتول منذ أن أصبحت قضيته لعبة كبيرة على مائدة قمار سياسي يلتفّ حولها مجانين العالم يتاجرون بها حينا، ويرهنونها حينا آخر ويركلونها غضبا في كثير من الأحيان..

عمار.. عاش متدثرا بكفن الشهيد منذ أن نسبه أبوه إلى المرأة التي أحبّ ومنحه اسم شهيد من الجزائر..

عمار لم يكن يوما حيا، بل كان يطل علينا من قبر ممتد فينا..

لنقلْ الآن أنه عاد حيا !!

وجاء صوت إنعام يضمِّد فجيعتي، ويغسل بقسوة المحبّ ما تعفّن من جراحاتي:

– إنه قدرنا ولا مهرب منه.. قدرنا أن نموت خيبة في أوطاننا، ونهلك قهرا وتنكيلا على أيدي أعدائنا..

أعادتني حكمتها إلى وعيي..

أشعر أنّي أصبحت أكثر قوة وقدرة على الكلام.. لكنّ فراغا رهيبا أحسه يعوي في جسمي كذئب شرس، وألما خفيفا يوخزني في أعلى الساق..

مددت يدي لأتحسس موضع الألم فإذا هي تنغمس في فراغ زلزل ما استجمع عندي من قوة..

رفعت رأسي إلى إنعام وكأني أسألها:

أيتها المرأة المجاورة لدمي.. ماذا ضاع مني ؟!!

ما هذا الفراغ الذي أحسه في روحي وجسدي ؟!!

ما هذا الذي أراه مشوها في مرآة خيبتك التي تقف أمامي ؟!!

من هذا الرجل الذي أراه منكسرا في مرايا عينيك الجاثمتين عند قدمي فراغي واللتين تصرين على إخفائهما وراء نظارة سوداء أجهل سبب إصرارك عليها حتى وأنت في حضرة وجعي؟ هذا الرجل الذي تنعكس صورته على نظارتك السوداء القاتمة يشبهني لكنه ليس أنا !!

ثم نظرتُ إلى الطبيب أطلب منه تفسيرا لهذا الفراغ الذي أحسّه في جهتي اليسرى..

اقترب مني الطبيب العراقي حتى لا مست أنفاسه الهادئة أنفاسي المتعثرة، وقال لي راسما ابتسامة مبعثرة على ملامح وجهه:

ـ حمدا لله على سلامتك يا بطل، لقد ظللت تقاوم الموت شهرا كاملا، لكن إرادة الحياة عندك كانت أقوى من إرادة الموت. من النادر أن نقابل مرضى بهذا الإصرار على الحياة.

قلت له وأنا أنظر إلى شفتيه وكأني أبحث عن الحقيقة بينهما:

ـ ولكني أحس فراغا في ساقي اليسرى.

وتحركت شفتاه لتصدر حكما كان قاسيا:

- ليست الحقيقة هي التي تصدمنا، ولكن محاولة الهروب منها.

ثم استطرد:

- يؤسفني يا عزيزي أن أخبرك أن رجلك اليسرى قد بُترت من أعلى الفخذ، لكنك أحسن حالا ممن فقدوا حياتهم.

آه..

كم كنت جلادا أيها الطبيب وأنت تنعي إليّ ما ضاع مني..

بل كنت رحيما وأنت تبشرني بما تبقّى مني..

وها أنت تريد أن تكون حكيما، وتحاول أن تجمع بين ما ضاع وما تبقّى:

- إن رجلا بمثل قوتك وعزيمتك لا يمكن أن ينتهي عند بتر ساق، فمعظم العباقرة الذين أناروا العالم كانوا بأعضاء وحواس ناقصة..

آه.. أيها الحكيم.. أي نور تتوقّع أن أضيفه للعالم وقد انطفأت كل الفوانيس التي كانت تنير دربي ؟

لبسني الصمت وتاهت مني الكلمات، ولم أدر هل أحزن على ما ضاع مني أم أفرح لما تبقّى من جسدي؟!

كاد الصراخ يغلب عزيمتي لكن دموع إنعام التي سقطت على فراغ ساقي المبتورة حبست الآه في حلقي.. ثم استرخى فزعي على الوسادة

التي كانت تحضن رأسي، وتوسّع الإستسلام في شراييني ليصنع أنفاسا مكدودة..

وتراءت لي سعاد وهي تلقي بابتسامتها العريضة وفستان فرحها الأبيض على فراغ جسدي وما تبقّى مني..

حينها أصدرت صرخة غيّبتني عن كل من حولي.. شعرت فقط بوخز في يدي اليمنى.. كانت حقنة مهدئة رآها الطبيب ضرورية لأفيق بعدها وأستوعب حجم الخسارة التي لحقت بالروح والجسد.

في اليوم الموالي

وجدت الطبيب يدخل إلى غرفتي منفردا، سحب كرسيا حتى لامس السرير الذي أنام عليه.. بدأ بالسؤال عن أحوالي:

ـ هل أنت بخير ؟

واستطرد دون أن ينتظر مني جوابا:

ـ أحس أنك أصبحت أحسن حالا من الأمس.

أجبته بصوت بدأت تدبّ فيه الحياة:

ـ الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

ـ الان اطمأن قلبي إلى إيمانك القوي، وبأنه لا يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، وابتلاء يصيبنا في الجسد أهون بكثير من ابتلاء يصيبنا في الروح.

ثم أربكني بسؤال مفاجئ:

ـ هل أنت متزوج ؟

أومأت له برأسي أن «لا»

ـ أرجـــو أن تتريّث في هــذه المسألة، فقـد خسرت الكثــير من قوتك .....

لم أكن في وعيي لأسمع بقية كلامه، ولم يكن يهمّني أن أسمعه.. يكفي أني فقدت رجولتي لأفقد القدرة على السمع والكلام والتفاعل مع من حولي بشكل صحي.....

كنت فقط أحتاج إلى حقنة أخرى مهدئة لأستوعب أني لم أعد رجلا، وأني لم أعد أصلح إلا أن أكون مهرّجا على موائد القمار السياسي أُضحك زعماء العالم الذين علّقوا فحولتي إلى أجل غير مسمّى !..

• • •

صباح آخر في تاريخي الجديد المخصي..

دخلت إنعام بمفردها.. كانت بدون النظارة السوداء وكأنها أرادت أن تضمّد جرح فجيعتي في ساقي ورجولتي بفجيعتها في فقدان عينها اليمنى!!

جلست على كرسي مجاور للسرير الذي كان آخر عهدي بعاصمة الرشيد.. الرشيد الذي عجز أن يحمي رجولتي رغم أني أحسست ـ وأنا إلى جانبه في الطريق ـ أني أتوسّط ولديه الأمين والمأمون وأني أصبحت قريبا جدا من قلبه إلى درجة أني أكتسبت حصانة سياسية تُبيح لي أن أفعل ولا يُفعل بي.. الرشيد عجز حتى أن يحمي مكتبته من المذبحة.. الحجاج أيضا انكسر سيفه وتعثّر شيطانه ولم يستطع أن يمنع فتنة ستعمّر طويلا في شوارع بغداد..

الآن

أنا وإنعام وحيدان داخل غرفة بالمستشفى..

نظرت إليها.. أفزعني اختفاء عينها اليمنى وراء ضمادة ناصعة البياض..

قلت لها وأنا أتنقل بين وجعي ووجعها:

ـ لا أدري هل أرثي ما ضاع مني، أم أرثي ما ضاع منك.

ـ صدقني يوسف، لست آسفة على ما ضاع مني، فعندما يرحل الذين نحبهم تكفي عين واحدة لنرى الاخرين.

ـ لا أصدق أن كل الصحفيين الذين جاوروا خوفنا وحلمنا ورجاءنا رجعوا إلى بلدانهم، ولم يبق إلا أنت، ظللت إلى جانب غيبوبتي مدة شهر..!!

ـ قلت لك منذ لقائنا أني أنتمي إليك، ولم يكن باستطاعتي أن أتركك تصارع الموت لوحدك، كنت أحس أنّ وجودي إلى جانبك سيمنحك القدرة على مجابهة الموت..

قلت لها وأنا أنظر في عينها اليتيمة التي كانت تحتويني بلونها البني الآسر على انكسارها:

ـ كنت قويا في مجابهة الموت، وسأكون ضعيفا جدا في مجابهة إعاقتي وعدم قدرتي على.....

قاطعتني بصوت يحمل الكثير من الرجاء ويحرّضني على التشبث بالأمل:

ـ إنها قضية شهور معدودة، وتعود إليك قوتك، وستحقق حلمك في الزواج من سعاد، وسأكون حاضرة لتألّق فرحكما أرقب سعادتكما ولو بعين واحدة.

قلت لها وأنا أضع يدي اليمنى على يدها التي أصبحت قريبة جدا من صدري:

ـ ألم أقل لك يوما أنك ابنتي التي لن أنجب لها أختا؟ يبدو أنّ القدر انحاز لرغبتي على قسوتها.....

صمتت وهي تدرك ما أرمي إليه..

صمتت، لتمنح فرصة الكلام لدمعة نزلت على يدي اليمنى وهي تقبلها لتكون آخر عهدي بها، وآخر عهدي بالحياة خارج مغارة الدم.....

-

تعريف بالمؤلفة